



دائرة المعارف الفلسطينية

موسوعة علماء فلسطين وأعيانها

الجزء الرابع

إعداد: مجموعة من الباحثين

تصدر بإشراف
إ. د. يحيى جبر
أستاذ علم اللغة

نعيم خضر
اسحاق موسى الحسيني
محود دسوقي
قدري طوقان
سعيد الكرسي

موسوعة علماء فلسطين وأعيانها

الجزء الرابع

إعداد وتأليف
مجموعة من الباحثين

تصدر بإشراف
أ. د يحيى جبر
أستاذ علم اللغة بجامعة النجاح الوطنية

التصميم والمونتاج: عبد الهادي جوابرة

تعريف بدائرة المعارف الفلسطينية

- محاور دائرة المعارف الفلسطينية
- موسوعة علماء فلسطين وأعيانها، ويتضمن هذا المحور مادة الموسوعة التربوية الفلسطينية وزيادة
- خزانة فلسطين التاريخية
- خزانة فلسطين الجغرافية
- سلسلة التراث الشعبي الفلسطيني «من الخابية»
- بنك معلومات القدس

المحتوى:

نأمل أن تحتوي هذه الدائرة على كل ما يتصل بفلسطين الأرض والإنسان، مخترقة حدود المكان والزمان. وهي مبوبة في محاور بحسب الموضوعات التي تشتمل عليها، فقسم لعلماء فلسطين وأعيانها عبر القرون، بغض النظر عن ديانتهم ومذاهبهم وتوجهاتهم الفكرية والحزبية، وآخر يتضمن خزانة فلسطين التاريخية، ندرج فيه وقائع الزمن، والحوادث التي تعاقبت على فلسطين، وثالث يخص لخزانة فلسطين الجغرافية، فلا نترك موقعا ولا بلدا ولا عينا ينتهي إليها علمنا إلا رصدناها فيه، كما تتضمن الدائرة قسما يخص المآثورات والفنون الشعبية الفلسطينية، أسميناه «من الخابية» الوعاء الفلسطيني المشهور في بيوتنا قديما، وسيدرج في هذا الإطار كل ما يتصل بأنماط الحياة الشعبية مما له ارتباط بالقول أو العمل اليدوي أو الحركي. أما القسم الخامس فهو «بنك» للمعلومات المتصلة بالقدس على وجه الخصوص.

ولما كان المشروع على هذا القدر من التشعب والاتساع، فإننا نهيب بكل مطالع أن يبادر إلى تزويدنا بما لديه من معلومات على هيئة مادة إلكترونية، أو أن يرشدنا إلى المصادر التي يمكن أن نجد فيها ما يندرج في هذه الأطر، كما أننا نستأذن الباحثين والناشرين في نشر ما نجده من موادهم الإلكترونية في هذا الموقع. وسنسعى من بعد إلى إصدار المادة مطبوعة في مجلدات نحكم ترتيبها بطريقة تسهل الرجوع إليها.

الهدف:

تهدف جامعة النجاح الوطنية من وراء هذا المشروع إلى توثيق فلسطين الأرض والإنسان انطلاقا من شعورها بالمسؤولية التاريخية تجاه فلسطين وقضيتها ومستقبلها، فلئن حالت الظروف المتعاقبة دون إنجاز المشروع الحضاري الفلسطيني وفقا لما يقتضيه انتماء فلسطين وأهلها؛ فليس أقل من النهوض بما يوثقها ويحفظها من الضياع، ولا سيما أن كل فلسطين مستهدفة أرضا وإنسانا وثقافة وتراثا.

سنبادر إلى رفع ما لدينا من مواد دائرة المعارف الفلسطينية على الشبكة الإلكترونية، وسنبداً في الوقت نفسه بجمع المعلومات المختلفة ومعالجتها لرفعها، راجين من كل متصفح أن يبادر إلى الإسهام في هذا العمل الجليل، وسندرج اسم صاحب المشاركة إزاءها من باب حفظ الحقوق. وستصدر الجامعة مواد دائرة المعارف في كتب تنشر تباعاً بحيث تتضمن المادة الأصلية وما قد يرد إلينا من تعليقات أو نقد أو مداخلات تتصل بها.

مردود المسؤولية:

لا تتحمل الجامعة أي مسؤولية تجاه ما ينشر، وإنما تقع المسؤولية أول ما تقع على عاتق المؤلف يليه في ذلك من يعترض أو ينتقد، لأننا ننشر ما ننشره ونترك للمتصفحين حق التعليق والتعقيب، وحق الرد والنقض، فنحن نعلم أن أحكامنا على الأشخاص والأشياء من حولنا تختلف، إذ أن كلاً منا يحكم بحسب ما يتوفر لديه من معلومات، ونعد بنشر كل ما يرد إلينا من مداخلات أو تعليقات دون تدخل. ونأمل بذلك أن يتمخض الحوار عن الحقيقة التي تتكفل الأيام بحفظها بعد أن نعمل على جلائها.

تصدير

انطلاقاً من الدور المنوط بجامعة النجاح الوطنية من حيث هي أكبر المؤسسات الأكاديمية في فلسطين، ومن استعدادها للنهوض بأعباء المشروع الحضاري الفلسطيني، فقد شرعت في إعداد دائرة المعارف الفلسطينية، وبادرت إلى جمع المعلومات التي تتصل بعلماء فلسطين وأعيانها، وبالمواقع الجغرافية، والوقائع التاريخية، إضافة إلى ما وعته الذاكرة وترجمته الحياة الشعبية من مآثورات قولية أو يدوية، إلى جانب ما يتصل بمدينة القدس مما نطمح إلى أن يشكل من بعد بنكا للمعلومات الخاصة بها.

وقد رأت الجامعة أن تكلف الأستاذ الدكتور يحيى جبر بمهمة الإشراف على هذا العمل الضخم، لخبرته في هذا المجال، إذ سبق أن أصدر تراجم لنحو من مائة من أعيان فلسطين وأعلامها، كما أصدر بضعة كتب تتصل بتاريخ فلسطين والمواقع الجغرافية الفلسطينية والأدب الشعبي.

إن جامعة النجاح الوطنية لترجو بهذا العمل أن تحقق مزيداً من التفاعل الحضاري على الساحة الوطنية في جميع مجالات المعرفة، ونحن من هنا نهيب بكل المعنيين أن يبادروا إلى التواصل مع الموقع المخصص لدائرة المعارف الفلسطينية، وأن يزودوه بما لديهم من معلومات، وألا ييخلوا بملاحظاتهم وإبداء آرائهم لما في ذلك من نفع يعود على الجميع، ولا سيما أننا سننشر ما يرد إلينا على مسؤولية مؤلفه؛ تاركين للمتصفحين حق الرد والتعليق والنقض، واعددين بأن ننشر ذلك من بعد في كتب تشكل أجزاء دائرة المعارف.

وتمثل هذه الدائرة، في حال إنجازها على الوجه المأمول، نجاحاً وطنياً كبيراً، يسهم في تحقيقه الفلسطينيون هوية وهوى، وإن فلسطين لتستحق منا ذلك وأكثر، ونرجو بهذا العمل أن نوفق إلى توثيق فلسطين وحفظ تراثها والتعريف بأعيانها وعلمائها ونعرف بمواقعها ومآثوراتها، فلا تطالها أيدي المعتدين، ولا يجور عليها الزمن بالعفاء والاندثار.

إن الشعب الفلسطيني، وبالرغم مما تواتر في ساحته من الأحداث، لقادر على النهوض بعزيمة الغير من أبنائه، لتحقيق أهدافه المشروعة، متحدياً الاحتلال، و متمرداً على ظروفه العصيبة، ومن هنا كانت مبادرة جامعة النجاح الوطنية إلى الشروع في إصدار أجزاء دائرة المعارف الفلسطينية، لتكون عوناً للباحثين، ومصدر افتخار لأبناء فلسطين، وهذا أوان الشد.

أ.د. رامي حمد الله

رئيس الجامعة

مقدمة

إن الشعوب التي تحرص على التواصل بين أجيالها المتعاقبة، وتحافظ على ذاكرتها يقظة حاضرة بشكل مستمر، لهي جديرة بالارتقاء في مراتب المجد، وبلوغ آمالها وتحقيق أهدافها؛ وإن أبطأ بها الزمان لما قد يعترض طريقها من عقبات كالاحتلال وتفرق الأسر ونقص الموارد، ولكنها لا تلبث حتى تحطم أغلالها، وتكسر قيدها، وتنطلق في مسيرتها بعزيمة وثبات.

وتسعى جامعة النجاح الوطنية بهذا العمل إلى تقديم أعلام فلسطين وأعيانها الراحلين لهذا الجيل ولمن بعده من الأجيال؛ ليتخذوا منهم قدى يحوكون على منوالها، ومشاعل على طريق تحقيق الذات للنهوض بالمشروع الحضاري الفلسطيني من حيث هو لبنة في ما تسهم به الأمة من دور في تشييد صرح الحضارة العالمية.

وستصدر هذه السلسلة من الأعلام في كتب متتابعة لتشكّل مع سلسلة « من الخابية » للمأثورات الشعبية، وخزانة فلسطين التاريخية، وخزانة فلسطين الجغرافية، وبنك معلومات القدس _ دائرة المعارف الفلسطينية، التي ترحو بها جامعة النجاح أن تخطو بالمجتمع الفلسطيني خطوة جبارة على طريق السؤدد الاجتماعي والمجد.

وسنكرر هذه المقدمة في صدر كل عدد من أعداد السلسلة، كما أننا سنجعل ترقيمها متسلسلاً بحيث يبدأ ترقيم الكتاب التالي من حيث ينتهي هذا الكتاب.

وقد حرصنا في تقديم الأعلام بما تيسر لنا من معلومات عنهم، بغض النظر عن الاختلاف بين مناهج المحدثين، وتفاوت الموضوعات التي تغطيها التراجم المختلفة، إذ أننا تركنا المجال مفتوحاً للمحدثين لجمع ما يرونه من المعلومات عن هذا العلم أو ذاك، على نحو ما يجده المطالع في هذه السلسلة من تفاوت. وفي ترتيب الأعلام في أعداد الموسوعة لم نلتزم منهجاً محدداً في تتابعهم على صفحاتها، بل جئنا بهم عشوائياً؛ إذ لا سبيل إلى انتهاز آلية بعينها لتحقيق ذلك؛ لأن العمل لم يتوقف، فقد يدرج علم في موضع ما فنحصل على ترجمة لعلم آخر هو أولى منه به، فيختل بذلك نظامها، ولكننا سنقوم بإعداد فهرس شامل لدى اكتمالها، ونكتفي قبل ذلك بإصدار كشاف يلحق بأعدادها المتوالية؛ يتضمن بيان الموقع الذي ورد فيه كل علم ترجمنا له.

وجدير بالذكر أننا لا نحقق في صحة المعلومات الواردة في تراجم الأعلام، فذلك يحتاج إلى جهود لا سبيل إلى توفيرها، ولكننا، ومن أجل أن يظل الباب مفتوحاً أمام التصويب والتصحيح، نلجأ من كل القراء أن يبدوا آراءهم في ما يقرؤونه، وأن يعقبوا عليه _ إن شاؤوا _ سلباً أو إيجاباً، لأننا نعلم أن بعض الأعلام كانوا _ وما زالوا _ يشكلون لغزاً يصعب حله، والتحقيق من أمره، ومرادنا هو أن نقدم للقراء صورة صادقة عن رموز حركة الوعي والنشاط الاجتماعي في فلسطين ملونة بألوانها التي تحملها مرددين مقولة « هذا نحن » بما لنا وما علينا.

كما نرجو من القراء الكرام أن يبادروا إلى الإسهام في إعداد هذه الموسوعة، وفي غيرها من فروع دائرة المعارف الفلسطينية، وألا يألوا جهداً في سبيل إنجازها على أكمل وجه وأوفاه، لأن فلسطين تستحق منا ذلك وأكثر منه، فقد دقت ساعة العمل، وحان الوقت لنفض غبار الزمن، ورفع راية التحدي الحضاري.

وكنيت في العقدَيْن السابقَيْن قد أصدرت نحواً من خمسة وأربعين مطبوعة تضمنت تراجم لكثير من أعيان فلسطين، ولكنني لم أتمكن من مواصلة إصدارها لأسباب مختلفة، حتى كانت مبادرة الأستاذ الدكتور رامي حمد الله حين أبدى رغبة الجامعة في إعادة إصدارها وتقصي سير الأعلام الفلسطينيين على أوسع نطاق ممكن.

وهنا لا بد من كلمة حق أنوّه فيها بجهود الأستاذ الدكتور رامي حمد الله، رئيس الجامعة، وضابط إيقاع أنشطتها المختلفة، وأثني على دوره الفعال في رفع شأن العلم والعلماء، وتشجيع الفعاليات الثقافية والعلمية في الجامعة والمجتمع، إذ لولا ذلك منه لما أتيح لهذا العمل أن يرى النور بصورته العتيدة. والله الموفق للسداد.

أ.د. يحيى جبر

نابلس في ٥/٥/٢٠١٠م

الدكتور نعيم خضر

١٩٢٩ - ١٩٨١

أ.سنبله جريس ذياب

الدكتور نعيم خضر

القدمة:

في الأول من حزيران عام 1981م وفي تمام الساعة التاسعة وعشر دقائق من صباح يوم الاثنين، تفاجأ العالم بأسره باغتيال الدكتور نعيم سليم خضر ديبس ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في بروكسل. وقد مرت كل هذه المدة دون أن نتذكره كثيراً، وكأنه زال من ذاكرتنا الوطنية بالرغم من أنه لعب دوراً مهماً في التحضير لهذه المرحلة الراهنة، فقد عاش الزمان قبل الأوان، لا بل جسد الماضي والحاضر والمستقبل، إني أقوم بإعداد هذا البحث ليس لأني من قريته؛ الزبادة، ولكن لأني فلسطينية، لم أفقد الذاكرة بعد، ولأني أخاف على الأجيال اللاحقة أن لا تتذكر قوافل الشهداء الأبرار الذين ضحوا بحياتهم في سبيل الوطن، في الكفاح السياسي والفكري والإعلامي المنظم والذكي، أملاً في أن يبقى ذكره مؤبداً.

لقد حاولت من خلال هذا البحث أن أُلِمَّ بجميع الجوانب التي تخص الدكتور الشهيد نعيم خضر، فضمنته نبذة عن حياته منذ مولده حتى استشهاده، والمراحل والبلدان التي مر بها، وبعض مصادر ثقافته وتعلمه، ومن ثم استطعت أن أرصد بعض المقابلات والكتابات الصادرة عنه، وبعض المقابلات مع ذويهِ، وأيضاً دعمت هذا العمل ببعض القصائد التي قيلت بعد موته من شعراء عصره الذين تأثروا بموته، من أمثال سميح القاسم والشاعرة الناشئة نعيمة الأحمد، واختتم هذا البحث بمادة رائعة له، وهي عبارة عن رسالة بعث بها إلى صديقه الأب رفيق خوري يتنبأ فيها باستشهاده قبل ثلاث سنوات من موته، وكانت هذه الرسالة خاتمة للبحث؛ أتمنى منها أن تنشر عطر نعيم الذي كان بحق وحقيقة شهيد فلسطين.

نشأته

ولد نعيم خضر في 30 كانون أول عام 1939م في قرية الزبادة قضاء جنين، كان السادس بين أفراد عائلة من سبعة أولاد. كان عمره تسع سنوات عندما توفي والده، درس في مدرسة اللاتين في القرية؛ حيث شجعه كاهن الرعية على متابعة دروسه، فالتحق بالمعهد الإكليريكي في بيت جالا حيث درس الفرنسية والإيطالية بالإضافة إلى الإنجليزية، وتابع دروسه الفلسفية واللاهوتية لمدة خمس سنوات بين 1958-1963م حيث كان طالباً لامعاً، وفي السنة السادسة؛ الأخيرة، ترك نعيم الدير لأنه لم يشعر بالدعوة أي الكهنوت، ولأن رسالة أخرى كانت تنتظره.

وبعد سنتين من التدريس في مدارس الأردن والتردد بشأن مستقبله قرر نعيم متابعة دراسته، فسجل في كلية الحقوق التابعة لجامعة لوفان سنة 1966م حيث كان يدرس ويعمل لتغطية مصاريف الجامعة؛ يقرأ لرجل أعمى، يخدم في المطاعم والمقاهي.. حتى حصل على درجة الدكتوراه في الحقوق سنة 1969م، ونال الدبلوم في علوم البلدان النامية، وفي تلك السنة انتخب رئيساً لاتحاد الطلاب الأجانب بعدما كان رئيساً لاتحاد الطلاب العرب في جامعة لوفان.

وفي سنة 1970م بدأ نعيم بالتخصص في القانون الدولي في جامعة بروكسل الحرة، وكان يتابع دروسه وهو يقوم بأعمال مهمة:

- موظفاً في سفارة السعودية
- وفي مكتب الجامعة العربية في بلجيكا
- ومسؤولاً عن الخدمات الإعلامية

وكان قد بدأ ينخرط في العمل السياسي، وبما أنه قد انضم لحركة فتح منذ عام 1968م وضع نفسه في خدمة منظمة التحرير الفلسطينية، حيث أصبح ممثلها الرسمي بسرعة، وكان نشاطه يكبر بحسب نمو الاعتراف الدولي بالمنظمة، وكان تعيينه مديراً لمكتب المنظمة في بروكسل تكريساً لهذا الواقع، حيث اعترفت الحكومة البلجيكية بها رسمياً سنة 1976م، فازدادت مسؤوليات نعيم خضر، فقد سهل انخراطه في الأوساط البلجيكية بسبب غيخته وصفاته الدبلوماسية والعلمية المميزة، وكذلك زواجه سنة 1972م من فتاة بلجيكية هي برناديت رينبو.

إن المهام التي أوكلتها منظمة التحرير الفلسطينية لنعيم خضر أهلتها للمشاركة في كثير من جلسات مجلس الأمن في الأمم المتحدة، والعديد من المحاضرات الدولية التي كانت تنظمها هيئة الأمم المتحدة للتجارة والتطوير، وكان أحياناً يترأس وفد فلسطين وينال نجاحات مهمة للمنظمة؛ كالاعتراف الرسمي بمنظمة التحرير عضواً مستقلاً ضمن المجموعة الآسيوية، وفي مجموعة الـ 77 (دول عدم الانحياز).

وفي الوقت نفسه، لعب نعيم خضر دوراً بارزاً في تقدم «الحوار الأوروبي العربي» ومن بروكسل دخل في علاقات مع اللجنة التي تقود مجموعة الدول الأوروبية، وخاصة مع كلود شيسون، وجاستون تورن؛ فكانت تقابله في لوكسمبورغ وستراسبورغ وفي البرلمان الأوروبي، وإذا كانت الدول الأوروبية التسعة التي اجتمعت في مؤتمر البندقية في حزيران 1980 قد اعترفت بالشعب الفلسطيني ومنظمة التحرير الفلسطينية؛ فالفضل الأساسي يعود إلي العمل المتواصل لنعيم خضر في المحادثات المتبادلة، مما كان له الأثر الأهم في التحول في العلاقات بين أوروبا والعالم العربي.

وكان نعيم خضر عضواً بارزاً في لجنة الشؤون الخارجية التابعة للمجلس الوطني الفلسطيني الذي كان عضواً فيه، وكان عضواً في اتحاد القانونيين الفلسطينيين، وعضواً في اتحاد المحامين الديمقراطيين في بلجيكا، وعضواً في اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين.

نعيم الإنسان:

كان يتصف بكل الصفات الحميدة: البساطة، التسامح، الأخوة، اللاعنف، التواضع، التضحية، الشجاعة، سهولة الحديث، قوة الإقناع، المثابرة، العمل الدؤوب، الاعتدال، روح الحوار، سهولة الدخول في علاقات صداقة مع الجميع.

نعيم الفكر:

كان نعيم طالباً لامعاً منذ نعومة أظفاره، وقد نهل من العلم والثقافة الفلسفية واللاهوتية والقانونية والاقتصادية والسياسية ما أهله للدفاع بثقة واقتناع عن قضية شعبه. فقد قال عنه أبو عمار: «من الممكن قراءة قضية الشعب الفلسطيني في حياة نعيم، ويمكن للباحثين أن يعكفوا على تحليل ثقافة وعادات شعبنا الفلسطيني من خلال دراسة حياته وبصماته التي لا تمحى، فأثاره ملك للشعب الذي ولده، وللأمة التي أنجبته».

نعيم المواقف:

إن مواقف نعيم السياسية كانت واضحة وضوح الشمس. فقد كان يؤمن بالحوار مع كل القوى الديمقراطية أينما وجدت حتى في الجانب الإسرائيلي. وكان يطالب بالمشاركة في أي مؤتمر يعقد برعاية الأمم المتحدة على أساس كل القرارات التي اتخذتها بما فيها التي تذكر حق الوجود لجميع الدول في المنطقة، شريطة أن تعترف بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني بما فيه حقه في تقرير المصير والعودة وبناء الدولة المستقلة.

نعيم الانتماء:

كلمة العشق لا تكفي لتعبر عن مدى محبة نعيم لبلدته الزبائدة، وأرضه ووطنه فلسطين، ولشعبه الفلسطيني وانتمائه لها جميعاً، وبالخصوص لمدينة القدس التي كان يعتبرها «أجمل مدينة في العالم».

من الشاعر سميح القاسم إلى روع الخالد أبداً نعيم:

للشاعر الكبير سميح القاسم حكاية مع نعيم، يقول سميح: «ومع نعيم خضر كانت لي تجربة خاصة، في عام 81 كنت في زيارة لبروكسل، وأخذني المضيفون إلى الموقع الذي اغتيل فيه نعيم خضر، كانت آثار دمه ما زالت على الإسفلت، وحين انحنيت لأشتم دم نعيم، كان هناك مزيج من الدم والنبض والإسفلت، وكانت هذه القصيدة بعنوان «بروكسل 1981/6/1م:

أشتم دمك

وبين عواصف النسيان

وبين إرادة الحجر

أشتم دمك

وفي سري

أشتم دمك

وفي جهري

أشتم دمك

برائحة التراب الداكن المرقور.

وعشب الثلج والشجر المكفّن في شحوب النور.

أشتم دمك
وأبصر وجهك المغدور
على شباك باص الريح والغربة
وفي أرشيف بوليس الدم المهدور
وفي قترينه البلور
وأسمع نبضك المسكون بالأطفال والأزهار والنكبة
على إيقاع ساعة منزل مهجور
وفي خفق القطارات المسائية
واسمع نبضك المندور
على إيقاع ضخ النفط من شريان والدتي
إلى المدن الصناعية
والمح ظهرك المكسور
في صخب المطارات المحطات اللقاءات الفجائية
والمح ظهرك المكسور بين السادة السفراء
بين النار مشطوراً وبين الماء
أنت نعيم...
نعيم الود بين الأهل والغرباء
نعيم السذج الفقراء
وأنت جحيم
جحيم الحقد والعدوان والبغضاء
جحيم الأخوة الأعداء
وحين تطل من قبرك
لتسمع آخر الأنباء
يطل بوجهه قابيل
وحين يلوح في شرفات عرش العاهل الفردي
وفي شرفات قصر «قيادة الثورة»
وحين يلوح في واشنطن الحرة
بداديق الأكاذيب البدائية
يصبح دمك
أنا هايل
أنا هايل
ويوقد ناره الملك
ويذوي القلب
تذوي وردة الدم الهلامية
ويذوي وجه برناديت

يذوي الفلّ والمنثور
على قرميد أوروبا الضبابية
ويذوي النخل والخابور
في بيد الأعراب الجحيمية!
سأكرز باسمك النبوي
من شرق إلى غرب
وأشهد نطفة الحب
وأشهد جوهر الأشياء والإنسان
كيف ولدت في أفياء ليمونك
وكيف قتلت في الإنسان
وكيف تأرت للإنسان
يوم بعثت في أقمار زيتونك
سأكرز باسمك النبوي
من شرق إلى غرب
وأشهد دهشة الأطفال
كيف دخان غليونك
تجمد في المدى الرحب
ليرسم طفلة عمياء
وزنقة الردى السوداء
على خلفية حمراء
كيف دخان غليونك
تجمد في فضاء العالم الرحب
ليرحم بالدم العذب
تضاريس الغد المنهوب من عيني فلسطينك
أشتم دمك وأبصر في المدى علمك
يرف على فراغات خرافية
ويوقظ من سبات الموت روح الفلّ والمنثور
ويبذر حنطة الميلاد
في أرض الضمير...

ومن الشعراء الناشئين الذين كتبوا لنعيم خضر الشاعرة نعيمة الأحمد في قصيدة:

«إلى نعيم الخالد أبداً»

وجهك عربي واسمك عربي

وجبينك أحمر اللون

وهمك عرب... ودمك عربي

وفلسطيني أين ما تكون

في بروكسل أن يغتالوك

بلندن ولا بروما يزين

بواشنطن ولا بيروت

بقبرص... تونس... والكومون

عشت ومث وجهك عربي

وجبينك أحمر اللون.

وقد سجل الصحفي ميشيل سرديك مقابلة مع الدكتور نعيم خضر وطلب منه ان يذيعها في برنامج لقاء الذي يذاع في راديو وتلفزيون بلجيكا باللغة الفرنسية، استطاع أن يجعل رجل السياسة يتكلم عن نفسه وعائلته وطفولته وآماله التي من ضمنها أمنيته للعودة إلى أرضه ومسقط رأسه. وقد سمح بنشرها، وهذه بعض الأسئلة من المقابلة:-

م.س/ هل تفضل بعض المؤلفين الكلاسيكيين؟

ن.خ/ لقد سبقني الركب في هذا المجال، فأنا أفضل المؤلفين الكلاسيكيين، لأني منذ وقت طويل لم أتبع المؤلفين المعاصرين، ولا الموسيقى الحديثة، وذلك بسبب انشغالاتي الكثيرة، لذلك ما زلت متعلقاً بالموسيقى الكلاسيكية، فأنا أقدر كثيراً المؤلفين أمثال بيتهوفن، موزرت، هايدن، هاندل وشتراوس... ولكنني مشغوف بسمفونيات بيتهوفن التي اعتبرها أعمالاً موسيقية عجيبة.

م.س/ قلت إنك تعلم في كلية إخوة المدارس المسيحية في غير موضع، هذا يعني بأنك مسيحي؟
ن.خ/ نعم أنا مسيحي، وكاثوليكي من كنيسة اللاتين.

م.س/ لابد أن هذا نادر لدى الفلسطينيين؟

ن.خ/ لا يوجد ما هو نادر لدى الفلسطينيين، فأنت تعرف بأن فلسطين هي الأرض المقدسة، تنازعت عليها جميع الديانات، فنحن نجد فيها أديرة تمثل كل الديانات والطوائف التي يمكن أن توجد، ففي القدس وحدها أكثر من مائة، وهذه هي ميزة للفلسطينيين حيث إن هذه الديانات ولكي تبرر سبب وجودها؛ اهتمت بأعمال اجتماعية، وخاصة تأسيس المدارس، وقد استفاد الفلسطينيون، المسيحيون والمسلمون من هذه المدارس، فكانت سبباً في أن الشعب الفلسطيني هو من أكثر شعوب الشرق الأوسط ثقافة. ففيه نسبة عالية من الجامعيين بالمقارنة مع دول المنطقة بما فيها إسرائيل، لا أقول إن هذا هو السبب الوحيد الذي شجع العلم لدى الفلسطينيين، ولكن كان سبباً للوعي السياسي في المنطقة، فكانت أساساً لبناء كوادر فلسطينية مثقفة لها دورها في البلاد العربية.

م.س/ ولكن ألا تعتقد أنه، وبالنسبة لكثير من الناس، يعتبر الفلسطيني مسلماً؟ أليست هذه هي الصورة التي نأخذها عادة؟

ن.خ/ نعم هذه هي الصورة التي تكونها عادة، ولكنها صورة مغلوطة... أريد أن أقول بأن الاسم أحياناً يدل على دين فلسطيني، فإذا دعي أحدهم علي، فمن الأكيد أنه مسلم، بالرغم من أن بعض الفلسطينيين المسيحيين بدؤوا يحملون أسماء إسلامية أو عربية الطابع، ولكن عندما يلتقي الفلسطيني بآخر، فإن مسألة معرفة انتمائه الديني غير مطروحة. فالفلسطيني لا يطرحها أبداً. فأنا أحمل اسماً يمكن أن يدل على أنني مسلم أو مسيحي، يحدث معي في بعض الأحيان أن أرى بعض زملائي العاملين في منظمة التحرير الفلسطينية، أو من أصدقائي الفلسطينيين، من يقول لي: اكتشفت الآن أنك مسيحي، كنت أعتقد بأنك مسيحي، ولكن لم أكن متأكداً من ذلك: «لا أهمية لهذا السؤال على الإطلاق، فالدين شأن شخصي يمارسه كل واحد كما يشاء، بطريقته الخاصة، وليس مقياساً للعلاقات الاجتماعية والسياسية بين الفلسطينيين، فهذه خطوة جبارة استطاع الفلسطينيون أن يقوموا بها، وهذا يعزينا، لأنه ينبغي أن نقوم بالحسابات: «إذا وجدت أقلية مسيحية مكونة من 15% يجب أن تمنحها هذا العدد من المقاعد؟ إذا اشغل مسيحي هذا الموقع، يجب أن نعطي مسلماً موقعاً آخر؟ لا تطرح هذه الأسئلة، ولا يوجد حسابات بين الفلسطينيين على هذا الأساس، الحساب الوحيد هو استحقاق وكفاءة الشخص الذي يعمل سواء أكان مسيحياً أو مسلماً أو ملحداً.

م.س/ ما هو دورك بالضبط كممثل لمنظمة التحرير الفلسطينية في بلجيكا؟ فنحن نراك في التلفزيون، ونسمعك في الراديو عندما يكون الحديث عن فلسطين، كل مرة يسألونك رأيك، فهل لديك عمل آخر تقوم به؟

ن.خ/ كمدير لمكتب منظمة التحرير الفلسطينية في بلجيكا، فأنا أقوم بوظيفتين مهمتين: الوظيفة الأولى: مسؤولية الإعلام، أي العلاقة مع المنظمات السياسية وحركات الشبيبة والحركات التقدمية وحركات الطلاب بالإضافة إلى الصحافة وإلقاء المحاضرات وتنظيم عرض أفلام وصور... هذا العمل أصبح سهلاً في بلجيكا لوجود صحفيين كثيرين ورجال صحف يدركون الظلم اللاحق بالشعب الفلسطيني، ويحاولون التوعية في صحفهم أو في أحزابهم السياسية، ألاحظ هذا بين الشباب في الأحزاب السياسية، فلدينا علاقات مفتوحة مع الشباب الذين يفهمون، بسهولة، القضية الفلسطينية لأسباب سياسية وتاريخية، يطول الحديث عنها الآن.

الوظيفة الثانية: تقوم على الربط بين السلطات الرسمية البلجيكية مع منظمة التحرير الفلسطينية، بما أن المكتب معترف به رسمياً من الحكومة البلجيكية، وهذا يتطلب علاقات مع المسؤولين الحكوميين الذين من حقهم معرفة مواقف منظمة التحرير الفلسطينية بصدد الأحداث المهمة، كما أننا نستمتع إليهم، لأن لديهم آراء يقدمونها لنا بخصوص سياسة منظمة التحرير الفلسطينية ونشاطاتها، نحن نقدم لهم المعلومات ونستقي منهم بنفس الوقت، فهناك الكثير من الآراء المهمة التي أفادتنا من أصدقائنا البلجيكيين.

م.س/ أريد أن تنتقل إلى مجال غير سياسي، أعرف أنك تحب المطالعة فعندما صدر كتاب آنا فرنكوس Annie François عن المقاومة، سمعتك تقول: يجب أن أشتريه، هل تطالع حباً بالمطالعة أم للضرورة أحياناً؟

ن.خ/ إن الذين يطالعون للضرورة والواجب هم الذين يمارسون مهنة أو وظيفة، ولكي يحسنوا أداءهم عليهم أن يطالعوا الكتب التي تنشر حول موضوع اهتمامهم، أما أنا شخصياً فإني أعتقد بأنني لا أمارس مهنة أو وظيفة، فأنا أعمل في السياسة وأعيش ما أعمل كل يوم، وأنا متحمس كثيراً لما أعمل، وما يقودني إلى هذا الهم أي لا أعرف متى أشتغل ومتى أتسلى ومتى أكون في عطلة.

م.س/ إذا قامت دولة فلسطينية، فإني أعتقد بأن نعيم خضر سيلعب دوراً مهماً فيها، فهل ترى نفسك وزيراً؟

ن.خ/ أعتقد بأنني لم أفكر أبداً بدور في الدولة الفلسطينية، فعندي حلم واحد وأمل أن يتحقق قريباً: وهو أن أتمكن من العودة إلى فلسطين، فهذا أعظم إنجاز وأكبر مكافأة يمكن أن ينالها فلسطيني: أن يعود إلى بلده. أقول لك بصراحة بأنني لم أفكر ماذا سأفعل عندما أكون هناك، فعندي أمنيّتان: لربما تكون الأولى صعبة التحقيق، أن استقر في قرأتي الزبادة، وأعيش بهدوء وأتحمل أية مسؤولية على مستوى القرية. م.س/ شكراً لك يا نعيم على هذا اللقاء.

كتابات:

لقد دونت في هذا البحث بالإضافة إلى المقابلة الصحفية مقتطفات من إحدى المقالات التي أخذت من لسان الشهيد، وتدور في المواضيع السياسية، وهي خليط من الاعتدال والتعقل والبساطة بعيداً عن الكلمات الرنانة الفارغة.

«ليس لي الحق على الإطلاق أن أعطي شهادات في الوطنية لأي كان، فإن المناضل الحقيقي هو من يتم ما عليه من دور وواجب، في الحالة الخاصة التي يواجهها، فإن الوطني من هذا النوع لا يحتاج لأي شهادة.

وأيضاً: يظهر المفكر الحقيقي والمثقف الصحيح احتراماً لأفكار الآخرين، حتى ولو كان لعدو سياسي، فإن المفكر والمثقف يبني الجدل على العقلانية والموضوعية ويتجنب أمام أي خصم، فقدان اللياقة والنبيل بعيداً عن المسبات والمهاترات التي تتجاوز حدود الأخلاق والآداب، التي لا تقنع أحداً ولا تعوض عن ضعف الحجة والبرهان.

وأخيراً: لم يكن هدفي من خلال اشتراكي في هذا النقاش أن أعطي دروساً في الثورة لأحد، ولا أريد فرض رأي على أي كان، إنني اعتبر نفسي طالباً يعرض أمام زملائه بعض أفكاره ببساطة وصدق ليتم مناقشته، وبذلك يزيد من غنى النقاش.

سمعت الأخ ياسر عرفات، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، يستشهد بكلام ينسب إلى فولتر، الذي اعتبره شخصياً المبدأ الأساسي للحوار الديمقراطي «أنني استهجن أفكارك، ولكنني أدافع حتى الموت عن حقك في التعبير عنها».

إن الإرهاب الفكري، هو ممارسة خاطئة وخطيرة، تقتل الحوار المثمر، لقد عانينا كثيراً بسبب هذه الممارسات وحاربناها، ومن المؤسف أن تستعمل باسم الاشتراكية والتقدم.

نص التعزية:

قداس وجناز للشهيد الدكتور نعيم خضر

جنين- الزبادة- يقام في تمام الساعة الرابعة من عصر يوم السبت الموافق 81/6/13 قداس وجناز لراحة نفس الشهيد الدكتور نعيم سليم خضر ديبس في كنيسة اللاتين بالزبادة. بلدة الزبادة عامة وأهالي الشهيد خاصة يتقبلون باسم الشعب الفلسطيني كله التعازي ابتداء من يوم الأربعاء الموافق 1981/6/10 م.

«رأيت تحت المذبح نفوس المقتولين لأجل الشهادة التي شهدوا بها فصرخوا بصوت عظيم قائلين حتى متى أيها السيد القدوس الحق لتقضي ولا تنتقم لدمائنا من سكان الأرض فأعطى كل واحد منهم حلة بيضاء وأمروا أن يستريحوا مدة يسيرة إلى أن يكمل أخوتهم المقتولين».

كان يعرف بأنه سيموت: «أنا لا أخاف الموت».

هذا عنوان رسالة سأختم بها هذا العمل، وهي الرسالة التي بعث بها إلى صديقه العزيز الأب رفيق خوري في القدس بتاريخ 1987/7/22 م أي قبل ثلاث سنوات من استشهاده، وهي:-

«وصلتني رسالتك وسعدت بها وبالرغم من الانقطاع الطويل شعرت بعد قراءتها وكأننا لم نفترق أبداً، فأنت معي في هذه المعركة التي أخوضها، معركة حقيقية ودامية وممريرة لأني أشعر أحياناً وكأنني أقاتل بيدي وأظافري ضد عملاق، غير أنني لا أشعر بالضعف أبداً. معي قوة العدالة والحق، ووفر في حبي لأهلي وشعبي ولفلسطين، أه لو تعرف كم أنا متشوق لزيارة القدس، كم أتمنى أن أصل إلى الجلجلة وأمضي ساعات في التأمل بما فعلت وما يمكنني أن أفعل، فأنا دائماً أذكر اللحظات التي أمضيتها في مغارة المهد وفي القيامة. فهي اليوم ينابيع حبي لفلسطين.

لا تخف علي يا رفيق، أنا لا أخاف الموت، وعندما قررت أن أصبح مبشر فلسطين كنت أعرف المخاطر. وأنا لا أعرف الخوف. خوفاً الوحيد هو حزن زوجتي وأهلي وأحبائي وهم كثيرون. كلما أشعر بأحد يحبني يزداد خوفاً عليه من الحزن علي إذا، لا سمح الله، كان نصيبي مثل نصيب زملائي. وكل ما أريده أن يعرف الناس أنني ناضلت لا من أجل عقيدة سياسية ولا من أجل النضال ولا لأني أحب العنف، ناضلت فقط لأني أحب فلسطين أرضي وبلدي، حبي لها جعلني أتمنى أن أعيش فيها ولو تحت الاحتلال، ومن هنا غيرتي منك يا رفيق لأنك تعيش في القدس، ومن يدري ربما سنلتقي هناك يوماً ما.

لست متشائماً بالرغم من كل ما يدور حالياً وبالرغم من المهازل التي نشهدها، وأنا شخصياً لا أفكر في الموت كثيراً، أفكر أكثر بالحياة وأخطط لأعيش في الزبادة. وإذا كتب لي الموت قبل ذلك فأرجو ألا أقتل غداً وأن أرى عدوي.

الأيام تمر ولا ندري بها، وأهلنا يموتون ولا نصحو عليهم، ونحن نمضي العمر بعيدين مفرقين. هذه هي حياة شعب فلسطين، سنغيرها وسنغير مجرى التاريخ إذا لزم الأمر، سيموت الكثيرون منا، ولكننا لن نموت، المهم أن يحيا شعب فلسطين»
هذه مقتطفات مؤثرة من الرسالة الطويلة، ونرى فيها بوضوح أنه يتنبأ عن موته.

الدكتور إسحاق موسى الحسيني

١٩٠٤ - ١٩٩٠

المصادر والمراجع:

- عنوان الكتاب: نعيم خضر رسول فلسطين
المؤلف: أبو سحلية. الأب: رائد.
- مقابلات شخصية: حيث أجريت مقابلة مع شقيق الشهيد إيليا خضر (أبو زياد) واستقيت منه بعض المعلومات.
- موقع من الانترنت: www.zababdeh.com
- الجرائد: استقيت من الجرائد التي صدرت في 13/6/1981م تحمل نص تعزية بالشهيد في موعد جنازة.

إعداد: مهند راشد مشاققي

راجعته: د. غانم مزعل

الدكتور: إسحاق موسى الحسيني

النشأة والتكوين العلمي

لم يدون إسحاق الحسيني كما فعل كثيرون غيره، وقد طلب منه تلامذته ومريدوه ذلك مرارا، ولكنه اعتذر محتجا بأن ذلك يشغله عن دقة القراءة والتأليف. وبالرغم من ذلك فإننا نجد شذرات متعددة من مذكراته وأخبار طفولته وظروف دراسته منتثرة في الكتب والمجلات. ومن خلال اللقاءات مع بعض أفراد أسرته المعروفة بالحسينية ومن خلال بعض المراجع التي تناولت أمورا كثيرة عن حياته نستطيع أن نكتب عن هذا الأديب الفلسطيني البارز، وبداية نود أن نستعرض نشأته:-

يتحدر الدكتور إسحاق موسى الحسيني من أسرة عريقة الأصل وهي أسرة الحسينية، وقد ولد الأديب إسحاق بن موسى بن صالح بن عمر الكبير الحسيني في حارة السعدية ببيت المقدس سنة 1904م ونشأ في بيت تجمعت فيه الوطنية والإرشاد والعلم والأدب.

أصل أسرته:

ينتسب الحسينيون إلى بني هاشم من قریش، وهم الأشراف الحسينيون، ولذلك كان لهم في بيت المقدس منذ قرون طويلة حضور ديني متميز، فقد تولى أجداده بدءا من سنة 1800م نقابة الأشراف في القدس وظل هذا المنصب الديني المرموق منحصرا في أفراد العائلة إلى عهد قريب.

فأول من استوطن القدس من عائلته تاج الدين أبو الوفا محمد بن علي بن أحمد بن داود بن عبد الحافظ بن محمد بن بدر الدين بن محمد بن يوسف بن بدران بن يعقوب بن مطر بن سالم بن محمد بن زين العابدين بن الحسن بن المرتضى الأكبر عوض بن زيد بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وذلك سنة 782هـ وكان مقام آبائه في بلدة شرفات ولهم فيها مقام يزار، وقد اشترى تاج الدين بيتا في القدس تحول فيما بعد إلى زاوية صوفية.

التكوين العلمي للدكتور إسحاق:

حين فتح الحسيني عين الوعي الأول، وخطا في سن التميز وجد إلى جانبه أباه التقوي الورع الذي كان من خلال اندماجه في الطريقة الرفاعية الصوفية، زاهدا في الدنيا، عازفا عن بهارجها ومظاهرها الخادعة، وقد رغب الوالد أن يوجه ابنه وجهة دينية صالحة، وينمي في نفسه روح التدين الأصيل، فأدخله الكتاتيب ليتعلم القرآن، وكان أول كتاب دخله كتاب جامع الشيخ لولو في مدخل باب العمود، ثم دخل كتاب الشيخ ريحان الذي لم يمكث فيه سوى فترة قصيرة لأن والده توفي في سنة 1911م، وآثرت والدته أن تنقله إلى المدارس النظامية بعد أن عانى ما عاناه من عصا الشيخ وقسوته في المعاملة.

وقبل نهاية الحرب العالمية الأولى درس الدكتور إسحاق في عدد من المدارس الثانوية فالتحق بالمدرسة الرشيدية وعمره لم يتجاوز عشر سنوات، ثم انتقل إلى مدرسة بلوز سلطان سليم وتعلم فيها العبرية والتركية، ثم التحق بالكلية الصلاحية التي أعاد تأسيسها القائد التركي أحمد جمال باشا سنة 1915م وجعلها شبيهة بالجامع الأزهر في القاهرة وذلك بسعي من صديق والده الشيخ عبد القادر المظفر، وقضى فيها سنتين درس فيهما التربية الإسلامية واللغة العربية وبعض مبادئ الفارسية.

غير أن هذه الكلية أغلقت بقرار من سلطات الاحتلال البريطاني سنة 1917م، فاضطر الدكتور إسحاق إلى مواصلة تعليمه الثانوي، فدخل مدرسة الفرير الفرنسية التبشيرية في القدس، وقضى فيها سنتين أيضاً، ثم التحق ثانية بالمدرسة الرشيدية، وكان مديرها آنذاك أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي، غير أنه تركها بعد فترة وجيزة ليلتحق بالكلية الإنكليزية «كلية الشباب» وفيها التقى الأستاذ نخلة زريق فدرس على يديه اللغة العربية وشجعه على تخصص «اللغة العربية».

وفي خريف عام 1923 سافر الدكتور إسحاق إلى القاهرة لمواصلة تعليمه الجامعي، وكان الطلبة الوافدون آنذاك لا يعدلون عن الأزهر، غير أن الدراسة عند الدكتور الحسيني انتظمت في الجامعة الأمريكية، ومن ثم في الجامعة المصرية. وفي القاهرة أخذ يستزيد من العلم ويوسع آفاق معرفته عن طريق الدراسة النظرية المنتظمة من جهة، ومن خلال مجالسة العلماء والأدباء وحضور ندواتهم من جهة أخرى، وهنا أتيح له الالتقاء ببعض الرموز الأدبية مثل: طه حسين، ومنصور فهمي وعباس محمود العقاد وأحمد حسن الزيات والتقى ببعض المستشرقين مثل نلينو وجويدي وغيرهما. ومكث في القاهرة مدة سبع سنوات حصل خلالها على شهادة من قسم الصحافة في الجامعة الأمريكية وعلى درجة الليسانس بامتياز من الجامعة المصرية سنة 1930م.

ثم سافر إلى لندن والتحق بمعهد الدراسات الشرقية ونال درجة البكالوريوس بدرجة شرف، عام 1932م ثم درس اللغات السامية في المعهد ونال دبلوم مقارنة اللغات السامية ثم حصل على درجة الدكتوراه سنة 1934م.

بعد ذلك عاد الدكتور إسحاق بعد إتمام دراسته إلى مسقط رأسه في القدس الشريف بعد أن تزود بقسط وافر من الثقافة الأدبية واللغوية والاجتماعية، وبعدها بدأ حياته الوظيفية أستاذاً للغة العربية في الكلية العربية في القدس «1934 - 1946م» ثم مفتشاً أول للغة العربية في حكومة فلسطين إلى سنة 1948م، وقد انتدبته إدارة المعارف الفلسطينية ليمثلها في المؤتمر الثقافي الأدبي الذي عقد في مصيف بيت مري في لبنان أوائل أيلول 1947م.

وقد أسهم في إنشاء لجنة الثقافة العربية في فلسطين عام 1945، وقد شغل منصب السكرتير العام لها، وبعد حلول النكبة عام 1948م غادر الدكتور إسحاق مسقط رأسه قاصداً مدينة حلب، ثم غادرها إلى بيروت، وقد عين في العام نفسه أستاذاً للأدب العربي في الجامعة الأمريكية «1949 - 1955م» وقد أعارته الجامعة سنة 1952 إلى جامعة مكجيل في كندا حيث عمل أستاذاً زائراً للأدب العربي ومحاضراً لمادة الحضارة الإسلامية والاتجاهات الفكرية المعاصرة في العالم الإسلامي.

وفي عام 1955م عاد إلى القاهرة وعمل أستاذاً في معهد الدراسات العربية العالية، كما تولى رئاسة

قسم البحوث الفلسطينية في المعهد وأسهم في تأسيس لجنة القدس للأبحاث والدراسات وأصبح رئيساً لها. وعمل في أثناء إقامته بالقاهرة أستاذاً للأدب العربي بالجامعة الأمريكية حتى عام 1963 وحاضر في عدد من الجامعات الأمريكية منها كلية «هاففورد» في بنسلفانيا وكلية سميث في ولاية ماسشوستش سنة 1969م.

من أجل ذلك حظي الدكتور بمكانة مرموقة في الأوساط الجامعية والثقافية في الأقطار العربية والغربية التي عمل بها، وكان من ثمرات هذا التقدير انتخابه عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية في القاهرة سنة 1961م وقد ولج إليه من عدة أبواب: أدبياً، ناقدًا، باحثًا، لغويًا، وناشدًا للعلم والمعرفة، وأقبل على أعماله بإخلاص المؤمنين وتواضع العلماء، وقد كان خبيراً في لجنة اللهجات مغنياً إياها بالعديد من الدراسات والأبحاث.

ولقد اختير الدكتور إسحاق الحسيني عضواً في مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر الشريف سنة 1963م، وعضواً في المجمع العلمي العراقي سنة 1971م، وعضواً في مؤسسة آل البيت لبحوث الحضارة الإسلامية في عمان، وشارك في أعمالها وندواتها، كما اشترك في العديد من المؤتمرات والندوات مثل: مؤتمر الأدباء العرب ومؤتمر الكتاب الآسيويين والإفريقيين، ومؤتمر تاريخ الأديان الدوري في اليابان. لقد كان الدكتور إسحاق جيلاً كاملاً من الثقافة والمعرفة ولذلك قدره بنو قومه حق قدره، فمنح وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى في جمهورية مصر العربية سنة 1983م ومنحه أبناء شعبه الفلسطيني قلادة الضاد ودرع فلسطين، وبإيعاه الأدباء والكتاب الفلسطينيون عميداً للأدب العربي الفلسطيني، وألف بعض تلامذته كتاباً تذكاريًا بمناسبة بلوغه الثمانين من عمره تضمن بعض نشاطات الدكتور في الدراسات الأدبية والنقدية، وجوانب فكره الإصلاحية والتربوية.

وقد أسهم الدكتور في تأسيس كلية جامعية ومركز للأبحاث الإسلامية، وقد كان تلامذته وزملاؤه يجدون منه ما طاب من حديث في دقائق العلم ممزوجاً بحسن معشر وطيب سحر، ونزعة إنسانية صافية وشفافية روحية من خلال تعامله مع الآخرين، كما نلمسها في كتاباته وفي ذلك الدعاء الذي يردده في كل مناسبة «يا الهي أشكو إليك ضعفي أي أأهجم على لجة البحر متحدياً مصاولاً، ولكني أغرق في ملء ملعقتي ماء، يا إلهي اغفر لي يا إلهي، إني فكرت أن أبرأ من بني قومي فوجدت أني أبرأ من نفسي، وعندئذ عذمت على أن أحمل ذنوبهم بشجاعة».

المُثرات الثقافية التي أسهمت في تكوين شخصيته:

هناك مؤثرات كثيرة أسهمت في تكوين شخصيته من النواحي النفسية والفكرية والوطنية منها أسرته التي غرست في نفسه الحسّ والقيم الأخلاقية الرفيعة، ونمت فيه حب الخير والتمسك بالمبادئ الإنسانية، فقد كان والده تقياً ورعاً زاهداً مناصراً ومحبا للفقراء عطوفاً عليهم، رحيماً بهم. أما والدته فقد كانت من أسلم الناس فطرة، وأحانهم على ولد، وقد تعلم منها الصبر وتحمل المشاق وتعلم منها التنظيم والتدبير والاقتصاد في العيش.

ومنها - البيئة العلمية والدراسية التي نشأ فيها والمعلمون والشيخوخ الذين غموا استعدادهم وتعهدوه بالرعاية والتوجيه، ومن هؤلاء الشيخ حسن نور الدين وكذلك الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي، وقد تفاعل الدكتور إسحاق الحسيني مع مختلف التيارات الفكرية والاجتماعية والثقافية المعاصرة بحكم احتكاكه بالحضارة الغربية ودراسته على أيدي المستشرقين، فقد كان التفاعل من كلا الاتجاهين مفيداً، وكان حريصاً على أن يحقق لنفسه ضرباً من التوافق والانسجام بين ما يرد إليه من تيارات فكرية وافدة من جهة ومع الأرضية الراسخة للفكر والقيم العربية الأصيلة من جهة أخرى.

وكان ينوّه بجهود بعض المستشرقين، وخاصة أستاذه في معهد الدراسات الشرقية في جامعة لندن «هاملتون جيب» في تطوير الدراسات العربية المعاصرة، وفضلهم في تحقيق كثير من المخطوطات، ونشر أمهات الكتب التراثية العربية بمنهجية علمية تركز على الاستقصاء الدقيق والإحاطة الشاملة. وقد كان يقول: «كنت أقرأ النص الأدبي على الأستاذ متباهياً بمعرفتي، مغتراً بسليقتي، فما أن يرد اسم نبات أو شجر أو طير أو حيوان أو مكان حتى أقف ويتناهى علمي، فكنت أجد من علم أستاذي ما يبصرني بعيوبي ويفتح عيني على نواح جديدة ويرشدني إلى طرائق البحث الجديدة».

ومن العوامل التي آثرت في تكوين شخصيته: نشأته في القدس الشريف، المدينة المقدسة الخالدة، والوهج المشع على مر العصور الذي يجذب النفوس ويسلب العقول، مهبط الأنبياء وأولى القبلتين وميدان الصراع ورمزه بين العرب والمسلمين من جهة، وموجات الغزو الخارجي من جهة أخرى. لقد كانت القدس بالنسبة له هاجساً مؤرقاً ومصدر ألم مستديم، فكرس لها من جهوده ومؤلفاته الشيء الكثير وعني بها عناية فائقة، يردد ذكرها ويسبح بحمدها ويصف محاسنها ويذكر أسماءها وتاريخها وعلماءها وأدباءها ومساجدها، وكنائسها ولا غرو فهي كما وصفها «مسقط رأسه وموطن آبائه وأجداده، ليس في العالم كله مدينة تحاكيها فيما اجتمع فيها من آثار مقدسة منذ أربعة آلاف سنة إلى اليوم، ولا ما تثيره في أعماق النفس من مشاعر الإجلال والتقديس ولا في ما تبعثه في القلب من أنس وبهجة».

ومن العوامل التي أسهمت في تكوين شخصيته انضمامه على مجمع اللغة العربية في القاهرة، وكان للعضوية فيه تأثير كبير لا سيما في مسيرته العلمية وغمط تفكيره، ولا أنسى الأثر الكبير لقرينته السيدة الفاضلة علوية الحسيني «أم حاتم» في حياته، فقد كانت له نعم الزوج في وفائها وإخلاصها وتفانيها في الوقوف إلى جانبه، ومشاركته تبعات حياته وأحداثها الجسام، ولذلك كان الدكتور يذكرها في كل مناسبة مشيداً بفضلها، منوهاً بجهودها ودأبها على توفير جو عائلي مفعم بالطمأنينة والاستقرار النفسي، بل كان الدكتور الحسيني يحجم عن نشر أي إنتاج دون أن يطلعها عليه لتبدي رأيها فيه لثقتة منه بذوقها العالي وبصرها السديد.

حياته وأدبه

كانت حياة الدكتور خصبة حافلة، صنعها بفكره وقلبه، وسخرها لنفع وطنه وأمته، وأعماله وفيرة لا تتسع الصحائف الكثيرة لاستقصائها، فلم يكل يوماً عن الفكر والعمل، ولم تفتّر همته عن البذل والعطاء في مختلف الميادين.

وللدكتور الحسيني رأي في الأدب مؤداه «أن الأدب رسالة إنسانية قوامها المشاعر النبيلة والأحاسيس الصادقة والأفكار السامية والصياغة اللغوية المتأنقة، فهو بالنسبة للفرد ضرورات الحياة، وللأمة سجلها الذي يحتفظ بنبضات قلبها وأشواق روحها وإشراق عقلها».

وأسلوب الحسيني في كتاباته الأدبية أسلوب مرسل واضح العبارة مأنوس الألفاظ يمتاز بعذوبة وخفة تجعله لا يبحث عن الكلمات، بل إنها تنساب في يسر وسهولة على سن يراعه وألفاظه مفصلة على قدر معانيه دون حشو أو تكرار أو عسر في التعبير، يجعل قارئه يحس أنه يعاني شيئاً من المشقة في الإبانة عن أفكاره وتوصيلها.

والدكتور الحسيني حفيّ بالشعر شغوف به فهو يقرضه وينظمه على قلة، شعره سلس عذب يمتاز بالبساطة وصدق العاطفة والبعد عن الغريب، وأغلب ما نظمه لا يعدو كونه خطرات هي أقرب إلى النظر الفلسفي والاجتماعي ذات صلة بلزوميات المعري التي أعجب بها ونثر بعضها على غرار ما فعل الدكتور طه حسين في «صوت أبي العلاء»، فمن خطراته التي كان ينشر بعضها في جريدة القدس - هذه الأبيات التي يحث فيها على التمسك بالوطن والتعلق بترابه والالتصاق به.. وقد نشرت الخطرات في كتاب بعد وفاته سنة 1991، يقول بعنوان خواطر العمر:

أحب بلادك وأعشق ربح تربتها
فأروح من ريحها والجسم من ترب
طوفت في الأرض لم أعثر على بلد
يحكي محاسنها في الشرق والغرب

ويقول:

إلصق بأرضك وارو ترهبها عرقاً
لا الجاه يغنيك عنها لا ولا الذهب

وهو ناقد حصيف، شارك في مسيرة النقد العربي الحديث، وله في تاريخ النقد جهود قيمة تستحق الثناء والتقدير، ومباحث «عادت بالضوء الباهر إذ كشفت ظلمات مدلهمة تحير في آفاقها الباحثون، وهي على إيجازها المركز ذات رسم نافع، وقد كانت نقطة انطلاق لمن تلاه من الدارسين، إذ رسم لهم الدكتور الحسيني الطريق، فمضوا فيه مهتدين» استطاع أن يرسم للأدب طريقه الصحيح، وأن يوجهه الوجهة الصائبة في الاتجاه الخصب الأصيل الذي يرقى بالأدب إلى المستوى الإنساني النبيل، ويسمو به صعوداً إلى آفاق فنية رفيعة تكرس معاني الجمال والخير والحق.

وقد كان ضليعاً في اللغة العربية متمرساً بقضاياها وعلومها المتشعبة، وله في هذا مباحث تدل على أن لديه ذهنية واعية وعقلية متحررة، تنزع إلى الاجتهاد، وتأبى التقليد، والوقوف على آثار السابقين. وقد تبنى الدعوة إلى تجديد اللغة وتطويرها حتى تجاري الحضارة الحديثة وتساير روح العصر.

على أن للتجديد في رأيه حدوداً لا ينبغي تجاوزها، لئلا تسود الفوضى، وتعم البلوى، ويشيع التعصب الذمير بين الناس. وقد دعا إلى معاودة النظر في قضايا النحو ومسائله المختلفة بغية تيسيرها على الناشئة المتعلمين، وذلك بعد أن ضاق النحو بنفسه بتعقيد أبوابه وغموض مسائله، وهو الذي كان يرى أن النجاح لن يحالفنا إلا إذا استعنا بعلم اللغة الحديث من جهة وعلم التربية والتعليم من جهة أخرى.

وقد وقف في وجه كل من تطرف في الدعوة إلى تسهيل العربية عن طريق استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية أو عن طريق استبدال اللغة الفصحى باللهجة العامية لصعوبة قواعدها وعسر التعليم فيها.

وقد عمل الدكتور الحسيني في مجال التربية والتعليم، فعمل مدرسا ومفتشا وأستاذا جامعيا فترة تزيد على ربع قرن، استطاع خلالها أن يربي جيلين كاملين كان لهما دور بارز في النهضة المعاصرة، وقد كان باحثاً مدققاً ومفكراً بعيد النظر عميق التحليل يتحلى بالأخلاق العلمية من اتزان وتواضع وحيوية وصبر.

وقد كان من أبرز شمائله شغفه بالعلم والاستزادة من المعرفة ولم يكن يداهن أو يتزلف لصاحب منصب أو سلطة. وقد كان متفائلاً حتى في أحلك الشدائد، فالحق في رأيه لا بد أن ينتصر، وهو مؤمن بالنشء الجديد وبقدراته الخلاقة الصلبة في مواجهة الأزمات، ولديه يقين لا يتزعزع بأن الإنسان الفلسطيني ذو طاقة هائلة، وأنه إذا ما تيسر له الصقل والمران يبدع كأحسن ما يكون الإبداع. وقد كانت طيبة قلبه تتناسب مع قوة خلقه وكمال مروءته وتعلقه بالمثل الأخلاقية الرفيعة، وهذه النزعة الإنسانية المتأصلة في نفسه جعلت منه عاشقاً للحرية، متبهاً بها، فكانت خطاه في كل ما سعى شواطئ مفتوحة للريح والشمس ورائحة البحر الواسع، وكان مرشده وهاديه في كل الآفاق التي ارتادها الحديث النبوي الشريف: «الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها» وهو شعار يجدر – كما قال الدكتور الحسيني – بأبناء أمتنا أن يسيروا على هديه ويتبنوه حتى يبلغوا شاو ما بلغته الأمم المتحضرة في مختلف المجالات.

مؤلفاته العلمية وكتابه الإبداعية:

لقد وقف الحسيني حياته منذ صباه المبكر على التعلم والتعليم والبحث والدرس في تجرد الزهاد وصبر المجاهدين، ضالته الحقيقة حيثما وجدها التقطها مهتدياً بقول الشاعر:

إذا مري يوم ولم اصطنع يدا
ولم استند علما فما ذاك من عمري

وكانت له إلى جانب ما أنتجه تأليفا وإبداعاً بصيرة واعية مدركة، وفكر ناقد على درجة عظيمة من الدقة والمرونة والمقدرة، فإذا ما عالج موضوعاً حقق ودقق، واستقرأ ورتب وبوّب، ثم ذكر الرأي مشفوعاً بدليله، في تسلسل منطقي، وإحاطة شاملة تعنى بالجزئيات والظواهر الفرعية عنايتها بالكليات والظاهر العامة.

والحق أن انجازاته وجهوده في الكتابة والتأليف أكبر من أن يلئم بها حديث موجز أو عرض مبتسر، فعضاؤه الواسع والمتشعب يحتاج إلى نقص وتصنيف وهنا في هذا البحث سنتناول بعض مؤلفاته ونقيم بعضها.

مؤلفاته الإبداعية ودراساته الأدبية والنقدية:

الكتب

■ ابن قتيبة «حياته وآثاره»

وهي دراسة مركزة لا تتجاوز المائة صفحة، نال بها الحسيني درجة الدكتوراه من معهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن سنة 1934م.

هذه الدراسة تعد إسهاماً رائداً في الدراسات النقدية، وهي تقدم صورة صادقة عن منهج الحسيني وأسلوبه في البحث العلمي وطريقته في معالجة الظاهرة الأدبية النقدية، وقد كان للحسيني يد سبّاقة النقد الأدبي القديم حين كتب دراسته العلمية عن ابن قتيبة، فكان أول تقدير نقدي للجهود الأدبية التي بذلها صاحب الشعر والشعراء وأدب الكاتب وعيون الأخبار، وقد اكتشف أن ابن قتيبة صاحب مذهب فقهي مثل أبي حنيفة والشافعي، وهو توجيه طيب إلى دراسة الأثر الفقهي لعالم اشتهر بالتعمق في علوم اللسان.

■ مذكرات دجاجة

وقد فازت بالجائزة الأولى بما يشبه الإجماع في الاستفتاء الذي أجرته دار المعارف بالقاهرة لقراء العربية حول أفضل ما نشر في سلسلة أقرأ، وقد ترجمت إلى اللغة الفرنسية وقد عدّها بعض الباحثين والنقاد من الأعمال الرائدة في الرواية، والتي تعبر عن واقع مرحلة حرجة من تاريخ القضية الفلسطينية، ورأى آخرون أنها تخلو من أي بعد رمزي يتعلق بجوهر القضية الفلسطينية، وأنها لا تعدو كونها من الأدب الجميل الذي يحمل فكرة فلسفية في قالب قصصي معبر.

وقد كانت القصة بنظر الدكتور إسحاق لا تعدو أن تكون وصفاً واقعياً مباشراً لدجاجة عاشت في بيته. وهي تصف حياتها: «وقد وقع بيني وبينها ألفة ومحبة فكنت أطعمها بيدي وأراقب حياتها يوميا والأحداث التي نروها وقعت لها بالفعل ولو قدر لصديقتي الدجاجة أن تتكلم بلغة الأناسي لما قالت غير ما تقرأ، وأنا في الواقع أترجم ما أوحى به إلي، أما عنصر الخيال فضيل، وهو لا يعدو أن يكون تعليقا على هامش الحياة أو تحليقا في عالم المثل العليا». وقد الملح الدكتور الحسيني إلى أن المذكرات: كانت أكبر تحد يواجهه به الانتداب البريطاني حين كان موظفاً في الحكومة.

■ سلسلة طرائف للأطفال

شاركه في تأليفها محمد العدناني، وأحمد سليم سعيدان، وفابriz الغول، ونشرتها مكتبة الأندلس في القدس عام 1947م. وقد كان الهدف من إصدار هذه السلسلة تقديم ثقافة متطورة للطفل تمده بقيم تتفق مع عالمنا الجديد، وتنمي مداركه ووعيه وتصله بماضيه المجيد، وتراثه الخالد.

■ هل الأدباء بشر

كتيب صغير يضم خواطر ومقالات متفرقة كتبت في أوقات مختلفة سبقت النكبة. وهو يتحدث فيه عن بعض الظواهر النفسية والاجتماعية في حياة الأدباء متكئاً على التحليل النفسي والنظرة الاستبطانية

المتعمقة، ويتطرق في بعضها الآخر إلى الحديث عن الحركة الأدبية في فلسطين بقصد تأصيل هذه الحركة وإبراز معالمها وإحياء لذكرى أعلامها.

■ المدخل إلى الأدب العربي المعاصر

هذا الكتاب يضم بحوثاً موسعة تعالج قضايا في الأدب العربي المعاصر، قد كان مؤدي الكتاب عرض الأدب المعاصر بحسب فنونه من شعر ومسرحية وقصة وسيرة، وقد صدر الكتاب عن معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة سنة 1963، وعدد صفحاته 73 صفحة.

■ الأدب والقومية العربية

يحتوي الكتاب على محاضرات ألقاها الدكتور الحسيني على طلبة معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة بقصد تثقيفهم ثقافة أدبية عامة وإطلاعهم على كل ما ينبغي أن يطلع عليه كل مثقف من شؤون الأدب واللغة، ويتناول موضوعاً حول العلاقة بين الأدب والقومية العربية وقضية استبدال العامية بالفصحى، بالإضافة إلى أهمية الوطن من الناحية الجغرافية والسياسية والاقتصادية.

■ النقد الأدبي المعاصر في الربع الأول من القرن العشرين

يتحدث عن تأثر الأدباء بالفكر الأوروبي.

الأبحاث والمقالات النسرة:

للحسيني أبحاث كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- ماذا قالت الدجاجة.
- حول مذكرات دجاجة.
- الحياة الأدبية في فلسطين.
- خليل السكاكيني.
- قصائد تاريخية.
- قرية بيت صفاة.

مؤلفاته في الفكر والحضارة الإسلامية:

الكتب

■ الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية

وقد صدر في طبعتين، الأولى عام 1952م والثانية عام 1954م، وقد قال الحسيني حول هذا الكتاب: «لم يكتب هذا الكتاب للإخوان ولا عليهم، وإنما كتب لتاريخ الدعوة تاريخاً علمياً محضاً منذ بدايتها إلى الوقت الحاضر، ويقتضي التاريخ العلمي ذكر الحسنات والسيئات على السواء لأنه تصوير للواقع كما هو دون تحسين أو تقييح من الخارج».

وقد ذكر الحسيني أن دعوة الإخوان المسلمين تستحق هذا التاريخ لعدة أسباب، منها: أن الحركة تركت أثراً في التاريخ الحديث لا يجوز أن يهمل، وأن الحركة جزء من التاريخ الحديث، وأن هذه الحركة لها أصول في التاريخ الإسلامي، وهي تشبه إلى حد كبير الحركة الوهابية والحركة السنوسية، وهي متأثرة بالمدرسة السلفية الحديثة التي تزعمها الشيخ رشيد رضا في مصر، ومدرسة ابن تيمية المتوفى سنة 737 هـ.

ويتحدث عن الظروف التي أسهمت في ظهور حركة الإخوان المسلمين وتطورها وشخصية مؤسسها مع عرض لأهم مبادئها وأعمالها في ميدان السياسة وتنظيمها داخل مصر وخارجها، وفي الفصل الأخير من الكتاب الذي يضم تسعة فصول يقوم بتقديم عرض تحليلي نقدي مفصل لمنهج الدعوة ولطبيعة عملها، فهو يرى أن حركة الإخوان يميزها الشمول والتنظيم الدقيق والتقنية والتفاعل مع الأحداث المحلية، ويؤكد أن سبب جماهيرية هذه الحركة هو رأيها في الحكومة الدينية، وموقفها من الحضارة الغربية مع ما تفرزه من أممات حياتية مستحدثة ومواقف فكرية مثيرة للجدل.

■ الإسلام في نظر الغرب

هو مجموعة مقالات لكتاب عرب وأجانب كتب باللغة الإنجليزية، ونقلها الدكتور إسحاق إلى اللغة العربية، وأسباب جمعه لهذه المقالات هي:

حرصه على أن يطلع المسلمون في المشرق والمغرب على آراء طائفة من الباحثين الغربيين في الإسلام والمسلمين التي لا تخلو في مجملها من آراء تستفز الشعور وتجانح الحق. رغبته في لفت انتباه القراء إلى أهمية العالم الإسلامي وموقعه في العالم الذي يشبه موقع الحزام من الوسط للإنسان.

الإهابة بالباحثين من عرب ومسلمين إلى معالجة هذا الموضوع الجليل بأسلوب علمي رصين، كي تكون الصورة المعروضة على الغرب أقرب إلى الصحة والصواب.

فليس من المقبول في رأيه أن يغوص نفر من الباحثين الغربيين في جوهر الإسلام وفي قدس أقداس المسلمين، وفي صميم حياتهم العقلية والاجتماعية، في حين أن الباحثين المسلمين أنفسهم يعيشون على هامش الحياة، لا يكادون يدركون خطر دينهم وبلادهم وشعوبهم وطبيعة المشاكل التي تواجهها بلادهم، ومبلغ عناية الغرب والشرق بشؤونهم لصالحهم أو لظالمهم.

■ أبحاث في ماضي المسلمين وحاضرهم

يضم بحوثاً تتناول أوجه الحضارة الإسلامية قديماً، والسبل الكفيلة برفعة المسلمين وارتقائهم سلم التمدن في العصر الحديث.

الأبحاث والمقالات:

- حول مدارس بيت المقدس ومعاهدها.
- شخصية الرسول في القرآن الكريم.
- الإسلام ماضيه وحاضره.
- الثقافة الإسلامية في البلاد العربية والإفريقية.

مؤلفاته في التاريخ والتراجم:

الكتب

- عروبة بيت المقدس
- أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي: وهو سلسلة محاضرات ألقى على طلبة معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة عام 1956م.
- خليل السكاكيني الأديب المجدد.

(الأبحاث والمقالات)

- أبو العلاء المعلم
- أديب العربية محمد إسعاف النشاشيبي.
- برقة الدولة العربية الثامنة.
- خليل السكاكيني.
- لم نخسر شيئا.
- الإمام محمد عبده.
- رجل يخرج من فمه النور.
- إلياس طعمة أبو الفضل، شاعر القومية العربية في المهجر.
- فلسطين وإسرائيل.
- مصير بيت المقدس.
- موسوعة أعيان القرن الثالث عشر.
- من ذكريات العمر.

مؤلفاته الفكرية والقومية

الكتب:

- علماء المشرقيات في انجلترا.
- عودة السفينة

يدور حول عدة موضوعات منها المرأة، التعليم، الاقتصاد، الأخلاق فالدكتور الحسيني يعتقد أن أبناء الأمة العربية الذين يستقلون سفينتها قسما: متفائلون ومتشائمون حول قدرتها على أن تنجو بنفسها من العواصف الهوجاء، وهذا الكتاب يشتمل على وصف واقعي لحياتنا الاجتماعية، وبما يشيع فيه من حرص على امتنا ومستقبلها وغيره صادقة على تطورها وارتقائها مدارج الرقي والتمدن بهدف إلى خلق جيل واع قوميا صحيحا، يركز على الفهم الصحيح لشؤون الحياة والمجتمع.

- أزمة الفكر العربي

يعالج الحسيني في فصوله المتعددة أزمة الفكر العربي، فيعرض مظاهرها ويناقشها مثل: الحيرة والارتجال وفقدان العقلانية، وفقدان الجرأة والحرية الفكرية ونقد الذات واحترام القيم إلى درجة

- نظام الحسبة في الإسلام.
- الآثار الإسلامية في بيت المقدس بعد الفتح العمري، بحث رقم (1).
- الآثار الإسلامية في بيت المقدس بعد الفتح العمري، بحث رقم (2).
- مكانة بيت المقدس في الإسلام.
- فضائل بيت المقدس.
- تحقيق وثيقة الشيخ محمد الخليلي.
- الجانب الإسلامي في القضية الفلسطينية.
- مادة «مسجد»، دائرة المعارف البريطانية.
- مادة «وهابية» دائرة المعارف البريطانية.

مؤلفاته التربوية

الكتب

- رأي في تدريس اللغة العربية.
- وضع بأسلوب تعليمي لطلاب المرحلة الابتدائية، ووضع لإرشاد المعلمين وتوجيههم في تدريس العربية بجميع فروعها في المرحلة الابتدائية.
- العروض السهل للصفوف الابتدائية:
- وضع لتعليم طلاب المرحلة الابتدائية علم العروض.
- فن إنشاد الشعر العربي:
- وهي رسالة ألقت بالفرنسية، وقد ترجمها إسحاق الحسيني إلى العربية بالاشتراك مع الأب إسطفان.
- الأساس في قواعد اللغة العربية:
- وهو كتاب مدرسي نحا فيه نحوا جديدا في تقويم القواعد وربط ابوابها وتيسير صعابها.
- أساليب تدريس اللغة العربية في الصفوف الابتدائية.

الأبحاث والمقالات:

- نادي الطالب الفلسطيني
- البعثات العلمية
- التربية أولا
- تقريب التعليم العالي الجامعي
- وصية لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة إلى والديه رحمة الله عليهما.

التقديس، وكذلك بحث العروبة والآراء المتضاربة حول استبدال الحروف العربية بحروف لاتينية. ويختم الكتاب بفصل «تعريب العرب» الذي يرى فيه تثقيف سكان البلاد العربية ثقافة موحدة تزيد من شعورهم بقوميتهم ووحدتهم.

- الاستشراق، نشأته وتطوره وأهدافه
- معالم القضية الفلسطينية.
- عروبة بيت المقدس.
- قضايا عربية معاصرة: يشمل فصولا تعالج قضايا ومشكلات يعاني منها الوطن العربي.

المقالات والأبحاث

- أمراضنا الاجتماعية.
- أكاذيب بعضها فوق بعض.
- الاستقلال أو الموت.
- أخى الإنسان.
- العنصرية أساس قيام إسرائيل.

مؤلفاته اللغوية

- الكتب الأساس في قواعد اللغة العربية

الأبحاث والمقالات:

- معجم القرآن الكريم.
- مصطلحات النقود في البلاد العربية.
- المقطعية في اللغة العربية.
- ألفاظ معربة.
- أسماء بيت المقدس.
- الزط.
- اختصار الكلمات

وجدير بالذكر أن جميع هذه المقالات والأبحاث نشرت في مجلة «مجمع اللغة العربية» بالقاهرة. وقد شهدت مدينة القدس حفلا تكريميا لشيخ الأدباء في فلسطين العميد الأستاذ الدكتور إسحاق موسى الحسيني بمناسبة بلوغه الثمانين من عمره. وكان ذلك حدثا ثقافيا وفكريا متميزا، وذلك في اليوم السادس عشر من شهر شباط سنة ألف وتسعمائة وست وثمانين، وقد جرى هذا الحفل برعاية مركز إحياء التراث في الطيبة، وبمبادرة منه، وأقيم مهرجان حافل حضره حشد كبير من تلامذة الدكتور الحسيني ومحبيه ومقربي فضله.

وقد شاركت عشرات الهيئات والمؤسسات والمراكز والجامعات الفلسطينية في هذا المهرجان، وشارك كذلك أهلنا من الأراضي المحتلة عام 48 وشاركت جامعة النجاح الوطنية التي مثلها في المهرجان الدكتور

أحمد حامد. كما شاركت في المهرجان بعض المؤسسات العربية الأجنبية وهي: جامعة مكجيل (كندا) ومعهد الدراسات الإسلامية.

وقد تناولت الكلمات في معظمها أفضال الدكتور إسحاق موسى الحسيني على الأدب العربي الفلسطيني خاصة والأدب العربي عامة.

وقد تناولوا كذلك أهمية الأدباء وأهمية الأدب والإبداع في فلسطين، وقد ألقى الدكتور أحمد حامد بصفته أحد أصدقاء الدكتور الحسيني وعميد كلية الآداب في جامعة النجاح كلمة تناول فيها دور الشعراء والكتاب والمؤرخين الذين شاركوا بإخلاص في بناء تراث الأمة وإحياء أمجادها، فكان منهم الغزي والصفدي والتابلسي والمقدسي والرملي، وذكر الدكتور أحمد حامد أنه ليس من الغرابة في شيء أن ينجب بيت المقدس علما شامخا من أعلام الفكر العربي بعامة، هو الأستاذ الدكتور إسحاق موسى الحسيني، وذكر الدكتور أحمد حامد أنه كان يعرف الدكتور الحسيني عن قرب، حيث كان مشرفا على أطروحة الماجستير التي أ

وقد ذكر الدكتور أحمد حامد في كلمته أنه إنسان أديب خلوق إلى أبعد الحدود، وقد رأى فكر الحسيني أنه يشمل مختلف جوانب الحياة الإنسانية، حيث كان من رواد الأدب الأوائل الذين حاولوا إحياء شخصيات الأدب العربي وإظهار آثارهم ونشاطهم الفكري. وبرز في مجال التاريخ، ومارس التعليم حيث ودعا إلى نشره في جميع البيئات وشملت كلمته حديثا عن نظرة الحسيني للمرأة وحقوقها والحرية الفكرية وكذلك النظرة الصادقة إلى دراسة اللغة العربية.

جولة مع تراث الحسيني

أقدم مقال كتبه الدكتور إسحاق موسى الحسيني بخطه هو ما نشره في جريدة الصباح المقدسية عام 1921م والمقال بعنوان «ارحموا لغتكم أيها الشبان» وجاء فيه:

«من طالع صفحات التاريخ يرى أن الأمم المتحضرة المتمدنة العظيمة التي نالت قصب السبق في المعارك قد اعتزت بلغتها وامتدت بامتداد سلطتها، لأن اللغة هي الصوت الرهيب بل الآلة الفعالة التي تنقل صدى صوت قومها إلى أقصى البلاد، وتجعل لهم مركزا ساميا بين الأمم. أن اللغة لسان حال الأمة، فهي روحها التي عليها مدار الحياة، فإن فقدت الروح فالجسم لا محالة هالك. وآسفاه مع ما نرى من تأثير اللغة على الأمة نرى بعض شبانها العاملين يقودونها خطوات عديدة إلى الوراء.

إنني بكل أسف أذكر هنا بعض ما سمعته كثيرا مما أثار عواطفني، وطعني في أحشائي طعنات عديدة، سمعت طبيبين «لا حاجة لذكرهما» هذا ما قاله الدكتور الحسيني حرفيا في مقاله «يتحدثان، فقال احدهما: لماذا لا تزورنا يا عزيزي؟ فأجابه: لأن علي business؟ كثير، فأرجوك العفو. فقال: وهل ذلك يؤخر عن زيارتك لأصدقاء لك. قال: نعم، وعلينا اليوم أيضا doctors meeting for all the وكثيرا ما سمعت من إخواني التلامذة أبناء الأمة يتحدثون ويستعملون كلمات غريبة، وهي طعنة في جسد لغتهم العربية المقدسة، ككلمة No بدلا من كلمة لا، أو thank you بدلا من شكرا أو أشكرك، وغير ذلك،

مما يشوه الحديث، وتنفر منه الإذنان، فكان لغتهم التي فاقت غيرها من اللغات بالبلاغة والاتساع تضيق عن التعبير بكلماتهم هذه، فالتدوا قليلا، وارجموا لغتهم أيها الشبان. ارحموا كي ترحمكم وإلا فالذنب ذنبا، ولا رحمة على المذنب، والسلام»

جريدة الصباح، القدس سنة 1921
السيد / إسحاق موسى الحسيني
هل ظهر في فلسطين أدب وأدباء، بتصرف

الظاهر أن فلسطين لم تكن في تاريخها القديم وحدة مستقلة عن شقيقتها المجاورات ومنذ الفتح الإسلامي إلى العصر العثماني وهي تتصل اتصالا وثيقا بقطر من الأقطار المجاورة ولذا كان أدباؤنا ينتقلون من قطر لآخر، وأكثرهم قصد مصر، واتخذها وطنا ثانياً حتى عدّ من أدبائها.

وأشار الحسيني إلى بعض الأدباء الذين ظهوروا في عصور متعاقبة وهم من شواهد الصدق على أن التربة الفلسطينية لم تكن مجدبة في عصر من العصور. وأول من ذكر منهم: الكاتب الشاعر أبو الفتح محمود بن الحسين كشاجم الرملي، نسبة إلى الرملة البيضاء الواقعة قرب مدينة يافا، المتوفى في حدود سنة 350 هـ وقد قسم أيامه بين القدس والرملة وحلب، وكان شاعرا لأبي الهيجاء ولابنه سيف الدولة الحمداني.

وظهر في غزة أبو إسحاق الغزي المتوفى سنة 524 هـ وقد جاب بلاد الشام إلى أن أدركته المنية في بلخ. ولعل أكبر شخصية عرفت بها البلاد الفلسطينية هي شخصية القاضي الفاضل المولود في عسقلان سنة 529 هـ وقد ولد في صفر سنة 696 هـ صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي، وطلب العلم في دمشق وكان صديقا للذهبي والسبكي وألف خمسمائة مجلد منها الضخم «النفيس الوافي بالوفيات» في ثلاثين مجلدا. ومن الأدباء الفقيه شيخ الإسلام شهاب الدين الرملي المتوفى سنة 881 هـ وقد أقام في الرملة وبيت المقدس ويافا حيث عمر برجا على جانب البحر. ومنهم أبو أيمن عبد الرحمن بن محمد بن محير الدين العليمي المولود في بيت المقدس سنة 860 هـ صاحب «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل».

ومنهم مرعي بن يوسف الكرمني نسبة إلى طولكرم من قرى نابلس. وولد ببيت المقدس سنة 1281 هـ باحث أديب هو رحي بك بن محمد بن ياسين الخالدي الذي طلب العلم في باريس والآستانة وقد كان قنصلا للحكومة العثمانية في بوردو فثابا في مجلس المبعوثين في الآستانة. ومن الأدباء خليل الخالدي الذي قدم خدمة جليلة في جمع المخطوطات العربية. وعرفت البلاد في تاريخها الحديث عددا من الشعراء منهم علي الريم

فالبلا كما ذكر الدكتور الحسيني لم تكن عقيمة في دور من ادوار حياتها، وان فلسطين هي بلد العلم والحضارة والصراع، وهي من البلاد العربية التي تزخر بالأدباء والكتاب والعلماء والفقهاء.

«الحياة الأدبية في فلسطين»

بقلم الدكتور إسحاق موسى الحسيني

أظهر مساوئ التاريخ القديم اعتماده في تاريخ الحياة العامة على الحياة السياسية بأضيق معانيها،

ولذلك لا يجد المطالع في التاريخ سوى أشباح الأمم السالفة. فمعالم الأمم أو أعراقها النابضة بالحياة تكاد تكون مخفية عن الأنظار.

لقد وهم بعض الناس أن هذا القطر الصغير بمساحته وعدد سكانه، الكبير بمقامه الديني والسياسي، لم ينتج أدبا في العصور الخوالي. وهو وهم تنقضه طبيعة الحياة بقدر ما ينقضه الواقع.

فمنذ الفتح الإسلامي إلى يومنا هذا والأدباء يتعاقبون بلا انقطاع. ولكن هناك بعض الحقائق لابد من ذكرها:-
• إن فلسطين لم تكن وحدة مستقلة بل كانت جزءا من «ديار العرب» ولم يستقل بحكم أرضها أمير محدد فهي إما تابعة أو متبوعة.
• أنها لم تكن مركزا للخليفة أو للسلطان مدة طويلة من الزمن حتى تجذب إليها الشعراء والكتاب أو تحفظ لها المواهب الأدبية في بيئتها وتحول دون انتقالها إلى بيئات أخرى وقد كانت فلسطين ممثلة بالرملة والقدس خاصة عاصمة لديار العرب، وهي بهذه الفترة القصيرة لم يتح للحياة الأدبية أن تزدهر بفلسطين نفسها.

• إن البلاد لم تشتهر بالرخاء الاقتصادي الذي كانت تنعم به العراق والشام ومصر والأندلس، فليس عجيبا أن يتوجه أبنائها إلى مراكز السلطان والرخاء يلتمسون الدواعي لفتق المواهب.

طريقة أوصى بها الدكتور الحسيني لاستعمالها في تدريس الأبجدية:

هذه الطريقة التحليلية، وهي تسير من الصورة إلى الكلمة، ومن الكلمة إلى الجملة بتدرج حسب الترتيب والأسلوب التالي:

1. ترسم صورة دار على ورق مقوى، وتكتب كلمة دار على ورقة أخرى، ثم تعرضان على الطلاب حتى ترتسم الصورتان، الكلمة ومدلولها في أذهانهم.
2. تعدد هذه الصور والكلمات في التدريج على أن تكون الكلمات مؤلفة من مقاطع يسيرة النطق والرسم.
3. يوضع أمام الطلاب عدد من الصور والكلمات، ويكلفون بالبحث عن الكلمة الدالة على صورة معينة.
4. يكلف الطلاب برسم الكلمة أو رسم الصورة ورسم الكلمة بأسفلها، وهذا الضرب من الرسم محبب إلى الطلاب ومدعاة إلى تركيز أذهانهم.
5. تؤلف من بضع صور جملة، ويكلف الطلاب بانتقاء الكلمات الدالة على هذه الصور، وعندما يستمر الطلبة بهذه الطريقة فترة من الزمن ترسخ الكلمات في أذهانهم ويعتادون رسمها وقراءتها بسهولة.
6. ثم يعطون أي الطلاب حروفا منفصلة، كل حرف على حدة، ليؤلفوا منها بعض الكلمات، ومن المفروض أن يقوم المعلم باختيار الكلمات بحيث تدل على أشياء مألوفا في حياة الطالب في تلك الفترة، الكتابة مع القراءة جنبا إلى جنب، ثم يبدأ الطلاب، ويشجعوا على قراءة قصص قصيرة مصورة قراءة صامتة، ثم إجراء محادثة حول القصة، حيث إن القراءة الصامتة مقدمة على القراءة الجهرية.

ويذكر أن للدكتور الحسيني طريقة أخرى في تدريس الأبجدية.

مصطلحات النقود في البلاد العربية في نظر الدكتور إسحاق موسى الحسيني:

لهذا المبحث ثلاث نواح: ناحية تاريخية، وناحية أثرية، وناحية لغوية، وقد ترد في كتب التاريخ، وفي الوثائق التاريخية: كسجلات المحاكم الشرعية والمعاملات والمراسلات، وعلى السنة الناس، أسماء نقود. والمعاجم القديمة كالقاموس المحيط ولسان العرب وتاج العروس لا تذكر من هذا المصطلح إلا النادر كالدينار والدرهم والفلس، وقد ورد الدينار في القرآن الكريم: «ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك، ومنهم إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما» وقد ورد الدرهم بصيغة الجمع: «وشروه بثمن بخس دراهم معدودة».

ويذكر الدكتور الحسيني أنه لا يوجد معجم أو كتاب وعى جميع الأسماء، وربما كان كتاب «النقود العربية وعلم النميات» للأب انستاس ماري الكرمليني الصنيع الفرد في هذا الباب، فقد توسع، وعدد من الأسماء النقدية ما كان وصفا لها. رب سائل يقول: أحسن أن تدخل أسماء النقود المعجم وكلها دخیل غير عربي؟

إذا كان القصد من المعجم الإعجام وحل الرموز والمشكلات فدخلوها ضروري، والمعاجم الغربية تفخر في طبعاتها المتوالية بإضافة ألفاظ مستحدثة في مختلف العلوم. وأسماء النقود العربية دخلت كتب التاريخ ووردت في الوثائق.

ولا يضير العربية أن استعارت أسماء النقود من مختلف اللغات، فالحضارة العربية تعتز باقتحامها جميع الميادين، وبوقوفها موقفا إيجابيا من الحضارة الإنسانية، تأخذ وتعطي، تدين وتستدين، فعل المقدام الوثائق بنفسه، الحريص على أن يقف في طليعة الركب. وكانت الدول قديما تتعامل بالدينار والدرهم، وأولهما لاتيني من كلمة عشرة، وثانيهما يوناني من كلمة درخم بمعنى قبض أو تناول، ولم يكن الاصطلاح على كلمة تنسب إلى العشرة بالأمر العسير على لغة الضاد، ولا كانت مادة القبض والتناول مغلقة على العربي المستعير منها، كما استعار منها اليوناني، وجاراه الروماني والفارسي والجرماني وغيرهم من أبناء القرون الخالية.

ولو أخذنا بالمقاصة بيننا وبين أبناء اللغات العالمية لاسترددنا من معجماتهم أضعاف ما يستردونه من معجماتنا في باب المعاملات وحدها، فلا يحق لهم أن يدينونا بالجنيها والريالات إلا إذا أدناهم بالبنك والحوالة والرزق، بل بأرقام العبد نفسها، وبالصفر من حساب ما بعد العشرات والمئات.

وقد تناول الدكتور إسحاق موسى الحسيني عددا كبيرا من المصطلحات تجاوزت الثمانين مصطلحا، فقد استعمل العرب في أبان مجدهم الدينار الذهبي، والدرهم الفضي، ثم دار الزمان دورته المنحوسة، فتشت شملهم، وتولى الأعاجم شملهم وأمرهم، ويوم ذاك ظهر البرغوث، والسحتوت، والزلطة، والمتليك، وقد عرفت هذه النقود «بالنقود المغشوشة».

فن إنشاد الشعر عند العرب

عرف الإنسان فن الإنشاد من قديم الزمان كما عرف الموسيقى والرقص والرسم وسائر الفنون الجميلة، بوحى الفطرة، قبل أن يكون لها قواعد مقررة، أو أن يحاول هو أن يستنبط منها أصولا ثابتة. فالفن سبق العلم في كل نواحي المعارف الإنسانية، والعلم هو قواعد نظرية لمادة سبقت له في الزمن. وهكذا عزف على الآلات الموسيقية قبل أن يعرف الرموز، وقد نظم الشعر قبل أن يعرف مختلف البحور.

وقد عرف الإنسان الشعر في الوقت الذي عرف فيه الموسيقى، وكان يرسل شعره أحيانا شجوة منبثقة من أعماق النفس. ولم يكن قد عرف الكتابة ليتخذها وسيلة لنقل عواطفه وشجونه إلى أولئك الذين يود أن يبلغهم صوته، ولذلك كان اللسان قلمه، والأذن صحيفته. وقد كانت لغته أقرب إلى الغناء منها إلى الكلام المألوف في هذا العصر.

لقد عرفه الرومان واليونان قبل أن يعرفه العرب، ولكن متى وضعت لفن الإنشاد قواعد؟ فأول من وضع العروض العربي الذي يلقي بعض الضوء على فن الإنشاد هو الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي عاش في القرن الثاني للهجرة.

وقد كان العرب في ذلك الحين يجهلون الرموز الموسيقية (النوط) ولا يعرفون أشارات خاصة بالضغط الصوتي، لم يقيدوا فن الإنشاء تقييدا تاما، وظلوا يعتمدون في الإنشاد الصحيح على الرواية فحسب.

والذين يتتبعون إنشاد المنشدين في مختلف البلدان العربية يلحظون اختلافا بينا يرجع إلى:-
تطور الأصوات: فهناك أصوات انحرفت عن مخارجها، كالأصوات التي تخرج من بين الأسنان، وأصوات أخرى قد فقدت بعض خصائصها، كال ق، ط، ج، ظ، فالقاف اليوم مهموسة، وهي في كتب القدامى مجهورة، والجيم اليوم معطشة، وقد كانت مجهورة كما تبدو في النطق المصري.
عدم إدراك جل المنشدين المعاصرين لطبيعة المقاطع، أطويلة هي أم قصيرة، ومقدار طول كل مقطع. فبعضهم يخطف المد، وبعضهم يطيله، دون الرجوع إلى قواعده العامة:
فقدان الضغط على المقاطع المعروفة في اللغات الأوروبية الحديثة Accent.

وقد فقد الإنشاد أهميته اليوم لاعتماد أكثر الشعراء على نشر شعرهم دون إلقائه في الأسواق الأدبية والأندية العامة، وهذا انحراف يكاد يؤدي بفن الإنشاد، ويضعف الشعر نفسه، فالشعر دعامة الصوت لا الصورة، والموسيقى عنصر ذو شأن في الشعر نفسه لا تقل أهميته عن أي عنصر من عناصره الأخرى كالخيال والعاطفة.

لقد كتبت الأوساط الأدبية الفلسطينية كثيرا عن المرحوم الدكتور إسحاق موسى الحسيني وأوضحوا آراء كثيرة له في مختلف الأمور الأدبية:

فقد كتب د. جورج قناع من جامعة حيفا عن الدكتور إسحاق الحسيني والوصايا العشر، وقد تحدث عن مؤلفات الحسيني التي تتصل مباشرة بدراسته العلمية وعمله كأستاذ للغة العربية في القدس والقاهرة وبيروت، وإن هذه المؤلفات تعكس نظرات فكرية شمولية للدكتور الحسيني.

فقد ورد في كتابه عودة السفينة «إن الأمة منتبهة لا مبتدئة، منتبهة من مراحل التطور المختلفة، يدل ذلك على أنها وصلت إلى قمة التطور، ولكنها لم تبق في القمة لأن ذلك من المستقبل. لقد عبر المفكرون

في الغرب عن مراحل التطور في حياة الأمم والأفراد بعجلة الحظ التي تدور باستمرار، وكل من يتعلق بها يصل إلى القمة حتماً، ولكنه لا يستطيع أن يبقى هناك إذ أن عجلة التطور هذه دائبة الحركة، فالوصول إلى القمة معناه بداية النزول أو التراجع، من هنا فالأمة العربية ليست في نقطة البداية، إنما هي في وضع التراجع الذي طغى، فنسيت حالها وعلمها وأدبها وفلسفتها حتى جار عليها قوم، وحكموا عليها بأنها مبتدئة، والناسي تحتاج إلى بعض وقت ليستذكر دروسه القديمة، ومع شيء غير قليل من الجهد يعود إلى حيث انتهى».

وحول المرأة قال الدكتور الحسيني قولته المشهورة

«إننا لا يمكن أن نكون أمة إلا أعدنا لهذا المخلوق المهيض الجناح حقوقه الطبيعية كاملة» فهو يريد من المرأة العربية أن تتمتع بحقوقها الطبيعية كاملة، على أن يتم ذلك بطريق علمية مدروسة، ويكون ذلك بإخراج قضيتها من دائرة الجدل والفسفسطة إلى علم الاجتماع، وهو لا يريد إنصاف المرأة لدوافع إنسانية فحسب، بل لأن لها دوراً أساسياً في تقدم ورقي الأمة، وحل قضية المرأة وهذا معناه حل قضية عسيرة تجابه المجتمع العربي، طاقة كاملة يجدر استغلالها، من أجل المصلحة العامة.

وقد دعا الدكتور الحسيني في «مذكرات دجاجة» إلى رفض المادة، لأنها زائلة، ولأنها من أخطر الضلالات على المخلوقات، ودعا في مقابل ذلك التمسك بالروح لأنها خالدة، ولكنها دعوة مثالية من الصعب أن تتحقق، ولكن كان في ذهن الحسيني أن المثالية ستتحقق في المستقبل البعيد «حتى يسمو الإنسان، ويعتبر المادة وسيلة لا غاية في المثل العليا والخير المطلق، لا بد لنا من أن نقيم بيتنا الصغير على أسس اقتصادية قوية».

ولقد قدم الدكتور محمد السعدي فهد رئيس جامعة الأزهر بالقاهرة بحثاً حول الدكتور الحسيني والنقد المعاصر، فقد صدر عن فلسفة خاصة بالنقد، واهتم بمن تأثروا بالفكر الأوروبي، وأفادوا منه إفادة أضافت الجديد إلى ما حققته رجال التراث الأدبي الخالص، وقد اتجهت دراسته إلى من تلاقت في جداولهم تيارات المشرق والمغرب، وقد أوجز الدكتور مقدمة كتابه في النقد بأبرز خصائص الحسيني «وأولها تتبع الرعييل الأول من نقاد المرحلة مع إيضاح العوامل التي أهابت بهم إلى إعادة النظر في القيم الأدبية المألوفة، وثانيهما عرض النظريات التي أتى بها النقاد مع تحليلها وردّها إلى أصولها، وثالثها بيان أثر النقد في الأدب المعاصر، وآخرها الإلمام بالنقد الأدبي المعاصر كما يظهر في أهم آثاره وأشهر أعلامه». ومن أبرز ما قال في مجال النقد:

«إن ثمة علاقة بين بلاغة القول والإعجاز وبين عزة سلطان الأمة، وزمن فتوتها، وإن معين الحكمة وحسن البيان مع الإيجاز ما زالا يجريان مع الدولة صعوداً وارتقاءً وانسباطاً حتى إذا اتى دور التقهقر والانحطاط أخذ اللسان وحسن البيان وتلك البلاغة والفصاحة في السقوط والسخافة وفساد التركيب وسقم المعاني، وسوء الاختيار للألفاظ لدرجة التعذر على الغالب معها فهم المراد».

وتحدث الدكتور الحسيني عن نجيب حداد وروحي الخالدي وسليمان البستاني وقسطاكي الحمصي قبل أن يتحدث عن العقاد والمازني وميخائيل نعيمة وهيكلا لأن هؤلاء الآخرين قد اشتهرت آراؤهم حتى لا تجد مجالاً لدارس.

وقد كتب نجيب حداد دراسة تحت عنوان «مقابلة بين الشعر العربي والإفرنجي» رآها الدكتور الحسيني ذات أثر بعيد في التوجيه الأدبي، فاحتضنها بمكان بارز في كتابه وبالنسبة لكتاب «منهل الوارد في علم الانتقاد لقسطاكي الحمصي» فهو برأي الدكتور إسحاق أول كتاب أفرد للنقد الأدبي المعاصر في العصر الحديث حيث اشتغل مؤلفه بموضوعه مدة ستة عشر عاماً متتبعاً سيره، مكباً على مطالعة أئمة الفرنسيين.

وهذا ما نقوله عن أثر الحسيني في تاريخ النقد المعاصر، أما آثاره في النقد الأدبي ذاته فتشهد بها مؤلفاته الكثيرة، وتلاميذه الذين وردوا منهله، وانتفعوا بتوجيهه، ولذلك، فالدكتور الحسيني جمع بين النقد والأدب بشقيه الشعر والنثر، ولم يترك شيئاً بلغة إلا وضعه في ثنايا الكتب والأبحاث والمقالات التي أصدرها وكتبها في أكثر من موقع في العالم العربي خاصة والعالم بشكل عام.

رأيه في الأدب الحديث:

يقرر الحسيني إن هذا الأدب قد خطا في السنوات العشرين الأخيرة خطوة واسعة نحو الحياة التي يحياها تمثيلاً كاملاً، ولم يتغلغل إلى البيئات العربية المختلفة، ولم تتوفر له وسائل التعبير الشاملة بحيث يمكن أن نسميه أدباً حديثاً مستقلاً عن الأدب القديم، ثم يذكر الدكتور أركاناً ثلاثة لا بد منها حتى يستطيع الأدب العربي الحديث أن يحقق ما يراد منه من تمثيل للحياة العقلية والاجتماعية والروحية تمثيلاً صحيحاً.

الركن الأول: اكتشاف التراث العربي القديم، واستيفاء حياته يكون عهد الأحياء أساساً راسخاً يرتكز عليه الإنتاج الجديد.

الركن الثاني: اللغة والمفردات العربية بحيث نتمكن من وصف ما تقع عليه عيوننا كل يوم في مختلف نواحي الحياة.

الركن الثالث: الثقافة الحديثة الواسعة القائمة على الاتصال المباشر بأحدث النظريات العلمية، لأن الأدب الحديث خال، إلى حد كبير، من الفكر العميق والنظر الدقيق والانسجام الفني.

ويقول الدكتور إسحاق: «إن جهل الأديب ببعض معارف زمنه كان مثار نقد في الزمن الأول، وإن ابن قتيبة مثلاً يحمل على كتاب عصره الذين يجهلون أوائل المعارف.

ولهذا نقول «شتان بين العصرين» عصر طغى فيه العلم والأدب، وإن كان الكاتب في ذلك العصر ملزماً بالإلمام بمعارف عصره، فكاتبنا اليوم اشد حاجة إلى الإحاطة بمعارف زمنه، ولم يكتف الحسيني بالتاريخ للأدب ودراسته قديماً وحديثاً بل شارك في مسيرة الإبداع في مجال القصص، ففي بداية الحرب العالمية الثانية، وقبل أن تحل النكبة في البلاد، كتب مذكرات دجاجة.

وكان فيها كاتباً ينتمي للمدرسة المثالية، حيث إنه لم يجعل همه التقاط مواقف الظرافة في المشاهد، لكنه اتخذ فلسفته الوجدانية وسيلة لدرس شؤون مجتمعه السياسي والاجتماعي في تعمق وتدبر، في أسلوب شعري ممتع يصور به كثيراً من المشاعر والعواطف التي يرتبط بها أفراد المجتمع، واتخذ الرمز

إطارا ليعرب به عما لا يستطيع أن يعرب عنه، بحكم الظروف السياسية والاجتماعية التي تتجسس على الأفواه والقلوب والعقول، ولكنه رمز طبيعي.

ونلمس من هذا ما نلمسه لدى الأخلاقيين من جمال الخطوط والألوان والظلال والأنغام والحركات، ومن طلبه للحقيقة بانميّاز الكذب عن الصدق، والزيف عن الأصالة، ولؤم النفس عن طيبتها، والتعقل عن الغباء، ومن تلمس للخير بطريق تلمس للحب والأصالة والبطولة والألم والعزة والتضحية.

وفيما تقدم، نرى أن الحسيني كان كاتباً مثالياً متعلّلاً في مذكرات دجاجة التي صدرت سنة 1943م، وفيها قال الدكتور طه حسين: «هذه دجاجة عاقلة جد عاقلة. ماذا أقول؟ بل هي دجاجة متفلسفة تدرس شؤون الاجتماع بتعمق وتدبر للرأي، فتصل إلى استكشاف بعض الأدواء الاجتماعية وتصف لها الدواء.

الدكتور إسحاق الحسيني والشعر

في الواقع أن الشعر لم يكن ملكته، بل كان معاناة بالنسبة له، وكان يعتقد أن الشاعر يجب أن يكون موهوباً حتى يقول الشعر ويجيده، وأن الشاعر لا يستطيع أن يقول إلا وهو هادئ خالي الذهن، وأن اعتقد البعض أن هناك من يقول وهو يشرب الكأس أو متوتر الأعصاب.

فالشعر بالنسبة له معاناة، ولم يكن يقول الشعر إلا في أوقات السرور الشديد والحزن الشديد، فالسرور بما يبهج العقل ويفرح القلب، والحزن مرده إلى الأوضاع المأساوية التي يعيشها الشعب الفلسطيني منذ بداية القرن الحالي. وقد كان يحب أولاده وأحفاده فنظم فيهم الأشعار، وقد نظم أشعاراً لبعض أصدقائه، ومنهم: الدكتور ممدوح العكر من مدينة نابلس، والدكتور شوقي حرب من مدينة رام الله.

وقد تحدث بنبرة حزينة ولوعة جارفة عن ألم القدس وعذابها تحت وطأة الاحتلال قائلاً:

يا قادمة للقدس تلمّ تريها	هلاً علمت بأن قدسك بأكية
الشمس لا تغلو وراء جبالها	لا نورها نور، ولا هي حانية
والطير أغلق بابه كيلا يرى	أحدا يجوس خلال أرض غالية
والغصن ألوى عنقه متوارياً	في صدره آثار جرح دامية
والحقل غادره بنوه ممزقاً	يستبدلون به دراهم بالية
ومساجد الله التي قدسها	تلكى تنوح على ديار خاوية

ماذا أقول؟ أسمع أنت أم الدمع همى
لم أقصد الإيلام يا خلي ولم اغ
أنظر حواليك وطف في بلدة
ثم اختفى النجم وحلت ليلة
يا ليت قومي يسمعون وليتهم

يبكي نفوساً عانيه
سوى وصفي عوادي عادية
كانت وكنا في حياة راضية
ظلماء في أعقاب ربح عاتية
يتفكرون بكل نفس واعية

هكذا كانت القدس في قلب أديبنا الدكتور إسحاق موسى الحسيني، فيا ليت قومي يحافظون عليها، وبالبيت قومي يقدرّون ليلة الإسراء.

ونثبت هنا حواراً فكرياً أجراه أسعد عويس مع الدكتور إسحاق موسى الحسيني عندما كان يمد التراث بأدبه أثناء حياته، لأهميته القصوى، وقد جرى الحوار في المنتدى الفكري العربي.

المنتدى: ما هو تصورك للعلاقة بين العروبة والإسلام، أهي علاقة تكاملية أم تبادلية؟

د. إسحاق: العلاقة بين العروبة والإسلام تكاملية وليست تبادلية، بمعنى أن العربي ينتمي إلى قومية عربية، ولكن عقيدته هي العقيدة الإسلامية، ولا يستطيع أحد مطلقاً أن ينكر أثر الإسلام في الحضارة العربية، فالعرب لم يظهروا على الساحة التاريخية إلا بفضل الإسلام والإسلام هدفه العالمية وليس القبلية أو الفردية أو القومية.

المنتدى: إذن كيف توفق بين دعوة القومية وبين مبدأ يدعو إلى العالمية؟

د. إسحاق: هذا الصراع بين القومية والإسلام هو طرح حديث كما لا يخفى عليك، ولكن لابد أن يستقر الوضع على حال، حيث إنه منذ انفصال العالم العربي عن الدولة العثمانية ظهرت القوميات، وتجدر الإشارة إلى أن ظهورها كان لغير مصلحة العرب والمسلمين حيث إنها أدت إلى تفتيت الدولة الإسلامية.

المنتدى: هل تقصد أن ظهور الدعوة القومية لم يكن نتيجة تطور طبيعي بل كانت هناك قوى خارجية ساعدت على بروز هذه الدعوات؟

د. إسحاق: نعم كانت هناك عوامل غير طبيعية، حيث كانت هناك الدول الغربية التي تهدف إلى الاستيلاء على أشلاء الإمبراطورية الإسلامية، وعندما تم عزل البلاد العربية عن الدولة العثمانية ظهرت القوميات، وظهورها لم يؤد إلى استقلال البلاد العربية وتحررها، بل استولى عليها المستعمر الغربي، ربما كان بالمقدور أن تكون الدعوة القومية ظاهرة إيجابية صحيحة لو كانت في جدول الدعوة اللامركزية، والعلاقة بين العروبة والإسلام كالعلاقة بين الجسم والروح، فالتوفيق بينهما ممكن. إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن الإسلام دعوة عالمية «الحمد لله رب العالمين» وليست دعوة لجنس معين أو قومية معينة.

المنتدى: يرى بعض المفكرين أن هناك إشكالية في الهوية العربية فالإنسان العربي على حد قولهم يواجه بعدة انتماءات وولاءات والتي قد تكون أحياناً متعارضة ومتضاربة فما رأيك؟

د. إسحاق: أومن بأن هذه أي ظاهرة تعدد الانتماءات والولاءات، طبيعية، وليست مفروضة، ولا سيما في العصر الحديث، حيث تتنازع العربي تيارات مختلفة تؤثر في اتجاهه الفكري، ولا يستطيع الإنسان أن يتخلى عن جذوره القديمة ولكن، وفي نفس الوقت لا يستطيع إلا أن يتفاعل مع الأفكار الإنسانية الحديثة.

المنتدى: كيف تفهم دعوات التحديث والتجديد في التراث العربي؟

د. إسحاق: أومن بأن التجديد في الحياة أمر صحي وضروري، ولكن لا ينبغي، بنفس الوقت، أن ننفلت عن التراث، وإنني أشبه هذه العملية بأن يقيم الإنسان بيتاً ذي عدد من الطوابق فهو لا يستطيع أن يبنيه دون أساس متين، فعلياً أن نستفيد من الحضارة الإسلامية التي هي ماضينا استفادة تغني الأمة

غناء عظيم، فهي ثروتنا، وهي التي تعطينا العزة بالنفس والشعور بالعظمة والقوة، والإمكانية كبيرة، فلا يجب علينا أن نفرط بها، ولماذا ولمصلحة من نفرط بها؟

إنني اقرأ عن اليابان وتجربتها العظيمة، فإذا بي أرى أن في كل مصنع أو مخزن كبير مكانا صغيرا للعبادة «لليانة اليابانية» هؤلاء يجعلون الإنسان يحافظ على انتمائه وتراثه. إنني أفرق بين الإسلام والرجعية، فالإسلام ليس فيه رجعية أبدا، وهو عبارة عن قيم روحية وخلقية وإنسانية رفيعة تملأ الإنسان بالقوة والكرامة والعزة، ولست مستعدا لأن أفرط بها، ولكن ظاهرة التعصب الأعمى ظاهرة رجعية وظاهرة غير صحية.

المنتدى: عند الحديث عن التجربة اليابانية في التحديث، نرى نموذجا رائعا استطاع أن يحقق التقدم التكنولوجي والاقتصادي، ولكنه استطاع مع ذلك أن يحافظ على تراثه، بعض المفكرين يعتقدون أن العالم العربي لا يستطيع أن يستفيد من ثمار التكنولوجيا الغربية دون تبني التيارات الفكرية والفلسفية الغربية، فما رأيك؟

د. إسحاق: هؤلاء المفكرون يحكمون علينا بمقياس الغرب الذي لم يتقدم الا عندما تبني العلمانية، أما العرب فلم يتقدموا إلا بالإسلام، وهذا هو الفرق بيننا وبين الغرب. فمفهوم الدين في الغرب كان غير حضاري، حيث كان رجال الدين في الغرب يمارسون أشياء يغلب عليها طابع الكبت الفكري والقهر الاجتماعي، أما الإسلام فهو دعوة إلى العلم وإنشاء للحضارة والتأمل في الطبيعة والتعرف على أسرار الكون، حيث ميز الإسلام بين العالم والجاهل.

وخلاصة القول إن الإسلام فيه عناصر جيدة لا تتوفر لغيره من الأديان، كالشمولية والاعتدال والحزم والعالمية والزمنية والمكانية ولهذا أعتقد أنه بإمكاننا التقدم حضاريا وتكنولوجيا مع المحافظة على العقيدة والتراث.

المنتدى، وهو السؤال الأخير: هل تعتقد أن العلمانية تصلح كإطار فكري للمجتمعات العربية والإسلامية؟

د. إسحاق: لا تصلح، لأنها تعالج الجسم دون أن تعالج الروح، وقد تطورت، كما أوضحت، في ظل الظروف والأوضاع المختلفة تماما عن أوضاع مجتمعاتنا العربية والإسلامية.

وهذه معلومات حصلت عليها من بعض أقارب الدكتور إسحاق موسى الحسيني بتاريخ 1993/11/22 وقد كتبها على شكل حوار دار بيني وبين الدكتور فخري الحسيني وهو ابن أخت الدكتور إسحاق، وذلك في بيت الدكتور إسحاق:

س1: هل بإمكانك أن تعطيني فكرة عن شخصية الدكتور إسحاق؟

د. فخري: لقد كان رجلا متواضعا، يأخذ الأمور بتفكير عميق، تنسجم بكلامه حيث إنه واسع العلم والمعرفة، تشعر وكأنك تجلس مع إنسان يحاول أن يثبت لك قدر الإمكان أنه ليس أكبر أو أقدر أو أفضل منك بحكم مستواه العلمي والأدبي.

س2: كيف كانت معرفتك الشخصية به؟

د. فخري: لقد كانت معرفتي به من خلال زياراتي المتكررة له بحكم أدبه أولا، وبحكم رابطة القرابة ثانيا.

س3: ما هي أهم الموضوعات التي كانت تشغله؟

د. فخري: كان يتكلم دوما عن القدس، وقد كان يربطها لي دائما بالأراضي الحجازية المقدسة، وكان يردد لي ويشرح سورة الإسراء، وقد كان يعرفني على مراكز التراث الإسلامي بالقدس، ويحدثني عن أملاك الآباء والأجداد.

كان يربط حضارة القدس بأعرق حضارات العالم، لأهمية القدس، ومكانتها الدينية، وقد كان يرى أن هواء القدس من أنظف الهواء في العالم من حيث النقاء، وقد وجد في القدس الشفاء من كل علة.

س4: هل له أية صلات بالسياسة؟

د. فخري: لقد تحدث مرارا وقال: «السياسة أوجعت قلبي، وأصابتني بشرور كثيرة في شبابي، وقد كان يرى أنه لا حقيقة في السياسة، فهي من فنون اللعب على الحبلين، وأما بالنسبة للسلام مع اليهود، فقد قال بالحرف الواحد «كيف تسالم من يصادر أرضك» وكان يكررها ويشير إلى طبيعة إسرائيل التي تسالم باليمين وتصادر بالشمال.

س5: هل كانت علاقاته متميزة أم أنها كانت عامة؟

د. فخري: بما أنه تعرّف على هموم ومشاكل وتفكير أفراد المجتمع وهموم البلد فمن الطبيعي أنه تعرف على جميع فئات المجتمع، فقد كان مترفعا عن الصغائر، وكان يردد دوما ويقول «الوعاء الكبير يحتوي ويتسع لكل الأوعية الصغيرة».

س6: هل انتسب إلى تنظيم معين أو أيده؟

د. فخري: في الحقيقة كان تنظيمه الوحيد هو الاستقلال، فهو أديب أولا وأخيرا ولكن كان يتحدث بألم عن الفرقة التي تصيب الشعب الفلسطيني، وقد كان هدفه وحدة الشعب الفلسطيني تحت المظلة العربية والإسلامية، فتحرير القدس لا يأتي عبر هذا التنظيم أو ذاك، وقضية القدس هي قضية كل المسلمين، ولقد كان همّه الوحيد المحافظة على التراث الأدبي والتاريخي والإسلامي والجغرافي لفلسطين العربية والإسلام، وقد كان يتنبأ بدثور جميع الآثار العربية الفلسطينية خاصة، لأنها الشاهد الوحيد على وجود آثار عربية ضخمة في فلسطين.

س7: فيصل الحسيني أحد أقرباء إسحاق الحسيني، فهل كان يؤيد ما كان يطرحه فيصل حول العملية السلمية؟

د. فخري: في الحقيقة أنه لم يؤيد، كما أنه لم يعارض، ولكن كانت كتاباته تفسر أفكاره حول قضية القدس، ومن ثم أود أن أوضح لك أنه لم يكن بينه وبين الأستاذ فيصل الحسيني علاقات حول هذه القضايا، فالسياسة في واد، والأدب في واد آخر، واعتقد أن حديثه وجهه لمدينة القدس وربطها بالأماكن

المقدسة في الحجاز هو موقفه من الطروحات السلمية، ومع ذلك لم يتدخل مطلقاً بما كان يطرحه أو يلتزم به الأستاذ فيصل الحسيني بصفته من أنصار منظمة التحرير الفلسطينية.

س8: هل كان يلتقي بالأدباء الإسرائيليين؟

د. فخري: إنه كأديب فلسطيني مشهور في أكثر من موقع في العلم كان يلتقي بالكثير من الأدباء الإسرائيليين، وكذلك التقى ببعض الكتاب في أكثر من دولة: في كندا، في لبنان، في مصر، في بريطانيا، وقد كان يتعرف على الأدب الإسرائيلي بشكل عام، ويستفيد من الأدب الإسرائيلي حول ما يدور.

لقد أشار الدكتور فخري الحسيني أنه كان ينتقل بين كثير من الجامعات العربية، وقد ذكرت السيدة ميسون الحسيني مديرة دار الطفل العربي في بيت المقدس أنه: كان أكثر ما يتحدث عن حبه للوطن حين يعود من الغربة، فالغربة هي مرض بحد ذاتها حسب رأيه.

وأشارت إلى أنه كان يكره المحسوبة والبيروقراطية.

وذكرت أنه كان يتنبأ بحدوث كارثة لأطفال فلسطين على الجسر، وقد قال «أغلقوا الجسر فقد ضحى البشر».

ومن أطرف ما حدثتني به أنه اضرب عن حلاقة ذقنه لمدة عام كامل، لأن اليهود صادروا ماكينة الحلاقة منه على الجسر أثناء العبور إلى فلسطين، حيث إنه كان حساساً للغاية، من الاحتلال.

وقد سألت السيدة ميسون الحسيني إذا ما كانت له هواية معينة أم لا؟ فقالت: لقد كان يمشي بعد الساعة الخامسة مساءً على رؤوس الجبال في القدس لمدة تستغرق 2-3 ساعات.

وقد حدثتني عن علاقته بزوجته فقالت:

لقد كان متعلقاً بها لأنها كانت الزوجة الفاضلة، الوفية، المثالية، الصابرة والمتواضعة التي أزرته في أفراحه وأحزانه، وفي تشاؤمه، ولم تتخل عنه لحظة واحدة، حتى أن ذلك دفعه لأن لا يخرج أي مقال أو كتاب أو بحث قبل أن يعرضه عليها ويأخذ رأيها فيه.

وقد كان يقول: «وراء كل رجل ناجح امرأة، وأنا ورأي زوجتي» هكذا كانت العلاقة بينه وبين زوجته، يسودها جو من المحبة والمودة والرعاية لأولادهما الثلاثة، ومن التالف والتعاون عليه ومواجهة الصعاب.

الخاتمة

من خلال ما تقدم نلاحظ أن الدكتور الحسيني عمل في عدة مناصب سواء في الدول العربية أو الأجنبية، وقد ساعده هذا على أن يأخذ صورة واضحة عن الدول العربية والأجنبية.

وأما تجاربه في الحياة فقد ساعدته على تأليف عدد لا بأس به من المؤلفات التي تبقى مرجعاً في الحاضر والمستقبل، لأن كتاباته تتميز بالواقعية والموضوعية. ونرى أيضاً أنه يهدف في مؤلفاته، دائماً، إلى خدمة الناس والوطن، هكذا كان الدكتور إسحاق موسى الحسيني.

لقد قضى سنّي عمره الست والثمانين وهو يعطي في كل الميادين الثقافية، ولا ينقطع هذا العطاء، بل يمتد ويتسع نطاق علمه، أنها سنة الله في عباده العلماء « لا يدعون جهداً، ولا يتركون فراغاً في الناس في أهله ووطنه، أنه الابن البار للمدينة المقدسة الذي ملك عليه الانتماء إليها قلبه وعقله ونفسه، وقد شغله البحث حتى جاس خلال التاريخ الحضاري لهذه المدينة في الماضي والحاضر، ومضى يبصره يمد يده إلى الآفاق الآتية.

كان لسان حاله يقول: «إذا أردنا أن نكون أمة تحيا حياة عقلية راقية فلا بد من نشر التعليم في جميع البيئات، في المدن والقرى ومضارب البدو، لتجتمع الأمة الواحدة على وحدة التفكير، ووحدة الثقافة، ليظهر بيننا كتاب ومؤلفون يخلفهم قراؤهم في بيئتهم التي يعيشون فيها».

مصادر هذه السيرة:

1. هل الأدباء بشر
2. أساليب تدريس اللغة العربية في الصفوف الابتدائية.
3. فن إنشاد الشعر العربي من.
4. الحياة الأدبية في فلسطين.
5. مصطلحات النقود في البلاد العربية.
6. موسوعة أعيان القرن الثاني عشر الهجري.
7. مجموعة بحوث ومقالات حول شخصية الدكتور إسحاق.
8. ديوان شعر للحسيني «الدكتور حسن عبد الرحمن السلوادي».
9. الدكتور عبد الرحمن السلوادي بين الوفاء والذكرى.
10. مختارات من الموسوعة الفلسطينية الجزء الثالث.
11. كتاب أعلام الفكر في أرض السلام.
12. حوار مخطوط مع منتدى الفكر العربي.
13. لقاء مع د. فخري الحسيني وكذلك سمير ظاهر سمير أحد أقرباء د. الحسيني / القدس، وبعض طالبات كلية الآداب للبنات القدس وكذلك السيدة ميسون الحسيني / دار الطفل العربي.

محمود دسوقي

١٩٣٤ -

محمود دسوقي

مقدمة الطبعة الأولى

يهدف هذا البحث إلى دراسة حياة الشاعر الفلسطيني محمود دسوقي الذي ألهب بشعره الوطني الجماهير العربية داخل الخط الأخضر فوقف متحدياً السلطة المحتلة، داعياً الشعب العربي للدفاع عن حقوقه الوطنية، ومما حدا بي إلى دراسة هذا الشاعر:

أولاً: عدم وجود دراسة جدية مستفيضة عن حياة الشاعر الدسوقي.

ثانياً: انتماء الشاعر إلى شعراء المقاومة الفلسطينية أمثال في سميح القاسم ومحمود درويش، وتوفيق زياد وغيرهم. فمحمود دسوقي من الشعراء الفلسطينيين المخضرمين الذين عاصروا قضية فلسطين منذ بدايتها وحتى يومنا هذا، فشعره أخذ يتجاوب مع الظروف السياسية في الوطن العربي عامة وفلسطين خاصة. ثالثاً: مواكبة الشاعر لحركة الشعر العربي الحديث، فتجربة الشاعر لا تمثل مرحلة محدودة وإنما تمثل مراحل عدة.

وقد كانت رحلتي مع الشاعر شعره طويلة وممتعة، فبعد أن قررت الخوض في غمار البحث بتوجيه من أستاذي الدكتور يحيى جبر، حاولت الاتصال بالشاعر ومقابلته غير مرة، وقام مشكوراً بتزويدي بكل ما يملكه من مواد حول الموضوع من كتب وقصائد ومقالات، مما وفر لي الوقت الكثير في البحث عن المراجع.

وبعد أن انتهيت من تجميع المادة، وجدت نفسي أمام كم هائل من المعلومات، وبدأت أضع اللمسات الأولى لهذا البحث، فكان المصدر الرئيسي لهذا البحث هو الشاعر الدسوقي نفسه - فقد قام بسرد الحوادث التي تعرض لها وأثرت في حياته وشعره بكل صراحة ووضوح - وقد جمعتها ووصفتها وأعدت صياغتها بلغتي، وجعلت منها مدخلا بسيطاً لحياة الشاعر الدسوقي.

تتكون هذه الدراسة في إطارها العام من ثلاثة فصول:-

الفصل الأول:

تناولت فيه حياة الشاعر والشخصيات التي أثرت في حياته فأبوه كان يشجعه على الدراسة والتعلم، وعن عمه أخذ سرد الأشعار والقصص. كما تناولت في هذا الفصل الحالة السياسية التي أسهمت بشكل واضح في بناء شاعريته القوية، ثم تحدثت بإيجاز عن أهم أعماله الأدبية ودواوينه.

الفصل الثاني:

تناولت فيه أبرز اتجاهاته الشعرية، وهما الاتجاهان الوطني والقومي، فقد تناولتهما في موضوع واحد لا ينفصل لأننا لا نستطيع أن نفصل بين الشعر القومي والشعر الوطني، فالواحد يكمل الآخر، والشعر مرآة العصر، والشعر من الشعب وإلى الشعب، وعلى الشاعر أن يصور آلام شعبه ويتغنّى بآمالهم.

مدخل

إن الدارس لشعر أي من الشعراء البارزين في الأرض المحتلة عام 1948 لا يستطيع أن يوفى البحث حقه إلا إذا تطرق بإيجاز للأدب في الأرض المحتلة، نشأته وتطوره خلال حقبة من الزمن في ظل الاحتلال، وأحكام الحصار على عرب الأرض المحتلة والانقطاع عن الشعوب العربية بشكل عام والشعب الفلسطيني بشكل خاص، وعن مناهل الأدب والثقافة خارج نطاق السجن الكبير، حيث أدى الانقطاع العضوي إلى الانقطاع التام بين شطري فلسطين، وبتعبير أدق بين جزئي الشعب الواحد.

هذا إلى جانب الهزة العنيفة التي أحدثتها النكبة في التركيبة الاجتماعية لعرب الأرض المحتلة، إذ لم يبق في الوطن المحتل من سكان المدن التي تشكل مركز القيادة السياسية والفكرية والأدبية الاقلي، «وكان جيل كامل من المثقفين قد غادر فلسطين إلى المنفى، ولم يبق الا مجتمع قروي بسيط يخضع لحصار سياسي واجتماعي وثقافي» (1)!

ورغم الحصار الشديد الذي فرض على عرب الأرض المحتلة والكبح لأي تيار سياسي أو أدبي، فقد ظهر في الأرض المحتلة كتّاب وشعراء، وتأسست بعض النوادي السياسية والثقافية، فأقيمت الندوات الأدبية واللقاءات الشعرية، فكان لهذه النوادي دور كبير في النهضة الأدبية في الوطن المحتل، فظهر في هذه الفترة عدد من الشعراء الفلسطينيين الذي اتجهوا اتجاهها وطنياً، نضالياً.... من هؤلاء الشعراء توفيق زياد، عصام عباسي، محمود الدسوقي،.....

فالدسوقي من هؤلاء الشعراء الذين كان لهم دور هام في حركة الشعر خلال هذه المرحلة بالذات، حيث خاض الحياة مع شعبه، قلمه ينطق بلسانهم، وأسطره تعبر عما يختلج في أنفسهم، كما يصور آلامهم ويتغنى بآمالهم، فكان الشعر بالذات هو رائده في هذا المجال، من قصيدة «دماء ودموع» يقول الشاعر محمود الدسوقي:

أجهر بصوتك لا تخف وأبدل دما
وتقحما لجح الصراع مجاهدا
أن الدماء رواء كل تحرر
واضرب أيادي البغي ضربة قاهر
واخفض لواء الظالم المتجبر

وللشاعر الدسوقي نشيد العودة حيث كتب قائلاً «أنشودة العودة»

أنا عائد يا بلادي
لبحر يافا... وحيفا
إلى روابي الجليل
إلى جبال الخليل
أنا عائد رغم كل الصعاب
غدا تقديك دماء الشباب
أدك القلاع أدوس الحصون
ورغم الماسي غدا عائدون

سنحني السهول ونبي الهضاب
نكلال بالغار هامتنا
ندق الطبول مع العائدين
نعود لأرضك يا فلسطين

والدسوقي من شعراء فلسطين الذين آمنوا بالوحدة العربية، وتغنوا بها، وكان أكثر تجاوباً مع الأحداث، فهو يرى أن الوحدة العربية آتية، وأن الدين لله، والوطن للجميع، فالشاعر الدسوقي اختار طريق الكفاح مع شعبه فهو يعد من أوائل الشعراء الذين كتبوا في شعر المقاومة؛ فقد صور أحداث الانتفاضة ومجازر الاحتلال، كما صور الصراع بين أبطال الحجارة وجنود الاحتلال، فقد التزم بالقضية الوطنية والقومية انسجاماً مع ما يراه من أن الوطن الصغير جزء من الوطن الكبير وأن الوحدة العربية لا بد أن تتحقق. أما الاتجاه السياسي فقد تمثلت مواقف الشاعر السياسية بالمطالبة بالمساواة والعدالة، وإلغاء الحكم العسكري، ودعا الشاعر للسلام العادل، وإقامة دولة فلسطينية مستقلة على أرض فلسطين العربية. لقد أثرت هذه المواقف على الشاعر، وفي شعره، فطغى الشعر السياسي على الأغراض الأخرى في شعره، ويلاحظ ذلك جلياً في أشعاره، ومن أسماء دواوينه الشعرية، فحشر الدسوقي السياسي يعبر عن ضميره وعن ضمير شعب بأكمله يعاني الاحتلال ويقاوم قوانينه الجائرة.

الفصل الثالث:

تناولت في هذا الفصل موضوعين رئيسيين في شعر الدسوقي وهما:-

أولاً: الالتزام في الشكل والمضمون، فالدسوقي يعد من الشعراء الذين التزموا قضايا شعوبهم وأوطانهم فقد التزم الدسوقي قضية شعبه داخل الخط الأخضر، ودافع عنها والتزم بفلسطينية المعركة، ومعركة المصير، والقومية العربية، والشعوب العربية، كما التزم بالسير على طريق الكفاح، وتغنى بالثورات العربية ضد الاستعمار.

وعندما تفجرت الانتفاضة تغنى ببطولات شعب وصموده، ويلاحظ أن الشاعر التزم بهذه القضايا جميعاً وصورها في شعره، فالشاعر الدسوقي من الشعراء الذين التزموا بالشكل والمضمون في قصائدهم.

ثانياً: التوثيق في شعر الدسوقي. في هذا الباب تناولت بعض مقتطفات من قصائده التي تعتبر سجلاً توثيقياً للأحداث التي يمر الشعب العربي. فشعره سجل الأحداث العربية والفلسطينية حسب تاريخ وقوع هذه الأحداث.

حياة الدسوقي في سطور

في مقابلة جرت بيني وبين الشاعر الدسوقي «في مبنى مكتبة بلدية نابلس» توجهت إليه بسؤال حول الحالة الشخصية ونسبه وحياته من شعره، وشعره من حياته، فكانت إجابته متمثلة حرفياً بما يلي:-

كانت الاضطرابات في فلسطين على أشدها بعد وعد بلفور، وكانت الاصطدامات المسلحة بين العرب والإنجليز من جهة، والعرب واليهود من جهة أخرى، وفي خصم هذا النضال الوطني ضد الاستعمار والهجرة اليهودية وإبان الثورة الوطنية الفلسطينية العارمة.

ولد محمود الدسوقي في قرية الطيبة قضاء طولكرم عام 1934 ودرس الابتدائية في قريته، وأكمل دراسته الثانوية في مدينة الناصرة عام 1955، ثم التحق بالجامعة في تل أبيب ونال إجازة بكالوريوس في علم الاقتصاد عام 1970.

أما عن والد الدسوقي الشيخ مصطفى فقد كان مثقفاً متفهماً في أمور الدين، ومتمكناً من اللغة العربية، درس في الكتاب، فكان بارزاً بين تلاميذ مجموعته، فاختير للدراسة في الأزهر الشريف على نفقة الحكومة، وأخذ والده يعد لإرساله إلى الأزهر لإكمال دراسته، إلا أن الظروف حالت دون ذلك، إذ كان ما يسمى «سفربرلك» فأجبر والده على التطوع في الجيش التركي إبان العالمية الأولى، فذهب ولم يعد، فحال ذلك دون تحقيق أمنيته في إكمال دراسته في الأزهر الشريف.

لكن الشيخ مصطفى كان يأمل أن تتاح له الظروف للالتحاق بالأزهر، فحفظ القرآن وتفايسره، وطالع كتب الأدب والشعر، وكانت مكتبته زاخرة بالكتب الدينية والأدبية والنحو والشعر وغيرها من الكتب القيمة.

وقد نشأ محمود الدسوقي في أحضان أسرة ميسورة، فأخذ عن والده العلوم تارة وقلب صفحات الكتب القيمة في مكتبته تارة أخرى.

كان محمود يتردد على ديوان العائلة في ساعات المساء ليسمع علياً الذي كان يجلس في صدر الديوان كل ليلة، يلتف حوله الكبار والصغار، يسمعون منه شعراً جميلاً عن سيرة الزير سالم وأبي زيد الهلالي وقصص ألف ليلة وليلة، فكان محمود يجلس مصغياً متحمساً يعيد ما يسمع، فحفظ بعضاً من هذه الأشعار الحماسية فاستهوته، وتمنى أن يحصل على هذه الكتب ليحفظها عن ظهر قلب، فكان له ما أراد، وكان إذا غاب عمه أو تأخر عن الديوان ينوب عنه في إشباع رغبات الحاضرين المتهلفين لسماع القصص الشعرية الحماسية المسلية المثيرة للإعجاب.

حفظ محمود هذه الأشعار عن ظهر قلب، ورددتها عشرات المرات، فازدادت عنده الرغبة في الدراسة والحفظ، فاطلع على سيرة عدد من الشعراء، فاستهواه شعرهم، فحفظه، وأعجب بشعر المتنبي وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم متأثراً بشعرهم. وبعد نكبة عام 1967 اطلع على شعر إبراهيم طوقان وعبد الكريم الكرمي وهارون هاشم رشيد وعبد الرحيم محمود وغيرهم.

أنهى الدسوقي دراسته بعد نكبة 48 بعام واحد، وكان المثلث قد ضم للدولة اليهودية كذلك ضمت قريته في ذلك العام، فطردت عائلته وأقاربه من بيوتهم لقربها من الحدود، فأصبحوا لاجئين في قريتهم ووطنهم.

أعجب والد محمود بذلك وفطنة ابنه أثناء الدراسة الابتدائية، وإذا كانت الظروف قد حالت بينه وبين تحصيله العلمي بالأزهر، فإنه لا بد أن يرسل ابنه لإكمال تحصيله العلمي مهما كلف الأمر.

لكن كيف؟ وأين؟ فما من مدرسة ثانوية في المثلث المحتل كله، وكان الطلاب المتفوقون في مدرسة الطيبة الابتدائية يكملون دراستهم الثانوية في مدينة طولكرم أو مدينة قلقيلية، وقد حدث انقطاع عن هاتين المدينتين بسبب الاحتلال.

لكن الحدود لم تغلق، ولم يكن باستطاعة الاحتلال أن يغلقها إغلاقاً كاملاً، فتوجه والد الدسوقي الشيخ مصطفى إلى طولكرم، وعاد ليؤلف لابنه بشرى التحاقه بالمدرسة الفاضلية الثانوية، فانتقل إليها، وأنهى الصف الأول الثانوي وفضلاً من الصف الثاني الثانوي، ولسوء حظه أثناء عودته من المدرسة إلى قريته عام 1951 لقضاء العطلة الشتوية وقع كمين لحرس الحدود، وضرب ضرباً مبرحاً، وأودع السجن بدائرة الحاكم العسكري في القرية، فانقطع عن الدراسة لأن الحكم كان قاسياً، وأن تكرر الأمر سوف يواجه السجن سنوات.

لقد كانت أولى المحاولات لنظم الشعر عند الدسوقي في غياهب السجن، فكتب قصيدة بعنوان «طير في قفص» يقول فيها:

أمسكوني.... وبالسجن وضعوني

ويدون ذنب ضروبني

ومنى أرادوا.... عذبوني

لأقول شيئاً، مجرماً هم يحسبوني

لأعيش حراً أنهم قد ضيعوني

كنت في الماضي طليقاً

لست أدري ما القيود

متقلاً حيث أريد

وأبتغي العيش الرغيد

مغرداً ملء الفضاء

وأملأ الكون نشيد

لا أعرف القيد.... ولا الظلم

ولا عبر الحدود

ولسوء حظي.... أمسكوني

كبلوني بالحديد

خرج محمود عام 1951 في شهر آذار من السجن حائراً، فالحكم الجائر منعه من إتمام دراسته الثانوية، فانقطع عن الدراسة، ولكنه لم ينقطع عن القراءة، وجاء فرج الله، وكانت البشرية السارة عند عودة أخيه الأكبر محمد الذي كان يدرس في إحدى قرى المثلث الشمالي، حيث تسوقه الأقدار لزيارة مدينة الناصرة،

ويرى لافتة كتب عليها المدرسة الثانوية البلدية، وبدون تردد دخل المدرسة، وعاد ليزف لأبيه وأخيه بشرى العودة من المنفى... فالتحق محمود بالمدرسة الثانوية البلدية فرحاً مسروراً بعد انقطاع دام سنتين، نظم خلالها عدداً من القصائد الشعرية.

وشاءت الأقدار أن تجمعهم مقاعد الدراسة بعدد من الطلاب الشعراء، ومنهم الشاعر راشد حسين، فتوثقت بينهما عرى الصداقة، ولحسن الحظ كان يدرس في نفس المدرسة أستاذ يحب الشعر والشعراء وهو الأستاذ ميشيل حداد، فأصدر هذا الأستاذ كتاباً أسماه «ألوان» من شعر العربية في إسرائيل، وهذا الكتاب يضم شعراً لعدد من الشعراء منهم صاحبنا، وكان هذا أول شعر مطبوع يصدر للشاعر الدسوقي وهو ما زال على مقاعد الدراسة.

كانت الناصرة المدينة العربية الوحيدة التي لم ينزح عنها سكانها أيام حرب 1948 فغدت خلال بضع سنوات مركزاً للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية لعرب الأرض المحتلة.

وكان العرب يرزحون تحت نير الحكم العسكري والاضطهاد القومي وسلب الأراضي وغيرها من القوانين التي كانت تهدف إلى تفرغ البلاد من سكانها الأصليين..... فكان لا بد من النضال الوطني والكفاح، وكان الحزب الشيوعي..... الحزب العربي اليهودي الذي كان الدسوقي عضواً للمكتب السياسي في ذلك الحزب يومذاك _ كان هذا الحزب يقود كفاح الجماهير، وكانت صحافته الوحيدة تصدر أسبوعياً باسم الاتحاد، فقد كانت منبراً سياسياً وصرحاً كبيراً وموثلاً للثقافة والأدب العربي الملتزم.

انتقل شاعرنا إلى مدينة الناصرة، فأحدث هذا الانتقال هزة عنيفة في نفسه وتفكيره فآثر به ما كان يسمع ويقرأ ويرى، فقد شارك في المظاهرات والمسيرات، فكان لهذا كله تأثير كبير على توجهه السياسي وشعره، فأوقد الحماس والوطنية في نفسه، فيقول من قصيدة موكب الأحرار:

أدين بحلم الشعب لا دين غيره فيا موكب الأحرار فيك أدين
ويا موكب الأحرار إني مقيد كذلك شعبي للقيود رهين

وهكذا كان لانتقال من القرية للمدينة، بالذات مدينة الناصرة، تأثير كبير على مجريات حياته السياسية والأدبية، فتأثر بالأحداث، وأثر بها بقصائده الوطنية، فاعتقل وسجن مرات عديدة، وشارك في عدد من التنظيمات والجمعيات للدفاع عن شعبه بالجبهة الشعبية، ولجنة الدفاع عن الأراضي، وحركة الأرض، وجمعية أنصار السجن، وغيرها من الحركات والجمعيات الوطنية.

وكان من مؤيدي الناصرة، وقد فرض عليه الحصار الاقتصادي والإقامة الجبرية في قريته لعدة سنوات، وهاجمته الصحف العبرية هجوماً عنيفاً، وترجمت قصائده للعبرية للتحريض عليه، وعندما أصدر ديوانه موكب الأحرار عام 1963 سارعت السلطات العسكرية على مصادرتة واعتقال الشاعر وتقديمه للمحاكمة بتهمة التحريض على الدولة؛ حتى أن اسمه وشعره بحث في البرلمان الإسرائيلي «الكنيست» وطالب النواب باعتقاله وسجنه، وكان ذلك عام 1961 عندما دخل كفر قاسم متسللاً، وهي منطقة عسكرية مغلقة وقاد أول وأكبر مظاهرة عرفتها القرية احتجاجاً على المجزرة الرهيبة.

وفي عام 1970 عندما نشر في جريدة القدس «أنا عربي فلسطيني» ودعا بها إلى تحرير القدس بقوة، فنشرت الصحف الإسرائيلية ترجمتها بعدة لغات، وكانت هذه دعوة مبطنة لإلقاء القبض على الدسوقي، ومحاكمته وكان الشاعر الدسوقي أكثر شعراء الأرض المحتلة تلاحماً مع الجماهير، معبراً عن آلامهم ومتغنياً بآلامهم « فقد كان كما يقال شاعر يخوض وسط المعركة»، فقد كان يلقي القصيدة ويقود المظاهرة.

وقعت على الشاعر الدسوقي نكبة عام 1967 وقع الصاعقة، فهو معروف بموافقة الناصرية وحبه لجمال عبد الناصر، فوقع عكس ما يفكر به ويتمناه، ولم يدر بخلده يوماً أن الأمة العربية سترفع العلم الأبيض في ست ساعات.

لكن ذلك لم يثبط من عزيمته بل زاد وطنيته اشتعالاً إذ أصبح الوطن كله محتلاً وأصبح مقاوماً، وأدرك أن المقاومة يجب أن تكون أكثر عمقاً وأشد ضراوة، وعرفت سلطات الحكم العسكري أثر تجول الدسوقي بحرية في المناطق المحتلة حديثاً، فأصدرت أمراً بمنعه من دخولها ووضع تحت المراقبة الشديدة، وقد استمر ذلك أكثر من خمسة عشر عاماً لاعتباره خطراً على أمن الشعب والدولة الإسرائيلية، وكانت تجدد الإقامة الجبرية سنوياً، وظهر ذلك جلياً في شعره، فقال من قصيدة «بلغ أي خطر»:

بلغ.... أي خطر
أمن الجمهور أهده
بلغ لا أرهب تهديدا
فالحكم الجائر موعده
ليل... والفجر سيبتعه
والشمس ستشرق تسعده
بلغ من شئت فلن أرضى
بالظلم وحكم يسنده

تابع الشاعر الدسوقي أحداث الضفة والقطاع عن كثب، وكتب الشعر متأثراً بما ينشأ من أحداث مؤلمة على صفحات الجرائد والمجلات، فكتب موجهاً كلامه للسجناء والمعتقلين فيقول:

أخي اعتقلوك....
للتحقيق لا ترهب
ولا تخشى القيود... السجن
إن السجن لا يرهب
فإن السجن للأحرار
لا تيأس ولا تغضب

وكانت حرب لبنان، فأثرت أحداث صبرا وشاتيلا تأثيراً كبيراً على الشاعر، فأوحى له هذه الحرب وتلك المجازر عدداً من القصائد ضمها في ديوان شعر سماه «صبرا وشاتيلا» وفي أحد هذه القصائد هاجم الحكام العرب والأمة العربية التي تقف متفرجة عن بعد فيقول من قصيدة «عرس البطولة والصمود»:

يا أرض لبنان شعبي النار تحصده كم يستغيث فمّن يأتي وينجده
الحزبي والعار يا للعار من أمة صفقت للذل تحمده

وقد أذيعت قصائده من صوت فلسطين في دمشق، وكان يلقيها يوسف الخطيب وقد قام الخطيب أيضاً بنشر نماذج منها في «ديوان الوطن المحتل» كما كتب عنه غسان كنفاني في كتابيه أدب المقاومة في فلسطين المحتلة، وكتاب الأدب المقاوم تحت الاحتلال، كما كتب عنه صالح أبو أصبع في كتابه «الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة».

لقد شارك الدسوقي في عدد من الندوات الشعرية خارج الوطن المحتل: في بلغاريا وبلجيكا، وتركيا، والقاهرة، كما شارك في عدد من المؤتمرات العالمية لنصرة القضية الفلسطينية في فينا وجنيف وقبرص.

أهم أعمال الدسوقي:

الدسوقي أحد الشعراء الفلسطينيين المخضرمين الذين عاصروا قضية فلسطين منذ بدايتها وحتى يومنا هذا، وكان شعره مرآة عاكسة للواقع الفلسطيني المؤلم، فجاء شعره ترجمة للأحداث التي واجهتها الأمة العربية عامة والفلسطينيون خاصة، فكان شعره من الشعب وإلى الشعب، يتغنى بأمالهم، وينطق بلسانهم، فكان الشعر بالذات هو رائده في هذا المجال، لذا فقد كثرت دواوينه الشعرية التي كانت تجسد أهم أعماله وأكثرها.

أهم دواوينه الشعرية:

1. ديوان موكب الأحرار
2. وديوان جسر العودة
3. ديوان مع الأحرار
4. وديوان ذكريات ونار
5. ديوان صوت الانتفاضة
6. ديوان صبرا وشاتيلا
7. ديوان زغاريد الحجارة
8. وملحمة طير أبابيل.

وينوي الشاعر أصدر ديوان جديد اسمه الركب العائد، وكذلك مسرحية شعرية بعنوان الغرباء، كما كان يعد كذلك لإصدار مجموعة من القصص القصيرة وقصة طويلة بعنوان المجزرة الرهيبة. وأصدر كتاب الوافي في العروض والقوافي، وكتاباً عن كارل ماركس، وللشاعر كتاب عن عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، وللشاعر أيضاً مقالات أدبية وثقافية عديدة. والشاعر الدسوقي أول من دعا لإقامة اتحاد كتاب في الأرض المحتلة، وشغل منصب سكرتير رابطة الكتاب والشعراء الفلسطينيين في الداخل، وهو عضو في المكتب السياسي للحزب الديمقراطي العربي.

الاتجاه القومي والوطني في شعر محمود دسوقي

لم يكن الشعر القومي/الوطني غرضاً مألوفاً لدى الشعراء، إذ أن مفهوم الشعر لم يكن يعدو في ذهنهم ما توارثوه من الأغراض التقليدية، ولم تظهر بوادر الشعر القومي إلا في أواخر العهد التركي، فقد كان الشعر القومي يعبر عن أماني وآمال الأمة العربية وما تتطلع إليه من تحرر واستقلال، وكان الشعر الوطني محصوراً بقطر صغير من هذا الوطن الكبير، ولذا فإن المدلول القومي للشعر أوسع وأعمق من مدلول الشعر الوطني، لكن لا نستطيع أن نفصل فصلاً تاماً بين الشعر القومي والشعر الوطني، فالواحد منهما يكمل الآخر.

«وقد وجد الإنسان العربي في الأدب صدى وجدانه وحياته وواقعه، وبذا استجاب الأدب العربي الحديث على اختلاف فنونه لهذا التطور الخلاق في النفس العربية النزاعة إلى الواقع: فكان شعرٌ اجتماعي وقومي ووطني يشكل أبرز ظاهرة فنية في نتاجنا الأدبي الحديث، وكانت مصر والشام والعراق مبعث الحركة الفكرية والأدبية وموئل الشعر القومي»⁽¹⁾.

وإذا كنا نعتبر أن الشعر مرآة العصر.... والشعر من الشعب وإلى الشعب وأن الشاعر يجب أن يخوض معترك الحياة مع شعبه، يصور آلامه ويتغنى بأماله.... وبذلك كانت القضية القومية والوطنية من أبرز الأغراض في أدبنا الحديث، خاصة قضية فلسطين قضية العرب الأولى.

لعل من أبرز شعراء العربية في هذا القرن الذين مزجوا بين القومية والوطنية فيشعرهم إبراهيم طوقان فقد نظم قصائد قومية ووطنية رائعة... فنشيد موطني أذاع صيته في الأقطار العربية كافة.

«ومن أبرز هؤلاء الشعراء محمود دسوقي فهو يعد في أكثر شعراء فلسطين المغتصبة تجاوباً مع الأحداث العربية، فقد غنى للجماهير على مدار سبع سنين ملاحم الثورة، وله قصيدة عن رجاء أبي عماشة وأخرى من نادية السلطي».

إن هذا الشاعر قد آمن بالوحدة العربية، وتغنى بها، كما تغنى بثورة مصر والعراق واليمن وليبيا، لأن إيمانه العميق بعودة الحق إلى أصحابه الشرعيين لا يتحقق إلا بتحرير الأقطار العربية ووحدتها»⁽²⁾.

إن الشعر في الأرض المحتلة كان أكثر تجاوباً مع المشاكل القومية دفاعاً عن الحق ومقاومة الباطل والوقوف بوجه محاولة اقتلاع العرب من ديارهم ووطنهم وتشريدهم أو تحويلهم إلى لاجئين داخل ووطنهم المحتل.....

وكان الدسوقي أكثر شعراء الأرض المحتلة تجاوباً مع الأحداث، فقد كان كما يقال عنه «شاعر يخوض وسط المعركة» يلقي القصيدة ويسير في طليعة المظاهرات رافعاً لواء الكفاح مع شعبه، لا يهرب السجون والتعذيب» فيقول من قصيدة «العملاق الثائر»⁽³⁾:

قسماً بمن روى الثرى بدمائه قسماً بمن طاف البقاع مشردا
قسماً بمن اتخذ الخيام منازل كم ظل فيها صابراً متجعدا

فيها يعيش وكم بيت على الطوى
قسما بأعواد المشانق إنني
ويظل بالعيش النكيد مهددا
لن أرهب القيد البغيض ولا الردى

ويرى الدسوقي أن الوحدة العربية آتية لا محالة، وأن الدين لله والوطن للجميع، يقول من قصيدة «بصيص من نور»⁽²⁾:

ستجمعنا رغما عن العدى
تتشع سحب القيم عن أرض العرب
فلا فرق في دين ولا أي مذهب
ففي راية القرآن هدي ورحمة
وأهدافنا أحلامنا تتحقق
وتبرغ شمس العرب في الشرق تشرق
فما دخلها الأديان، بالضاد تنطق
وفي راية الإنجيل نور تدفق

ويقول من قصيدة «خلد الكفاح» مهداة إلى أبطال الجزائر إبان ثورتهم على الاستعمار الفرنسي⁽³⁾:

خلد الكفاح وذكره سيخلد
وجبال أوراس الأبية يومها
سبع خلت أيامها محمرة
ودم الشهيد على البطولة يشهد
يوم يقوم له الدخيل ويقعد
والدم يجري والثرى متورد

ويقف الشاعر الدسوقي، وبدعوة من لجنة الدفاع عن الأراضي التي هو عضو فيها، ليلقى قصيدة وطنية رائعة دفاعا عن الأرض عام 1961 بعنوان «أمننا الأرض» يقول فيها: (4)

الأرض أرضي والبلاد بلادي
أروت دماء أبي وأمي غرسها
وقرورها بنيت منازل قريتي
مضت الحياة بها وكانت جنة
مهما بعدت فحبها بفؤادي
وبها تغنى قبلهم أجدادي
حطين تحكي سالف الأمجاد
أترى تعود ويطمئن فؤادي

وقد اعتبر العرب داخل الخط الأخضر أنفسهم جزءاً لا يتجزأ من الشعب العربي الفلسطيني، رغم محاولة السلطات الصهيونية محو قوميتهم. لقد أكد ذلك الشعر الدسوقي بقصيدة «أنا عربي» (1) فلسطيني وهو يعبر بذلك ليس عن نفسه فقط، بل عن أبناء شعبه داخل الوطن المحتل. وحدثني الدسوقي بأن هذه القصيدة ما كانت في مضمونها سوى جواب لفتاة فلسطينية التقى الشاعر بها أثناء انعقاد مؤتمر الشباب في صوفيا عام 1968. ومنها يقول:

وتسألني والاستغراب باد من محياها
من إسرائيل! نعم عربي
وهل تنسى... فلسطين
نعم عربي فلسطيني
ورغم قساوة المأساة
ليس البعد ينسيني
أنا عربي فلسطيني

وفي هذه القصيدة يخاطب الشعب العربي ليفيق من سباته، ويحرر الأقصى وقبة الصخرة مهما كلف ذلك من تضحيات فيقول:

أفق يا شعبي العملاق
أفق قم حطم الأقدار
ولا تخش الدم المهرق
حقق عودة الدار
سترجع رغم كل حدود
سترجع رغم الاستعمار
لتحمي قبة الصخرة
وتحمي حرمة القدس
وتحبي مجدنا الضائع
يظل اليوم والأمس
على جبل يناديني
فلسطيني... فلسطيني

كان لهذه القصيدة صدى كبير في الأجواء العربية والإسرائيلية على حد سواء، حيث إنها، كما ذكر الدسوقي، أقامت الدنيا ولم تقعد لها عندما نشرت في صحيفة القدس.

وقد هزت أحداث لبنان الشاعر الدسوقي من الأعماق... شعبه الذي شرد من وطنه وأصبح يهيم على وجهه، يسكن في المخيمات تقصفه الطائرات، ويذبح أبناؤه ذبح الخراف، والأمة العربية، على حد تعبير الشاعر، تنام نومة أهل الكهف، وإن العرب يحررون الوطن بالكلام والشعارات مما حدا به إلى كتابة «قصيدة واعرباه»⁽¹⁾ يقول فيها:

السيف أصدق أنباء من الخطب
وعد لتاريخنا أن البطولة في
ودينا مذ أتى الهادي بثورته
وهل الكون والدنيا لعزته
حطين تذكر والأروام شاهدة
وفي الجزائر والأوراس ذاكرة
إلى متى يا بني قومي سباتكم
الغير يبنيني ويقضي العمر في نعم
يا حادي العيس بلغ قادة العرب
إجادة الكر لا في كثرة الخطب
وأشرق الكون بالأنوار والشهب
لم يخلد الدين بين اللهو واللعب
وبور سعيد سمعت من جيشنا اللجب
تحقق النصر بين النار واللهب
أينعم النوم والأقصى بمغضب
ونحن ننعم بالألقاب والرتب

كما صور الشاعر حالة القدس بعد الاحتلال، ويقول في مقدمة قصيدته «رسالة من القدس»⁽²⁾: لست أدري لمن أهدي هذه القصيدة؟ أحماء العروبة أم لحماء الإسلام، من أقصى ينادي ويستغيث... والمهد يئن ويستجير... لكن لا مجيب، فلا حياة ولا مجبر لمن تنادي ثم يقول:
القدس يا عزيزتي كئيبة حزينة
قد خيم الظلام في ربوعها وطافت السكينة

كما يصور الشاعر تصويراً دقيقاً الصراع بين أبطال الحجارة وجنود الاحتلال والخطط العسكرية التي يدبرها المثلثون للإيقاع بالجنود، فيقول من قصيدة «زغاريد الحجارة»:

دقت الطبول.... ومر في المكان ملثم مجهول
وصاح من بعيد.... مناضل يقول
احضروا السلاح
ويسمع الأذان... حي على الفلاح
وتبدأ الإشارة.... وطاف في المكان يلثم الحجارة
يراقب الصباح
ويبدأ الصغير.... ويهرع الجنود
ملثم خطير.... ويبدأ الهجوم
ويلعن النفير... ملثم يروح
يراقب الجنود... ملثم يعود

ويصور الشاعر كيف دارت المعركة بين أفراد الكمين وأفراد الجنود، فيهزم الجنود وتعطى الإشارة عند انتهاء المعركة، فيقول الشاعر يصور هذه الأحداث:

ويلعن الأذان.... حي على الصلاة
 ويفهم الإخوان.... نهاية الطغاة
 ويفهم الإخوان.... نهاية الخطر
 ويخرج الرجال.... للسهل للقمم
 ويخرج الأطفال.... الظالم انهزم
 تزغرد النساء.... ويرفع العلم

ومما هو جدير بالملاحظة أنه لو أمعن النظر بدواوين الشاعر الدسوقي كلها لوجد أنه التزم خلال مشواره الطويل مع الشعر والقضية القومية.

كما التزم بالقضية الوطنية لأنه يرى الوطن الصغير جزءاً من الوطن الكبير، وأن الوحدة العربية لا بد أن تتحقق، أن الشعب العربي الفلسطيني في الأرض المحتلة جزء لا يتجزأ من الأمة العربية، ولا بد لهذه الأمة من أن تفيق من سباتها وتعيد وحدتها ولا بد للوطن السليب أن يتحرر.

القدس يا عزيزتي.... إلى متى
وتسأليني.... يا أخي إلى متى
ويصعب الجواب
القدس يا عزيزتي تئن.....
قد خيم الظلام في ربوعها
وعشعش الغراب

هذه القصيدة وغيرها من القصائد ذوات المضمون الوطني والقومي توضح أن الشاعر الدسوقي اختار طريق الكفاح مع شعبه، فهو يعد في أوائل من كتب شعر المقاومة في الأرض المحتلة عام 1948.

وقد ذكر الشاعر الدسوقي أن نكبة عام 1967 قد هزته من الأعماق، وزادت همومه وبالتالي أصبح في حيرة من أمره.... ويصور حالة أبناء شعبه الذين مضى على وقوعهم في الأسر قرابة 20 عاماً، يلاقون من المحتل اصناف الذل والهوان.... أم يصور هموم شعبه الذي دخل الأسر حديثاً، يشاركه أحزانه، ويصور حاله ومآسيه.

وعمد الاحتلال إلى تفرغ الأرض من سكانها، فوقعت المجازر، وامتألت السجون.... وكانت الانتفاضة، فأصدر ملحمته الشعرية «طير أباييل» ملحمة البطولة والصمود، كما أصدر ديوان صوت الانتفاضة، واتبعه ديوان آخر «زغاريد الحجارة»، وقد صور الشاعر الدسوقي أروع تصوير أحداث الانتفاضة، وصور مجازر الاحتلال، ومجد الشهيد وأم الشهيد وأطفال الحجارة ومجزرة الأقصى، ومجزرة الحرم الإبراهيمي وغيرها من الأحداث، صورها تصويراً رائعاً «وقصيدة أم الشهيد»⁽¹⁾ من أروع قصة حيث يقول فيها:

ام الشهيد تحية وثناء	درب الكفاح وقوده الشهداء
درب الشهيد مع البسالة	ومع الفداء قصيدة صماء
ولنا بماضينا المجيد منارة	حطين خلد يومها العظام
ولنا بام الصابرين لأسوة	يكفي فخاراً أمنا الخنساء
لن ترجع الأرض السليبية والحمى	حتى يغطي أرضها الشهداء.

ويقول أيضاً من قصيدة (غدا يطلع الفجر)⁽²⁾ مخاطباً أطفال الحجارة:

يا صغيري.... ابتسم
ما زالت يا والدي لنا رمز الطهارة
يا صغيري.... ابتسم
فالنصر يا ولدي لأطفال الحجارة
مهما ادلهم الخطب.... يا ولدي
وطال الانتصار
مهما يطول الليل.... يا ولدي
سيبتعه النهار

الاتجاه السياسي في شعر محمود دسوقي

دخل الشاعر في معتزك الحياة السياسية أثناء دراسته القانون في الناصرة حيث شارك في المظاهرات والمسيرات والاجتماعيات، وكانت الناصرة مركزا هاما للنشاط السياسي والاجتماعي والثقافي، إذ أن أهم المسائل التي شغلت الرأي العام العربي في الأرض المحتلة عام 48 إضافة إلى الحكم العسكري وسلب الأراضي، كان التمييز العنصري.

من هنا كان إيمان الشاعر كبيراً بحق شعبه بالعيش على أرضه وفي وطنه حراً كريماً وعلى هذا الشعب واجب مقاومة القوانين الجائرة التي فرضتها عليه سلطات الدولة المحتلة ولو أمعنا النظر في مواقف الشاعر السياسية لوجدناها تتمثل بالمطالبة بالمساواة والعدالة والغاء الحكم العسكري وقوانين سلب الأراضي وغيرها من القوانين التي فرضتها سلطات الاحتلال على ما تبقى من الشعب العربي الفلسطيني في وطنه، كما دعا الشاعر الدسوقي للسلام العادل وإقامة دولة فلسطينية مستقلة على أرض فلسطين العربية.

لقد أثرت هذه المواقف السياسية على الشاعر وفي شعره، فطغى الشعر السياسي على الأغراض الأخرى في شعره، ويلاحظ ذلك جلياً في أشعاره وفي أسماء دواوينه الشعرية⁽¹⁾. ففي مقدمة ديوانه مع الأحرار يقول: «إخواني الأحرار، ها أنا اليوم أقدم لكم مع الأحرار شعرا ينبثق من صميم الواقع، معبرا عن كفاحنا في سبيل حياة حرة كريمة، ونضالنا من أجل مستقبل زاهر ينتظرنا، لا سيد فيه ولا مسود... مع الأحرار في بلادنا، وفي شرقنا، وفي جميع أنحاء العالم.....»⁽²⁾

ومما سبق نجد من خلال هذا الخطاب الذي صدر به ديوانه «مع الأحرار»، أن همه الوحيد كان أن يعيش مع شعبه حراً كريماً في وطن آبائه وأجداده، فيقول في مقطوعة شعرية بعنوان «إباء»:

قضيت العمر أقبع في سجون
فلن أرضى بعيش الذل حتى
أفل بساعدي أغلال شعبي
أعيش بموطني حراً كريماً

ويقول في قصيدة أخرى بعنوان «السجن والكفاح»⁽¹⁾:

ثوروا على الظلم والطغيان واتحدوا
سيروا نحطم قياداً علاه صدى
مرت سنون على الأوطان حالكة
دافيد فكرت أن السجن يرهبنا لن

ويلخص لنا الشاعر الدسوقي دور الشاعر والشعر في المعركة الدائرة بين الحق والباطل، ودور الشاعر والعربي في درب الكفاح الطويل الشاق، وهو يؤكد على كرامة الإنسان وأن العيش بدون كرامة ذل وهوان لا يقبل به الكرماء، فكيف يقبل به الشعراء، فيقول في قصيدة طويلة بعنوان الشعر «على درب الكفاح»⁽²⁾:

طاب اللقاء وأبدع الشعراء
والعيش من غير الكرامة ذلة
أنا من بحور الشعر صغت ملاحما
وصنعت من لهب القصيدة شعلة

والشعر في درب الكفاح لواء
والذل بأبي عيشه الكرماء
أضحى نسيج فصولها الشهداء
يخشى لظاها طغمة جنباء

وينتهي قصيدته بقوله:

سجل: دم الشعراء فوق أكفهم
للشعر إن عز السلاح أسنة
ما خفقت يوماً أو خنعت لظالم

فالعمر للوطن السليب فداء
وخناجر للغاصبين دواء
فالحق ليس يعيده استجداء

إن الشعر السياسي يعبر عن ضمير الشاعر، وعن ضمير شعب بأكمله يعاني تحت الاحتلال، ويقاوم قوانينه الجائرة بالوسائل المتاحة له، تيمنا بالحديث الشريف «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، وإن لم يستطع فليسه، وإن لم يستطع فليقلبه، وذلك أضعف الإيمان». أما يده، على حد ما ذكر، فهي مغلولة لا يستطيع أن يحركها، فالأمة العربية كلها من حوله خذلت وتخلت عنه، فقاوم الشاعر الظلم بقلمه ولسانه، حاثاً أبناء شعبه على الثورة ضد الظلم والاضطهاد وسلب الأرض.

وشارك الشاعر شعبه إضرابات يوم الأرض، وصور أحداث يوم الأرض في قصيدة «حببتي الأرض» إذ يقول فيها:

رويدك أرضي فلا تخزني
سأروي بدمي سفوح الجبال.
سأروي السهول.... سأروي التلال
وركب الضحايا.... كهول
شباب.... نساء.... رجال
لحبك ضحوا... لأجلك ماتوا
لنصنع الحال

ولم ينس الشاعر سجناء الحرية من أبناء شعبه، فهو نفسه كان مرات عديدة من نزلاء السجون بسبب مواقفه الوطنية، فيقول مخاطباً أبناء شعبه سجناء الحرية في قصيدة «يطلع الفجر»⁽¹⁾:

لا تبك.... أخي لا تبك
والعنح ظك المنكود

الالتزام في الشكل والمضمون في شعر الدسوقي

لقد التزم الدسوقي بقضايا شعبه ووطنه، ودافع عنها، والتزم بقضية شعبه داخل الخط الأخضر وقضية شعبه المشرّد الذي رحل عن وطنه.

لقد التزم فلسطينية المعركة، ومعركة المصير، التزم بالقومية العربية ووحدة الشعوب العربية، ودافع عنها، والتزم بالسير على طريق الكفاح مهما كان طويلاً وشاقاً، والتزم بالمشاركة الفعلية في المعارك النضالية التي خاضها شعبه داخل الخط الأخضر وخارجه بعد نكبة عام 1967.

التزم الدفاع عن الأرض التي كانت وما زالت محور النضال، ضد تهويدها، فيقول من قصيدة «أمنّا الأرض»⁽¹⁾:

الأرض أرضي والبلاد بلادني	مهما بعدت فحبها بفؤادي
أروت دماء أبي وأخي غرسها	وبها تغنى قبلهم أجدادي
وبقرها بنيت منازل قريتي	حطين تحكي سالف الأمجاد

وأمن الشاعر بالوحدة العربية وأن الحدود المصطنعة هي من صنع الاستعمار، ولا بد من زوالها، وعندما قامت الوحدة بين مصر وسوريا التي رأى بها مفتاح الحل لقضية شعبه ووطنه راح يقول من قصيدة «الوحدة العربية»⁽²⁾:

وحدة العرب فيها كت أنتظر	وسوف نبقي بهذا اليوم نفتخر
حلم تلقفه الأجيال من صغري	وذلك الحلم يوماً كاد يندثر
فأرسل الله من يحيي لنا أملاً	فأصبح الحلم بالأعماق يستعر

وتغنى بالثورات العربية ضد الاستعمار، ومن أجل الاستقلال، وأدرك أن الاستعمار هو سبب مأساة فلسطين، وأن التحرر من الاستعمار والتخلص منه هو خطوة على طريق الخلاص من الاحتلال والتشرد.

ويقول من قصيدة مخاطباً فيها ثورة اليمن «قصيدة عيد النصر»⁽³⁾:

صنعاء قدما قد بلغت منك	فالشعب في الوطن الكبير فذاك
يا من دككت على الطغاة عروشهم	وأزلت عهد الرجس من دنياك
صنعاء شعبك فوق أرضك ثائراً	يا بني حياة الذل فوق ثراك

وعندما تفجرت الانتفاضة تغنى الشاعر ببطولات وصمود شعبه، وقد حث الشاعر أبناء شعبه على الصمود والاستشهاد في سبيل الدفاع عن الأرض والوطن، ومن أجل التحرر والاستقلال، فقال من ملحمة «البطولة والصمود»⁽¹⁾:

وان جار الزمان عليك
وضمّك السجون السود
فلا تبك... ولا تحزن
فشعبك صامد دوماً
فاصمد لا تهب شيئاً
غداً... يا... يطلع الفجر

افتح ذراعك يا ابن شعبي للرصاص وللشهادة
واصمد بأرضك في المزارع والمتاجر والعبادة
واصمد أمام الغاصبين مقاوما خطر الإبادة
خلد فلسطين التي أحبتها حتى العبادة
اصمد بأرضك لا بديل عن التحرر والشهادة

انه التزام ظاهر بالقضايا العربية والقومية والقضايا الفلسطينية، وقد رافق هذا الالتزام الشاعر خلال هذه المرحلة الطويلة من إنتاجه الشعري حتى اليوم.

إن الشاعر لم يلتزم فقط بالقضايا السياسية والوطنية بل نلاحظ من دراسته أنه التزم بالقضايا الاجتماعية، فهو يرى ضرورة التحرر من التقاليد والعادات البالية التي لا تمت إلى الدين بصلة، فكتب عددا من القصائد، وشارك في ندوات عدة، دعت لها لجان المرأة.

وعندما هاجمت إحدى السيدات، في مقال نشرته، هاجمت الكتاب والشعراء لعدم وقوفهم بجانب المرأة في قضيتها العادلة، نظم لها الشاعر قصيدة بعنوان «إلى التي تعبر الشعراء بعدم مناصرتها»⁽²⁾ يقول فيها:

نظمت قصيدا صيغ درا وجوهرا
هجوت هجاء لست أرضى سماعه
فكلا ورب العرش ما كنت ناكرا
وأعمل ما أستطيع أو فوق طاقتي
فما لك في وعد وأن كان صادقا
ولكن معنى القول ناء عن الصدق
وهذا الهجاء المرينكوه ذوقي
لحقك بل أبقى عليه نعم أبقى
لكي أنصف المظلوم أو منصفا حتي
بغير نصير من بني الشعب والعرق

فمن خلال أبيات هذه القصيدة نرى أن الشاعر التزم بالدعوة إلى النهوض وتحطيم القيود، ويخاطب المرأة مطمئنا إياها بأنه إلى جانبها إيمانا منه بأن الأمة لن تسير في طريق التقدم والرقى إذا كان جناحها الأيسر مشلولاً، في عصر حلقت فيه المرأة في عنان السماء.

التوثيق في شعر محمود دسوقي

من خلال مطالعتي لمعظم دواوين الشاعر محمود دسوقي وجدت أن شعره يعتبر سجلاً تاريخياً للأحداث العربية والفلسطينية، تتسلسل فيه بحسب تاريخ وقوع هذه الأحداث، فهو لا يكاد يترك كبيرة ولا صغيرة إلا عالجهما شعراً، فكان شعره مرآة تعكس الأحداث وتصورها، فيعيد إلى الأذهان أحداثاً ومناسبات ربما يسجلها التاريخ وربما يهملها - فالفترة التي شهدت بداية الشعر في حياته نراه يصور أحداث فلسطين... مأساة اللاجئين، المجازر وغيرها، كما نجد في دواوينه الشعرية سجلاً للأحداث العربية والثورات في الأقطار العربية.

وتعد قصائده هذه سجلاً توثيقياً للأحداث التي مر بها الشرق العربي، فيقول من قصيدة يصف بها أبناء شعبه الذين نزحوا خلال نكبة 48 بعنوان: بعد المأساة⁽¹⁾ «:

أيا ليلي برك أخبرينا
عن الأوطان ثم النازحين

وصور الشاعر مجزرة كفر قاسم عام 1956، وكان حصاها خمسين شهيداً - تصويراً شعرياً فيقول في قصيدة «مؤامرة مدبرة»⁽²⁾:

بالشعب حلت مجزرة
مجزرة مكدره
حلت بهم مصيبة
محزنة مؤثرة
خمسون شخصاً سقطوا
صرعى قتلك المجزرة

وعندما حدثت حرب لبنان، وحمل شارون على الجنوب اللبناني ظناً منه أن الشعب الفلسطيني سينتهي إلى الأبد، قال الدسوقي في قصيدة يخاطب فيها شارون بعنوان «ذكرى ومصير»⁽³⁾:

أنهر الدم يا شارون تفنينا
نساؤنا الغيد أطفالاً ستهدينا
مهما قتلت من الأطفال نرجعها
جحافلاً من بطون الغيب تأتينا
فكم طغى هتلر واشتد ساعده
اعد من جثث الأطفال صابونا
إن كنت تحلم... شعبي خالد أبدا
يوماً يعود ويحييها فلسينا

وصور الشاعر مجزرة الأقصى التي هزت أركان الشعب الفلسطيني فقال من قصيدة «سل الأقصى»⁽¹⁾:

سل الأقصى يخبرك الجوابا
فداء أو أنينا أو عتابا
وسل مهد المسيح فكم ينادي
يهز الكون أرضاً أو سحابا
ومن خلال هذه القصيدة أشار
الشاعر إلى حرب الخليج فيقول:
أيا ماء الخليج دم الأعادي
سيروي الرمل والأرض الخرابا
أيا دجلى اعد أمجاد شعبي
بعاصمة الرشيد العيش طابا

وعندما تم اتفاق غزة أريحا أولا، واستلام الشرطة الفلسطينية قطاع غزة ومدينة أريحا، ذهب الشاعر إلى غزة مهنتا، فوقف قائلا من قصيدة «رُفرف على الدار حرا أيها العلم»⁽²⁾:

رُفرف على الدار حرا أيها العلم	وسجل اليوم في التاريخ يا قلم
عادت وعدنا وذوي الأيام شاهدة	تحقق اليوم ما تصبو له الأم
عاشت فلسطين يا أرضي ويا وطني	فالطير يرقص والأشجار تبسم
عادت أريحا إلى الأوطان وانتعشت	أيام غزة فاحقق أيها العلم

وفي العيد الماسي لجامعة النجاح الوطنية، يوم كان لشعره دوره، وقف الشاعر في يوم الاحتفال وألقى قصيدة بهذه المناسبة بعنوان «العلم نور»:

العلم نور ونور العلم يأتلق	اقرأ فخلّك في الطين والعلق
بعلم والدين صنوان فلا عجب	من «النجاح» نسور العلم تنطلق
ويصل إلى نهايتها فيقول:	حتى يقال: ففي أحرارها ثقب
أليث في عيدها الماسي أذكرها	إلى النجاح ومن فيها ومن سبقوا
تحية من صميم القلب خالصة	

هذه القصائد، وهذه المواقف وغيرها، كثيرا ما وردت موثقة في شعر الدسوقي توثيقا تاريخيا دقيقا، وقد لا نغالي إذا قلنا إن الشاعر الدسوقي يقف في طليعة شعراء العالم العربي الذين اهتموا بهذا اللون من الشعر التوثيقي الدقيق.

المراجع

1. أهم هذه المصادر جميعا هو الشاعر الدسوقي نفسه.
2. غسان كنفاني، أدب المقاومة في فلسطين المحتلة عام 1948 إلى عام 1966 منشورات دار الآداب بيروت.
3. محمود دسوقي، ديوان موكب الأحرار، مطبعة الاتحاد حيفا 1963.
4. محمود دسوقي، ديوان جسر العودة، إصدار دار الفكر الجديد، الطيبة 1987.
5. عرفان أبو حمد، أعلام من أرض السلام.
6. الديار صحيفة أسبوعية 94/1/28.
7. محمود دسوقي، مذكرات شاعر - مخطوطة، معظم ما ورد عن حياة الشاعر مأخوذ منها.
8. الديار، صحيفة أسبوعية، الحزب الديمقراطي العربي 94/6/3.
9. محمود دسوقي، ديوان مع الأحرار، إصدار المطبعة الحديثة 1959.
10. محمود دسوقي، ذكريات ونار.
11. الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الرابع.
12. عمر الدقاق، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، إصدار دار الشرق حلب 1963.
13. محمود دسوقي، ديوان صوت الانتفاضة 1991.
14. محمود دسوقي، ديوان صبرا وشاتيلا 1983.
15. عادل أبو عمشة، شعر الانتفاضة، إصدار اتحاد الكتاب / القدس 1991.
16. محمود دسوقي، ديوان زغاريد الحجارة 1993.
17. محمود دسوقي، ملحمة شعرية، طير أبابيل، إصدار الفكر الجديد الطيبة 1988.

کتبوا فی محمود دسوقي

الالتزام والثورة في شعر محمود الدسوقي

إعداد

أ.د. يحيى جبر

أ. عبير حمد

ولد محمود مصطفى الدسوقي في بلدة الطيبة من أعمال طولكرم، سنة 1934م، وكان والده فقيهاً يتقن العربية، ويحفظ القرآن الكريم، وكانت له مكتبة تحتوي أعداداً كبيرة من الكتب، مما أتاح للشاعر فرصة الاطلاع على كثير من المصادر، وأسهم في صقل موهبته، ورفده بألة الشعر. وكان لأسرته ديوان يتردد عليه حيث كان يستمتع من حين لآخر لقصة الزير سالم وأبي زيد الهلالي، وبعض حكايات ألف ليلة وليلة، وكان لذلك، بحسب ما أخبرنا به، أثر كبير في تشكيل مخيلته الشعرية، وربط وجدانه بالتاريخ ربطاً وثيقاً، مما انعكس على انتمائه صدقاً وحرارة واضحاً في كل أعماله.

تلقى دروسه الابتدائية في الطيبة، ثم التحق بالمدرسة الفاضلية بطولكرم، ولكنه اعتقل وهو في طريق العودة إلى بلده عام 1951م، وأودع السجن، ولما أفرج عنه وجد آماله في مواصلة الدراسة قد تبددت، ولكنه عاود النشاط مجدداً، وأكمل دراسته الثانوية سنة 1955م في الناصرة، ثم حصل على درجة البكالوريوس في الاقتصاد من جامعة تل أبيب عام 1975م. وقد أتيح للشاعر بعد نكسة 1967م أن يتصل بالفعاليات الأدبية الفلسطينية في الضفة والقطاع، وأسهم الدسوقي في تأكيد التواصل وتوثيق العرى بين أبناء الشعب الواحد، ولعل في زواجه من نابلسية ما يؤكد هذا التوجه، علاوة على ما سنقف عليه في أشعاره من المعاني التي تجسّد ذلك، ومشاركته الفعالة في كثير من النشاطات الأدبية والنضالية على ساحات فلسطين المختلفة.

مفهوم الالتزام

الالتزام مصدر الفعل «التزم» الدالّ على قناعة المرء بالقيام بشيء ما طوعاً، وبأن يكرّس له من الجهد وسعه، وقد صرفه الأدباء والنقاد في العصر الحديث لدلالة اصطلاحية، غير أنهم لم ينتهوا فيها إلى معنى مجمع عليه، فتفاوتت فيه آراؤهم، ولكننا نستطيع أن نميز في ذلك بين رأيين لعلهما أبرز ما تمخضت عنه الدراسات الحديثة؛ وهما رأي جون بول سارتر، والماركسيين، ووجهة نظر غارسيا ماركيز الذي يرى أن الالتزام شيء مختلف، حتى أنه ليقترّب في توجهه من أصحاب مدرسة «الفن للفن».

أولاً:

يتحدد هدف الالتزام ومعناه استناداً إلى ما ذهب إليه سارتر في أن التزام الكاتب يرمى إلى إيصال ما لا يمكن إيصاله (الكينونة في العالم المعيش) مستغلاً القدرة التي تنطوي عليها اللغة المشتركة الشائعة....، كما يهدف إلى الإبقاء على التوتر بين الكل والجزء....، بين العالم والكينونة في العالم، على اعتبار أن هذا التوتر هو معنى عمله، والكاتب يواجه في مهنته بالذات، ويصارع، التناقض بين الخصوصية والعامة⁽¹⁾ ويرى «فيليب تودي» أن الهدف النهائي للفن - عند سارتر - هو إصلاح هذا العالم بتصويره كما هو، ولكن كما لو كان منبعاً للحرية الإنسانية، بكلمات أخرى، إن هدف الأدب، هو أن يفعل ما أراد «روكنتان» Roquentin أن يفعله بعد سماعه (بعض هذه الأيام Some of these days): قهر صدفية العالم بجعله حاضراً كما تبغي ذلك إرادة الإنسان.⁽²⁾

وهذا يعني أن الالتزام يكمن في الفعل، وتحمل المسؤولية، فإذا كان الكاتب مسئولاً؛ ومسئوليته تحتم عليه عدم الصمت على جانب من جوانب الحياة، فما هو المعيار الذي يحدّد هذه المسؤولية؟ لقد جعل سارتر الكاتب يهدف إلى (تغيير العالم)، وهو مطالب أيضاً بالوقوف إلى جانب المضطهدين، والتقريب بين البشر، لقد أكد سارتر على أن «مسئولية الكاتب ليست شيئاً سרمدياً أو مجرداً، إنها مسؤولية مباشرة ومحددة، إذ يجب أن يوجه اهتمامه الفكري دون تقاعس، يوماً بيوم، لمشكلة الغاية End والوسائل The means، ومعنى آخر، لمشكلة العلاقة بين الأخلاق Ethics والسياسة (3) Politics» ورأى أنه من المحال أن يكتب أدب جيد بعواطف شريفة، وإن كانت العواطف السامية ليست معطاة مسبقاً، وعلى كل امرئ أن يخترعها بدوره (4) ولذلك لم يكن غريباً أن يدشن سارتر تقديمه للالتزام بهجوم عنيف على مبدأ (الفن للفن)، كما هاجم المدارس المختلفة أثناء طرحه لمفهومه عن الالتزام، ووظيفة الكاتب.

وسارتر في هذا قريب من الماركسيين، فالكاتب في رأيهم مطالب بالوقوف في صف التقدم، أو حسب التعبير الماركسي في صف الطبقة الصاعدة، والفنان الحقيقي هو الذي يدفع المجتمع إلى التغيير، والفن وسيلة للسيطرة على الواقع، ومن ثم فإنه يلعب دوراً في تطور الإنسان المتناغم الشامل (5) وهدف الفن العظيم هو تقديم صورة للواقع ينحل فيها التناقض بين المظهر والواقع، الجزئي والعام، والمباشر والتصوري الخ حتى أن الشينين ينصهران في تكامل تلقائي في الانطباع المباشر للعمل الفني (6).

وقد ذهب الكاتب الماركسي «إرنست فيشر» في سياق حديثه عن معنى الالتزام إلى أنه «لا ينبغي على الفنان لكي يكون ملتزماً أن يتقبل ما يملئه عليه الذوق السائد، وأن يكتب أو يرسم، أو يؤلف وفقاً لمرسوم رقم كذا أو كذا، وإغما تسليمه بأنه لا يعمل في فراغ، وأنه في آخر الأمر ملتزم بالمجتمع، وكثيراً ما يحدث كما أوضح «ماياكوفسكي» منذ أمد طويل، ألا يكون هذا الالتزام الاجتماعي العام متفقاً مع التزام واضح بمؤسسة اجتماعية معينة، وليس من الضروري أن يفهم كل الناس العمل الفني ويقرّوه منذ البداية. فليست وظيفة الفن أن يدخل الأبواب المفتوحة، بل أن يفتح الأبواب المغلقة (7).

ثانياً:

وفي المقابل نجد غارسيا ماركيز، وآرءه اللادعة، فهو يرى أن «كل ما يحُد من حرية الإبداع فهو رجعي وكل أمر مباح ومسموح به للكاتب «شريطة أن يقنع الآخرين بما يرى» فكل كاتب ملتزم بقضايا شعبه الاجتماعية والسياسية لا يتجاهل الضغط السيكولوجي الذي يمارس عليه من أجل الالتزام، فلا داعي لتذكير الكاتب بالتزاماته تجاه قضايا مجتمعه، لأن التزامه نابع من داخل نفسه. ويجيء موقفه هذا رداً على المفهوم السطحي والضيق للالتزام؛ الذي ساد لدى الأدباء في أمريكا اللاتينية ذات يوم؛ حيث وجب على كل أديب أو شاعر إذا أراد أن يكتب أو يبدع، أن يلتزم ويتحدث عن قضايا الجماهير، وعن الثورة، وعن الفلاحين، وعن الظلم والقهر، لكن تبين لأغلبهم، فيما بعد، أن مهمة الأدب ليس تكرار ألفاظ مثل: العمال، الثورة والفلاحين؛ لأن ذلك يُسَطِّح دور الأدب، ويجعله مجرد منشور ثوري (8).

أما «الثورة» فهي اصطلاح دأب المشتغلون بالأدب وقضاياها على قرنهما بالالتزام؛ نظراً لتمامهما في

الظهور، وارتباط أحدهما بالآخر برابط متين اقتضته حركة المجتمع في تحوله من البرجوازية والإقطاع إلى التحرر والاشتراكية؛ لا سيما أن كثيراً من التحولات ما كانت لتتم إلا بالتمرد والثورة؛ نظراً لتمسك أصحاب النفوذ بمكتسباتها الطبقية.

وشاعرنا متأثر كثيراً بالمفهوم الماركسي للالتزام، ولعل انتسابه ذات يوم للحزب الشيوعي هو الذي دعاه إلى ذلك. ويتضح نهجه الثوري الملتزم في أعماله كلها، حتى ليندر أن نجد له أثراً لا يتجلى فيه صخب التمرد والثورة، وروح الالتزام بقضايا أمته ومجتمعه.

أعمال الدسوقي

للشاعر الدسوقي مكتبة غنية بالشعر، ومما يتميز به شاعرنا أنه نظم الشعر بنوعيه؛ العمودي وشعر التفعيلة، وهو كله شعر ملتزم بقضايا أمته ومعبر عن وجدان شعبه، ونستطيع أن نلمس هذا الالتزام، وتلك الوطنية من عناوين دواوينه، حتى قبل التبحر في قراءتها، وهذه ميزة أخرى للشاعر، ولم نطلع في أعماله على ما يفيد بأنه تراجع عن شعر قاله ذات يوم، في الوقت الذي نجد فيه بعض فحول الشعر يتراجعون عن بعض أشعارهم؛ فيخرجون علينا بدواوينهم منقحة؛ كمحمود درويش على سبيل المثال (9).

وجدير بالذكر أن بعض الباحثين يهتمون الشعراء الملتزمين بأن أدبهم يستمد قيمته من موضوعه الفلسطيني لا من مستواه الأدبي والفني، وهي تهمة مكرورة، وليست بالضرورة صحيحة، وفي تقديرنا أن القراءة الناقدة المنصفة لأعمال محمود الدسوقي ستدحض ذلك في كثير من نتاجه الذي نورد أدناه:

- السجن الكبير، 1957.
- مع الأحرار، 1959م.
- موكب الأحرار، 1963م.
- ذكريات ونار، 1970م.
- المجزرة الرهيبة، 1980م.
- صبرا وشاتيلا، 1982م.
- طير أبابيل، 1989م.
- صوت الانتفاضة، 1991م.
- زغاريد الحجارة، 1993
- الركب العائد، 1998م.

إذ يتميز أسلوب الدسوقي فيها جميعاً بالبساطة والوضوح، ونحن لا نرى أن ذلك منقصة بحق الشاعر؛ فلا تكمن قيمة الكلمة في فخامتها وجزالتها فقط، بل في الطاقة الوجدانية التي يبثها فيها الشاعر أيضاً، ويمكن القول إن هذا هو أسلوب الشاعر منذ بداية مسيرته الشعرية وحتى اليوم. ونستطيع أن نلمس ذلك من خلال مطالعة قصائد الشاعر، ومنها قصيدة طويلة بعنوان «بلاد العرب للعرب» يقول فيها (10):

ينمون في الشرق بذر الحقد والعنب

وقسمونا دويلات وما يرحوا

تقلد الحكم أفراد لهم خضوعوا
وذاك يلهو بأيات الجمال وما

كأنما الملك مجبول على الطرب
يبغيه في الملك إلا نولة الأرب

ويقودنا الحديث عن الأسلوب إلى الرمز في شعر الدسوقي، ونرى أن الشاعر لم يهرب إلى الرمز كما فعل غيره، بل قال كلمته بوضوح، وبصوت عال دون موارد، حتى ذكر بعض الأسماء صراحة، سواء في سياق مديح أو هجاء، يقول في قصيدة بعنوان «شمعون»⁽¹¹⁾:

شمعون يا حاكما في أمر سيده
قم وانظر الشعب في لبنان موطنهم
أن «يخلعوك» و«سامي» من رئاستكم
كالبغاء تحاكي ما حكى البشر
قد أجمعوا العزم أن يسعفهم القدر
فلتعلم اليوم في أيديهم الظفر

مضامين شعره

تجلى الروح الثورية الملتزمة في أشعار الدسوقي كلها، وبشكل واضح، إذ تشيع فيها روح التمرد والإباء، ولا تكاد تفوته مناسبة وطنية أو قومية دون أن يكون لها نصيب من شعره، فهو مسكون بقضايا شعبه، وهمومه هي التي تحرك وجدانه وأحاسيسه، مما جعل أشعاره، كمعظم شعراء الأرض المحتلة، سجلا للأحداث، وترجمانا صادقا لمشاعر المواطنين الذين حال الاحتلال دون تواصلهم مع أبناء أمتهم، ونستعرض في ما يأتي طائفة من القيم والمضامين الثورية التي تجسّد التزامه بقضايا الأمة.

١. التمرد والإباء

يقف المطالع في أشعار الدسوقي على هذه الروح تتأجج في ثناياها بشكل جليّ، فهو يبدأ ديوانه «مع الأحرار» بقصيدة عنوانها «لن أرتضي بالحياة خنوعا»، يقول فيها⁽¹²⁾:

بنفسي أرى للسمو نزوعا
فلا الضعف يأخذ من مهجتي
ولا العين تذرف منها الدموعا

بهذه اللهجة القوية المباشرة يعبر الشاعر عن رفضه الخضوع والخنوع؛ لأنه صاحب نفس أبية تنزع إلى السمو والكبرياء، حتى أنه يتعالى على البكاء ويغالب دموعه، وينتصر عليها في تحد صارخ لقوى الظلم والطغيان، وكأنه يردد صوت المتنبي في أبياته⁽¹³⁾:

أي محل أرتقي
وكل ما قد خلق إلا
محقر في همّي
أي عظيم أتقي
وما لم يخلق
كشعرة في مغرقي

ولا شك في أن الظروف الحالكة التي يعيشها الفلسطينيون في ظل الاحتلال، تؤدي إلى انتهاج التحدي سبيلا لتكريس الوجود الفعّال على الساحة الوطنية، ولإرسال إشارات مفعمة بالمعاني لامتدادهم خارج الوطن، ولبقية أبناء الأمة، عسى أن يستجيبوا لنداءاتهم، ويبادروا إلى تحريرهم.

٢- التعريض

وانسجاما مع ما ارتضاه لنفسه، فالدسوقي يتجاوز في تمرده حدوده؛ ليؤثر في من حوله، ويحثهم على اتخاذ المواقف الجريئة، ويؤجج فيهم روح التمرد، ليتحوّل إلى محرّض يستثير الهمم، ويقود الجماهير، ويحرّكها نحو مواقع متقدمة على طريق التحرر، فيختم قصيدته السابقة بقوله:

فكن في الحياة عزيزا كريما
ولا تسكن يا... وترضى الخضوعا

وفي خضم هذا الصراع الذي يعيشه الفلسطيني، بين الحلم الجميل المشرق، والواقع المرير المؤلم، تنتاب الشاعر عاطفتان تتنازعان في نفسه وتؤرقانه، فهو إنسان له قدرة محدودة على الفعل والتضحية، وفي الوقت ذاته، فإنه يعيش واقعا بحاجة إلى تضحيات جسام لتغييره؛ تضحيات قد تفوق قدرة كثير من البشر، فكيف به وهو الذي يعيش داخل الزنزانة الإسرائيلية ويرسل كتاباته من بين قضبانها، ومع ذلك فهو يكتب قصيدة بعنوان «دماء ودموع» يقول فيها:

اجهر بصوتك لا تخف وابذل دما
وتقحم لجح الصراع مجاهدا
اضرب على أيدي الطغاة بشدة
واضرب أيادي البغي ضربة قاهر
إن الدماء وراء كل تحرر
واخفض لواء الظالم المتجبر⁽¹⁴⁾

وهكذا يتعالى الشاعر - كما أبناء شعبه - على الجرح ولا يكتفي أن يسمو بنفسه فقط، بل يدعو أبناء شعبه إلى السمو والتحمل، للوصول إلى آمالهم، وتحقيق طموحاتهم في نيل التحرر والاستقلال.

ويصل التعريض ذروته، عندما يتخذ شكل الاتهام والتقريع للمتخاذلين، الذين تسببوا في ما آلت إليه الأمور، علّ دماء النخوة والعزة والكرامة تتحرك في عروقهم من جديد. وكانت حرب لبنان، فأثرت أحداث صبرا وشاتيلا تأثيرا كبيرا في الشاعر، فأوحت له هذه الحرب وتلك المجازر عددا من القصائد، ضمها في ديوان شعر سماه «صبرا وشاتيلا» وفي إحدى هذه القصائد، هاجم الحكام العرب والأمة العربية التي تقف متفرجة عن بعد، فيقول من قصيدة «عرس البطولة والصمود»:

يا أرض لبنان شعبي النار تحصده
الحزبي والعار ويا للعار
كم يستغيث فم يأتني وينجده
من أمة صفقت للذل تحمده⁽¹⁵⁾

فأي تعريض بعد ذلك يمكن أن يأتي بنتيجة، إن لم تفلح هذه الاستغاثة في إيقاظ الضمير، وإن لم يفلح هذا التوبيخ في استنهاض الهمم؟!

لقد «تابع الدسوقي أحداث الضفة والقطاع عن كثب، وكتب الشعر متأثرا بما ينشر من أحداث مؤلمة على صفحات الجرائد والمجلات، فكتب موجها كلامه للسجناء والمعتقلين فيقول:

أخي اعتقالك ...
للتحقيق لا ترهب
ولا تخش القيود السجن
إن السجن لا يرهب
فإن السجن للأحرار
لا تياس ولا تغضب»⁽¹⁶⁾

فحتى في أكثر الظروف حلقة؛ في غياهب السجن الرهيب لا يتخلى عن إيمانه بالنصر وأمله في الحرية، ولا عن روحه المعنوية العالية، ويعمل على نقل هذا الشعور إلى رفاق دربه .

٢- تجربة السجن

لتجربة السجن خصوصية عند الدسوقي، لأن محاولاته الأولى لنظم الشعر كانت في غياهب السجن، وذلك عندما اعتقل وهو في طريق عودته، من المدرسة الفاضلية في طولكرم إلى بلدته الطيبة، لقضاء العطلة الشتوية في عام 1951، فقال قصيدته «طير في قفص» ومنها :

أمسكوني

وبسجن وضعوني

وبدون ذنب ضربوني

ومتى أرادوا شتموني وعذبوني

لأقول شيئاً

مجرماً هم يحسبوني

لأعيش حراً إنهم قد منعوني^(١٧)

ولم تقتصر القصائد التي ذكر فيها السجن على هذه المحاولة الناجحة، بالرغم مما يبدو في بعض تراكيبها من ضعف، بل تكرر هذا المضمون في أشعاره، إذ كان السجن أبسط ثمن لكلمة حق، أو لموقف وطني، ففي قصيدة أخرى بعنوان «سجن وتعذيب» يقول⁽¹⁸⁾:

نزلنا السجن في يوم

فلم تلمس سوى ظلم

فما في الحكم من عدل

ولا الإنصاف خلناه

فهذه هي حال الفلسطينيين؛ يُسجنون لا لجرم سوى المطالبة بالحقوق المغتصبة، ولأنهم يرفضون التنازل عن الهوية الوطنية التي تحفظ لهم كرامتهم، ولذلك كان للسجن صدى واسع في أشعار المقاومة، ولا نستغرب ذلك، لأن معظم شعراء المقاومة أودعوا السجون مرة بعد مرة.

وقد يترك السجين خلفه عائلة تعاني خارج السجن، مثلما يعاني هو داخله، فكيف يصفو لها عيش وهي لا تعلم إن كان ابنها يأكل أو يجوع، ينام أو يُحرم من النوم دون أن يكون له جرم، إضافة إلى أصناف التعذيب التي تفتقت عنها العقلية الهمجية، في محاولة يائسة لتكريع الأحرار وإذلالهم، ولكن أنى لهم ذلك. ولم يفت الدسوقي أن يستعرض أحوال ذوي الأسرى، فما هو يتقمص شخصية ابن أسير في قصيدة بعنوان «رسالة من ولد لأبيه في السجن» مصوراً حزن عائلته ومعاناتها، ولا سيما أيام «العيد» فيقول⁽¹⁹⁾:

أبتي إليك رسالتي

أعيادنا وحياتنا

أبتي العزيز رسالة

هذي الرسالة يا أبي

هي في العذاب معونة

باسم الشقاء مزينة

أهديك في العيد الحبيب

تصف الشقاء بلا نحيب

ولا يكتفي الدسوقي بذلك، بل يأخذ موقع الأب، فيرد على ابنه خارج السجن، ويخاطبه قائلاً:

يا صغيري

لست أدري ما المصير

ضاع عمري

لست أدري ...كم سأبقى

في ظلام السجن في السجن الكبير^(٢٠)

٤- المرأة

احتلت المرأة في أشعار الدسوقي مكانة بارزة، وحظيت بمساحة كبيرة من شعره لا سيما إذا كانت مناضلة؛ فقد كرس عدداً من قصائده لثناء مناضلات شهيدات، منهن الجزائرية التي شاع ذكرها في ستينات القرن الماضي على كل لسان؛ جميلة أبو حيرد، و ناديا سلطي، و رجاء عماش. يقول في قصيدة «ثأرتان» من ديوانه مع الأحرار⁽²¹⁾:

هذي رجاء سليلة الأجداد

هذي جميلة أختها بجهاد

كلاهما ضد التحكم ثارتا

أولاهما للشعب أهدت روحها

و تتماهى الفتاة حبيبة الشاعر في أشعار الدسوقي بحبيبتيه فلسطين حتى يكاد الأمر يختلط على القارئ، كما في قصيدته «غدا نلتقي» التي يقول فيها⁽²²⁾:

إذا غبت يوماً عن الموعد

فلا تغضبي يا فتاة الغد

فهما تأخرت عن موعد

غدا نلتقي يلتقي أهلنا

فأنا جميعاً على موعد

٥- اللاجئون

تعد قضية اللاجئين الفلسطينيين وصمة عار، ونقطة سوداء في تاريخ القانون الدولي، وقد تناولها الأدباء في كثير من أعمالهم، فلا نكاد نظفر بعمل أدبي واكب النكبة والأحداث التي أعقبتها دون أن تحتل قضية اللاجئين مساحة منه، بلغت الأنظار إليها، وتصوير عذاباتهم ومعاناتهم، وقد كانت القصيدة الثانية من ديوان الدسوقي «مع الأحرار» بعنوان «بعد المأساة» وهل من مأساة بعد النكبة واللجوء؟ يقول الشاعر⁽²³⁾:

أيا ليلي بربك أخبرينا

وقولي إن تخذت الصدق ديناً

وأخواني أقدر فروا جميعاً

أم اخترت حياتهم المنايا

عن الأوطان ثم النازحين

أبي، أهلي، أفروا هاربين؟

وأضحوا للثرى متلحفين؟

وأضحوا بالدماء مضرجين؟

فقد كان وقع الصدمة رهيباً على الفلسطينيين، والشاعر واحد منهم يعبر بلسانه عن وجدانهم، ويمضي في دهره وتساولاته غير مصدق بما حدث.

وعلى الرغم من أن الشاعر لم يخرج من فلسطين، ولم يذق مرارة الاغتراب والتشرد؛ إلا أنه استطاع أن يجسد، بصدق ودقة، أحاسيس اللاجئين، وينطق بلسانهم، على نحو ما في قصيدة «رسالة لاجئة» التي

يقول فيها ⁽²⁴⁾:

أبت! كئابي بالدموع كبتة.
أبتي! عذابي في الطفولة ذقتة.
عمر طويل بالشقاء قضيتة.
عيش الهناء على الشتات أبيتة.
وطن حبيب في الحياة حرمتة.

٦. التوبيخ

يلاحظ المطالع في دواوين الشاعر أنها سجلات للأحداث؛ توثقها بطريقة فنية وجدانية، ليس فلسطينيا فقط، بل عربيا، وأحيانا عالميا، لا سيما إذا كانت تعني أمته، وتؤثر في مستقبلها، فمن تصوير انعكاسات نكبة 1948 على شعبه، إلى تصوير المجازر التي ارتكبتها الغزاة المحتلون، ومنها مجزرة كفر قاسم عام 1956 التي ارتقى فيها خمسون شهيدا. وقد صورها الشاعر بطريقة معبرة مؤثرة في قصيدته «مؤامرة مدبرة» وذلك حيث يقول ⁽²⁵⁾:

بالشعب حلت مجزرة
حلت بهم مصيبة
خمسون شخصا سقطوا
صرعى فتلك المجزرة

وعندما نشبت حرب لبنان، وحمل شارون على الجنوب اللبناني ظنا منه أن الشعب الفلسطيني سينتهي إلى الأبد، قال الدسوقي قصيدة بعنوان «ذكرى ومصر» يخاطب فيها شارون ⁽²⁶⁾:

أنهر الدم يا شارون تغنيا
مهما قتلت من الأطفال نرجعها
وصور الشاعر مجزرة الأقصى التي هزت أركان الشعب الفلسطيني، فقال في قصيدة «سل الأقصى» ⁽²⁷⁾:

سل الأقصى يخبرك الجوابا
وسل مهد المسيح فكم ينادي
فداء أو أنبيا أو عتابا
يهز الكون أرضا أو سحابا

لقد كتب الشاعر من عمق المأساة، وعاش الأحداث وتأثر بها، فكان شعره تسجيلا أدبيا، وتوثيقا فنيا، لما عايشه هو وأبناء وطنه من مأساة وأحداث عصبية، ولذلك فقد كان صادق العاطفة في كل ما ينطق به؛ لأنه لم يقل شعره ترفا، بل قاله تعبيرا صادقا عن مشاعره التي عبر عنها بطرق مختلفة، من أهمها الشعر، حتى تكاد تشعر بهارة الكلمات في حلقك وأنت تقرأ شعره الذي يدور معظمه حول تصوير معاناة شعبه وتضحياته الجسام؛ اقرأ مثلا من قصيدة «مبدأ إيزنهاور» ⁽²⁸⁾:

مبادئكم تبشر بالخراب
وتجعل من بلاد عامرات
عميت عن الحقيقة ليت شعري
أتعمى والحقيقة قد تبدت
وتجعل شرقنا مهد العذاب
فدى الأطماع بالفقر اللياب
أتعمى والحقيقة كالشهاب
صواريخها تهدد بالخراب

وفي العيد الماسي لجامعة النجاح الوطنية وقف الشاعر يوم الاحتفال، وألقى قصيدته «العلم نور» وقال فيها:

العلم نور ونور العلم يأتلق
العلم والدين صنوان فلا عجب

اقرأ فخلقك فيه الطين والعلق
من «النجاح» نسور العلم تنطلق
وقد كانت للشاعر لقاءات عدة مع الرئيس في مناسبات مختلفة ألقى فيها عددا من القصائد، فعندما أبرم اتفاق (غزة أريحا أولا)، واستلمت الشرطة الفلسطينية قطاع غزة ومدينة أريحا، توجه الشاعر إلى غزة مهنتا، وهناك أنشد قصيدته «رُفرف على الدار حرا أيها العلم» ⁽²⁹⁾ التي يقول فيها:

رُفرف على الدار حرا أيها العلم
وسجل اليوم في التاريخ يا قلم
عاشت فلسطين يا أرضي ويا وطني
فالطير يرقص والأشجار تبسم

ومما يندرج في هذا السياق قصيدة للدسوقي بعنوان «العملق الثائر» ⁽³⁰⁾ التي كان قد ألقاها أمام ياسر عرفات في تونس بتاريخ 1993/10/10 يقول فيها:

أنا كنت أهرب أن أخوض تحورا
أنا كنت وسنا صحت فهنني
أنا صرت عملاقا يهاب تحوري
كم طاف صوتي في السماء فأرعدا
أو أن أكون مؤازرا ومؤيدا
صوت تعالى للكفاح ترددنا

٧- البعد القومي

ظهرت بوادر الشعر القومي في أواخر العهد التركي إذ كان يعبر عن آمال الأمة العربية في التحرر والاستقلال «وقد وجد الإنسان العربي في الأدب صدى وجدانه وحياته وواقعه، وبذا استجاب الأدب العربي الحديث، على اختلاف فنونه، لهذا التطور الخلاق في النفس العربية النزاعة إلى الواقع، فكان الشعر الاجتماعي والقومي والوطني يشكل أبرز ظاهرة فنية في نتاجنا الأدبي الحديث» ⁽³¹⁾.

وقد وجد هذا الاتجاه الجديد في التعبير عن الآمال والطموح تجاوبا لدى كثير من الشعراء الفلسطينيين، منهم إبراهيم طوقان، وعبد الرحيم محمود، وأبو سلمى، ومن بعدهم واصل محمود دسوقي كفاحه، فهو يعد من أكثر شعراء فلسطين في المثلث - تجاوبا مع الأحداث العربية، فقد غنى للجماهير على مدار سبع سنين ملحم الثورة.

إن هذا الشاعر قد آمن بالوحدة العربية، وتغنى بها، كما تغنى بثورة مصر والعراق واليمن وليبيا؛ لأن إيمانه العميق بعودة الحق إلى أصحابه الشرعيين لا يتحقق إلا بتحرير الأقطار العربية ووحدها ⁽³²⁾ ففي قصيدة «نداء ثوار الجزائر» يقول:

يا شعب الجزائر لا تبال
فن رام التحرر من غريب
وفي قصيدة «ثورة العراق» يقول ⁽³³⁾:

أضاع تر الاستعمار أرغى وأزبدا
أضاع في أرض بغداد موقعا
أضاع بأرض العراق ديرا ومعبدا
حصينا كان ينبج عسجدا
وظنوا بان الظلم يجلب محندا
وزجوا بأحرار العراق بسجنهم

لقد آمن الشاعر بالوحدة العربية، وأن الحدود المصطنعة هي من صنع الاستعمار، ولا بد من زوالها، وعندما قامت الوحدة بين مصر وسوريا، رأى فيها مفتاح الحل لقضية شعبه ووطنه، فراح يقول في قصيدة «الوحدة العربية» ⁽³⁴⁾:

وحدة العرب فيها كت انتظار
حلم تلقنه الأجيال من صغري
فأرسل الله من يحيي لنا أملا
وغير ذلك من قصائد كثيرة ذكر فيها أحداثا عربية، ورثى شهداء عربا، كما هاجم العملاء ممن ينتسبون إلى العروبة أيضا.

٨. الأرض

تدور القضية الفلسطينية من ألفها إلى يائها حول الأرض، وعلى ذلك، فلا عجب أن تحظى الأرض بنصيب الأسد من الشعر، فكيف إذا كان الشاعر مناضلا شارك شعبه في فعاليات يوم الأرض، وخاض الإضرابات، واعتقل بسبب ذلك، وقد صور الدسوقي أحداث يوم الأرض في قصيدته «حبييتي الأرض»⁽³⁵⁾ حيث قال:

رويدك أرضي فلا تحزني
سأروي بدمي سفوح الجبال
سأروي السفوح سأروي التلال
وركب الضحايا كهول
شباب نساء رجال
لحجك ضحوا لأجلك ماتوا
لنصنع الحال

ويرتقي الشاعر بالأرض ليجعل منها أما له ولكل فلسطيني مزج ترابها بالدماء الزكية، وخالط حبها قلبه ووجدانه، يقول الدسوقي في قصيدته «أما الأرض»⁽³⁶⁾:

الأرض أرضي والبلاد بلادي
أروت دماء أبي وأخي غرسها
وبقرها بنيت منازل قريتي
لقد كان شاعرنا يترجم المأساة التي يعيشها بواقعية ووضوح، ويعبر عن أفكاره دون مواربة أو مجاملة، ولذلك كان نصيب الصورة الفنية من شعره ضئيلا، وهي إن وجدت فصورة جزئية ليست كلية، وهي منتزعة، في الغالب، من بيئته الفلسطينية، التي عشقها وغنى لها، ومن ذلك ما نجده في قوله من قصيدة «غدا نلتقي»⁽³⁷⁾:

غدا نلتقي فوق خضر الروابي
على ربوة كم كساها الربيع
غدا نلتقي، لن تحول النوائب
سيصيح في الشرق لحن اللقاء
بنيت على سحرها معبدي
بساطا من الزهر كالعسجد
بيني وبين لقاه الندي
وترقص أوتاره في يدي

فصورة أرضه لا تكاد تبرح عينه، ولا أمجاد أمته، فهي تلج عليه في كل موقف، وتطغى على مخيلته، بل تحتلها، فهو لا ينطق إلا باسمها، ولا يتغنى إلا بأمجاد أمته، وهذا هو الالتزام بأنصع معانيه وأبهجها.

٩. القدس

تمثل القدس القلب النابض للقضية الفلسطينية، مثلما هي الباعث الأقوى على النضال والتضحية، وهذه المكانة للقدس جعلت منها مصدر إلهام لكثير من الشعراء، حيث تغنوا بتاريخها ومعابدها، كما استلهموا التراث والدين، واستعادوا أمجاد المسلمين وحروب تحرير القدس من الاحتلال الصليبي وغيره، ليجعلوا من ذلك كله دافعا وشعاع أمل ينير طريق تحريرها مجددا من الاحتلال الصهيوني. وكان الدسوقي من الشعراء الذين غنوا بهذه المدينة العريقة، وتغنوا بها، وذكروها في أشعارهم، وذلك في قصيدته «جولة في القدس» التي قال فيها⁽³⁸⁾:

يا قدس منا من بنيك سلام
خلف الحدود لك القلوب تشوقت
واخال جوك يا مدينة ساكنا
واذا الجميع تهاوتوا ليشاهدوا
ليشاهدوا دنيا الجمال بأرضها
وكذا يرى الحرم الشريف بأرضها
فيك الحياة بحسنها الإلهام
مذ رفرف في جوك الإلهام
وكان أهلك هجع ونيام
ما أحكمت في صنعه الأيام
فيها المعابد للإله تقام
ويرى ما شاده الإسلام

وهكذا يثث الشاعر خواطره، ويفصح عن شعوره تجاه المدينة معجبا بروعتها، ومتحسرا على الحال التي آلت إليها تحت نير الاحتلال حيث السكون الذي يشبه الموت.

١٠. الفعاليات السياسية وعضويته في الجمعيات

انخرط الشاعر في معترك الحياة السياسية، فكان يشارك في المظاهرات والمسيرات والاجتماعات العامة باستمرار، وكانت الناصرة مركزا مهما للنشاط السياسي والاجتماعي والثقافي؛ ذلك النشاط الذي كان موجهها في جملته لمقاومة ظاهرة التمييز العنصري؛ وهي أهم المسائل التي شغلت الرأي العام العربي في الأرض المحتلة عام 48 إضافة إلى الحكم العسكري وسلب الأراضي. وقد كان إيمان الشاعر عميقا بحق شعبه في العيش على أرض وطنه حرا كريما، وعلى هذا الشعب واجب محاربة القوانين الجائرة التي فرضتها سلطات الاحتلال.

وتتمثل مواقف الشاعر السياسية في المطالبة بالمساواة والعدالة وإلغاء الحكم العسكري وقوانين سلب الأراضي وغيرها من القوانين الظالمة التي فرضت على من بقي من الشعب الفلسطيني في وطنه. لقد أثرت هذه المواقف السياسية في الشاعر، وبرزت في شعره بشكل جلي، ويتضح ذلك من مجرد النظر إلى عناوين دواوينه التي ذكرناها آنفا، ففي مقدمة ديوانه «مع الأحرار» يقول: «ها أنا أقدم لكم اليوم» مع الأحرار «شعرا ينبثق من صميم الواقع، معبرا عن كفاحنا في سبيل حياة حرة كريمة، ونضالنا من أجل مستقبل زاهر ينتظرنا، لا سيد فيه ولا مسود»⁽³⁹⁾.

وقد كان الشاعر يؤمن بأهمية الكلمة ودورها في التغيير، لا سيما إذا لم يكن هناك سبيل آخر، ومن هنا فقد كان «أول من دعا إقامة اتحاد كتاب في الأرض المحتلة، وشغل منصب سكرتير رابطة الكتاب والشعراء الفلسطينيين في الداخل، وهو عضو في المكتب السياسي للحزب الديمقراطي العربي»⁽⁴⁰⁾ ومن

قصائده التي تدعو الشعراء إلى المساهمة في مسيرة النضال قصيدة طويلة بعنوان «درب على الكفاح»
من ديوان زغاريد الحجارة يقول فيها⁽⁴¹⁾:

طاب اللقاء وأبدع الشعراء
أنا من يحور الشعر صغت ملاحما
وصنعت من لهب القصيدة شعلة
وشاعرنا مستعد للفداء والتضحية إن لزم الأمر، فهو ينهي قصيدته بقوله:
سجل: دم الشهداء فوق أكفهم
للشعر إن عز السلاح أسنة
والشعر في درب الكفاح لواء
أضحى نسيج فصولها الشهداء
يخشى لظاها طغمة جبناء
فالعر للوطن السليب فداء
وخناجر للغاصبين دواء

وأخيرا، فهذا هو محمود الدسوقي، شاعر بسيط في كل شيء، في لغته وأسلوبه، ولكنه غزير في عطائه، مخلص في أدائه وانتمائه، وقد جاء شعره واضحا في دلالاته، عميقا في أصالته، صادقا في تعبيره عن هموم شعبه وأمتة، فلم يترك مناسبة وطنية ولا قومية إلا كان لها من شعره نصيب، ولم تسنح فرصة للمجاهرة بالحقوق دون أن يغتنمها ويشارك فيها؛ ولو أدى به ذلك إلى السجن، فقد جاء شعره مشحونا بروح التمرد والثورة؛ وهذا هو الالتزام بمعناه الذي ينسجم مع فكر الشاعر وتوجهه اليساري.

الهوامش

- (1) سارتر، ج. ب.: دفاع عن المثقفين، ترجمة جورج طرابيشي، بيروت، دار الآداب، 1973 ص 92.
- (2) Toddy, Philip, : Jean Paul Sartre, A literary and Political study, op. Cit., PP. 163, 146
- (3) Sartre, J. P.: the Responsibility of the writer, New York, 1960.p. 185
- (4) سارتر، ج. ب.: تأميم الأدب، ضمن الأدب الملتزم، دار الآداب، بيروت، ط. 2، 1967 م، ص 45.
- (5) مجاهد، عبد المنعم: علم الجمال في الفلسفة المعاصرة، القاهرة، دار الثقافة، 1977، ص 129.
- (6) Lukas, G : Essays on Thomas Mann -Merlin : London, 1964.P. 34
- (7) فيشر، إرنست: ضرورة الفن، ترجمة: أسعد حليم، القاهرة، الهيئة المصرية للتأليف والنشر، 1998، ص 276.
- (8) <http://alrwayah.friendsofdemocracy.net/utility/tb?id=192464>
- (9) الأسطة، عادل. ظواهر سلبية في مسيرة محمود درويش الشعرية، منشورات الدار الوطنية، نابلس 1998.
- (10) ديوان مع الأحرار، ط2، تل أبيب 1969، المطبعة الحديثة، ص 75
- (11) السابق، ص 63.
- (12) محمود الدسوقي، ديوان مع الأحرار، ص 7
- (13) ديوان المتنبي، دار صادر، دار بيروت - بيروت، 1958، ص 40
- (14) محمود الدسوقي، ديوان مع الأحرار، ص 7
- (15) أبو غزالة، ص 3
- (16) السابق، ص 9
- (17) السابق نفسه
- (18) محمود دسوقي، ديوان مع الأحرار، ص 11
- (19) السابق، ص 20
- (20) السابق، ص 62
- (21) راضي صدوق، شعراء فلسطين في القرن العشرين، ص 590
- (22) ديوان مع الأحرار، ص 89.
- (23) راضي صدوق، مصدر سابق، ص 590
- (24) ديوان مع الأحرار، ص 8
- (25) السابق، ص 45
- (26) السابق، ص 18
- (27) محمود دسوقي، ديوان صبرا وشاتيلا، إصدار المطبعة الحديثة 1959، ص 17
- (28) ديوان زغاريد الحجارة، ص 10
- (29) ديوان مع الأحرار، ص 63
- (30) الديار، صحيفة أسبوعية للحزب الديمقراطي العربي، العدد الصادر في 1994/6/2.
- (31) أبو غزالة، ص 26
- (32) الدقاق، عمر، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، دار الشرق - حلب، ص 2 (33) كنفاني، غسان، أدب المقاومة في فلسطين المحتلة، ص 22، 23
- (34) محمود الدسوقي، ديوان مع الأحرار، ص 70
- (35) محمود دسوقي، ديوان ذكريات ونار، إصدار المطبعة الحديثة 1970، ص 42
- (36) محمود دسوقي، ديوان جسر العودة، ص 43
- (37) محمود دسوقي، ديوان مع الأحرار، ص 54
- (38) شعراء فلسطين في القرن العشرين، ص 590
- (39) محمود دسوقي، ديوان مع الأحرار، ص 120
- (40) مقدمة ديوان مع الأحرار
- (41) أبو غزالة، ص 11

قدري طوقان

١٩١٠ - ١٩٧١

إعداد أ.د. يحيى عبد الرؤوف جبر

قدري طوقان

مدخل

يعيد المؤرخون آل طوقان إلى عرب الموالي الذين كانوا يتخذون من معرة النعمان قرب حلب وطناً، وينتسب الموالي لقبيلة طيء المشهورة، وكانوا قسمين: شمالياً وجنوبياً، وينتمي آل طوقان للقسم الشمالي، ويعود تاريخ ظهورهم على المسرح «السياسي» إلى أوائل القرن الميلادي السابع عشر عندما حمل سلطان طوقان على بلاد حوران سنة 1615م - 1037هـ، وانتصر على شيخها رشيد من «عرب السردية» ومنها إلى البلقاء حيث نزل هناك، وبدأ التماس بينه وبين آل حيار برئاسة شيخهم فياض الحيارى، ذلك لما رآه من إقبال الناس على الأمير سلطان⁽¹⁾. ولعل في انتشار آل طوقان في مدينة السلط وغيرها ما ينسجم مع الإشارة السابقة ويعضدها.

أما اسم العائلة طوقان فإما أن يكون تثنية طوق، ذلك أن الدولة العثمانية كانت تمنح المخلصين للدولة رتبة الشرف «أمير الأمراء» مع طوقين⁽²⁾، وجدير بالذكر أن هذه الكلمة تركية الأصل «توغ» ثم عربت، أو من أطواق الحرير الذي كانوا يضعونها حول أعناقهم لتمييز أنفسهم عن بقية الأعراب. وقيل: بل نسبة إلى تل طوقان، موضع قرب حماة، كان القوم ينزلونه قبل رحيلهم إلى ضفاف نهر الأردن.

وجدير بالذكر أن عدداً من أبناء هذه العشيرة قد نبغوا في السياسية، وتولوا مناصب خطيرة في القرون الأربعة الأخيرة، ومنهم صالح باشا طوقان الذي ولي بعلبك، ومنهم مصطفى طوقان الذي أسندت إليه ولاية مصر ما بين عامي 1774 - 1776م، ناهيك عن تقلبهم في رئاسة المتسلمية بنابلس عقوداً من الزمن.

ويمكن إيجاز ما تقدم بقولنا إن «قدري طوقان» ينتسب إلى بيت عريق، له من الشأن ما يشهد به تاريخهم في بلاد الشام ابتداء من أوائل القرن السابع عشر إلى يومنا هذا.

وقد نجد ملامح هذا النسب العربي قد تناسخت في «قدري» فنراه قومياً أكثر منه وطنياً، فقد امتدت ساحة نشاطه العلمي والثقافي من ربوع الشام بمفهومها التاريخي إلى بلاد الرافدين ووادي النيل وأرض المغاربة. كما نلمح ذلك باعتزازه بقومه فهو لا يتوقف عن التغني بأمجاد الأمة في كل مؤلفاته ومقالاته وأحاديثه الإذاعية، وأسمى من ذلك كله أن كان يتألم أشد الألم لما آل إليه أمر الأمة من تفسخ وتمزق وتخلف، فيظل يلهج باستمرار داعياً إلى الأخذ بسلطان العلم، والتسلح به في مقاومة الاستعمار وتبديد ظلام الجهل. ومن قرأ كتبه وأبحاثه، واطلع على ما أسهم به في المحافل الثقافية العربية، خرج بحقيقة مفادها أن «قدري» كان عربياً حراً، ومسلماً عزيزاً، ووطنياً غيوراً، وعالمياً مفكراً، وأديباً سياسياً، همه الملزم له، طوال حياته، هو مستقل الأمة، واستعادة أمجادها، ورفع شأنها... وأنعم بمن كانت هذه حوافزه وهو أجسه.

حياته ونسبه

هو قدري بن حافظ بن عبد الله بن محمد بن الحاج بن علي بن الشيخ إبراهيم ابن صالح بن «إبراهيم جوربجي» بن محمود بن إبراهيم بن عبد الله طوقان⁽³⁾، وكان والده من أعلام السياسة المعاصرين، فنشأ ابنه على شاكلته مهتماً بالسياسة والعلم زيادة على ثقافته ونشاطاته⁽⁴⁾.

ولد عام 1910م في مدينة نابلس، حيث تلقى علومه في مدرسة النجاح الوطنية (الجامعة اليوم)، وتابع دراسته في الجامعة الأمريكية ببيروت وتخرج فيها عام 1929م، إذ حصل على درجة الإجازة (البكالوريوس) في الرياضيات، ثم عاد إلى نابلس حيث عمل مدرساً في كلية النجاح، ولكنه اعتقل عام 1936م، ونفي إلى صرند، حيث ظل هناك تسعة أشهر عاد بعدها ليوصل التدريس في كلية النجاح، وتولى إدارة الكلية عام 1950م، وفي ذلك العام انتخب نائباً عن مدينة نابلس في المجلس النيابي الأردني الأول، وفي عام 1964م عين وزيراً للخارجية الأردنية، فبرزت ميوله القومية في منجزات وزارته، حيث سعى جاهداً لتحسين العلاقات السياسية والاقتصادية بين الأردن والجمهورية العربية المتحدة «مصر اليوم». وفي عام 1965م التحق بكلية النجاح معهداً للمعلمين، وظل مديراً لها إلى أن توفي في 1971/2/26م ببيروت، وهو في طريقه إلى القاهرة، وعلى أثر نوبة قلبية حادة. وكانت حياته حافلة بالنشاطات العلمية والسياسية والإدارية، دائم التجوال، كثير المطالعة، ولم يحل ذلك دون اشتغاله بالتأليف، على نحو ما تشهد به آثاره، وكان أن منحته جامعة البنجاب (الهند) شهادة الدكتوراه الفخرية تقديراً لجهوده المتميزة في خدمة الفكر والتراث الإنساني.

وقد شارك في عدد من المؤتمرات العلمية، وأسهم في تأسيس عدد من المحافل والمنتديات، ليس في البلاد العربية وحسب، ولكن في البلاد الأجنبية أيضاً، فذاع صيته، ولمح نجمه، ونال عدداً من الأوسمة التقديرية تقديراً لجهوده ونشاطاته، وأبرز تلك الأوسمة:

- وسام الاستقلال من الدرجة الأولى من المملكة الأردنية الهاشمية 1957م.
 - وسام الكوكب الأردني من الدرجة الأولى في عام 1964م.
 - وسام الجمهورية من الدرجة الأولى من الجمهورية العربية المتحدة في عيد العلم العاشر عام 1964م. وقد جاء في الكتاب الذي وجهه له جمال عبد الناصر مع الوسام «أنه تقديراً لحמיד صفاتكم وجليل خدمتكم للعلم وللقومى العربية، فقد منحتكم وسام الجمهورية من الدرجة الأولى».
 - وسام الكفاءة الفكرية من الدرجة الممتازة من المملكة المغربية عام 1961م.
- وكان من مناشطه العلمية والثقافية أن انتخب عضواً في مجمعي القاهرة ودمشق، والمجمع العلمي لحوض البحر المتوسط بإيطالية، ومجلس الاتحاد العلمي العربي بالقاهرة، ومجلس أمناء الجامعة الأردنية، والمجلس العربي المشترك للذرة، وفي اللجنة القومية لليونسكو، ومجلس البحث العلمي في الأردن، ومجلس جمعيات العلوم الرياضية في إنجلترا وأمريكية، كما عين رئيساً للجمعية الأردنية للعلوم، وانتخب نائباً للرئيس في عدة مؤتمرات علمية كمؤتمر الإسكندرية 1952م، ومؤتمر القاهرة عامي 55، 1961م، ومؤتمر بيروت عام 1957م، ومؤتمر بغداد عام 1966م، ومؤتمر المفكرين في لاهور (باكستان) عام 1964م، ومؤتمر التعريب في الرباط عام 1961م. ولم تكن مشاركته في هذه المحافل والمؤتمرات اسمية شكلية، بل ممثلاً لبلاده، إذ مثلها في أكثر من خمسة وعشرين مؤتمراً تقدّم فيها بأبحاث علمية، نالت تقدير القاصي والداني.

ولم يكن «قدري» عالماً متخصصاً وحسب، بل، كما أسلفنا، كان إلى جانب ذلك فيلسوفاً، ومفكراً أدبياً، وداعية قومية، ومحرزاً إسلامياً، لا تفوته مناسبة يمكن أن يعطي فيها أبناء أمتة شيئاً من علمه وفكره، ولذلك كان بمفرده أشبه بخلية النحل، تجد منها في كل مكان... يحلي صفحات الجرائد والمجلات والكتب، في المحافل والمنتديات والمناسبات، وعلى أمواج الأثير إذاعياً يقدم الأحاديث للناس فيما يهمهم ويشغلهم.

ويشهد لقدري بسعة الاطلاع وطول الباع في مجالات العلم، إلى جانب مخلفاته المطبوعة - تلك المكتبة القيمة - بعدد ما فيها من كتب، وبتنوع موضوعاتها، واختلاف مذاهبها، فمن الكتب في العلم واللغة والأدب إلى كتب في الفلسفة والفقه والسير، إلى دوريات تصدر هنا وهناك. رحم الله «قدري»، ولئن لم يشأ الله عز وجل له بالزواج والخلف، فقد أراد له أن يكون عظيماً في حياته ومماته، فقد أسدى لأبناء بلده وأمتة ما أزهّر في حياته وبعد مماته، وما يبقى على الدهر من علمه وفكره، «لقد كان خير سفير علمي للفكر العربي في الدول الأجنبية»⁽⁵⁾.

وقد رثته فدوى طوقان بأبيات من الشعر قالت فيها:

أما كنت بالأسس ملء العون	فكيف مضيت لحلم عبر
لعمرى لئن خطفتك المنايا	ووارتك تحت ظلم الحفر
فما زلت في كل نفس تعيش	عبيراً زكا وضياء غمر
سقت رحمة الله قبراً طواك	يا سيرة من كبار السير ^(٦)

نعم، إن سيرته لمن كبار السير، وقد نعاها مجمع اللغة العربية في القاهرة، ونشر مقالة عن حياته ضمن كتابه «مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً» بقلم محمد مهدي علام عضو المجمع⁽⁷⁾.

قدري مفكراً

كان لتعدد المجالات التي نشط فيها «قدري طوقان» أثر كبير في تكوين شخصيته، وتوجيه فكره، وقد أبرزت مؤلفاته عن ذلك الفكر، وعن معالم تلك الشخصية وملامحها، ونورد فيما يلي طائفة من آرائه في جملة المسائل، من شأنها أن تعرفنا به:

أولاً - في السياسة:

سبق أن ذكرنا ما كان لوالده من نشاط سياسي، وما كان من إدارته لوزارة الخارجية الأردنية، وإسهاماته الكثيرة في النشاطات العربية والدولية، مما كان له أثر كبير في صياغة الرجل سياسياً، فتأثر بغيره وترك آثاراً في غيره.

ويرى «قدري» أن «السياسة هي رسالة الحياة في أدق صورها ومعانيها»⁽⁸⁾ بمعنى أن السياسة وسيلة كفاح ونضال من أجل حياة شريفة فاضلة لخلق مجتمع أكثر وعياً وإنسانية، والسياسة هي إيمان الشعب والعمل على تحرره من الاستعمار، والتحرر هو ما يؤدي إلى وحدة العرب وتقدمهم... وهي حركة

مقاومة وعمل، لا تخضع لمبدأ وتسمو على العاطفة، وتتغلب على التردد والصعاب، وتكسر القيود والأغلال، والسياسة شعور بالمسؤولية، ومراقبة الحاكمين ومحاسبتهم، ومن هنا يجب أن تضع السياسة صالح الجماعة فوق صالح الفرد. وكان «قذري» يعارض القروض الدولية بشدة، ولا يرى ضرورة لتقبل المعونات الأجنبية، ويدعو في المقابل إلى التضامن الاقتصادي والتساند السياسي بين العرب⁽⁹⁾، وكان يرى «أن إحياء تراث الأمة وبعث ثقافتها لمن أهم العوامل التي تقوم عليها النهضة السياسية، والحركات الاستقلالية»⁽¹⁰⁾، لما في إحياء التراث من تجذير الحاضر في تربة الماضي، ووصل حاضر الأمة بماضيها ليتسنى لمستقبلها أن يكون أصيلاً معافى لا هجنة فيه ولا انسلاخ.

كما حمل طوقان على الاستعمار، وحمله العبء الأكبر من المسؤولية في تخلف العرب، يقول في ذلك «إن تخلف العرب عن السير في ركب الحضارة هو في الواقع من آثار الاستعمارين التركي والأوروبي»⁽¹¹⁾، كما أنه يحمل الاستعمار والخرافات مسؤولية تخلف الشعوب⁽¹²⁾، وهذه حقيقة - لا مرأى فيها - عدوان طارئ أجنبي، وعقلية مجازة، ودعا إلى الحياد والاستعداد المسلح، ونادى بضرورة تعديل الأوضاع الداخلية في الدول العربية⁽¹³⁾، لما في ذلك من تحرير للطاقات، وتمتين للجبهة الداخلية، وإطلاق للجهود على طريق نهضة المجتمع وتقدمه.

ثانياً في الحكم:

«الحكم رسالة ومهنة» هو رسالة سامية معناها الشعور بالمسؤولية والإحساس بالمستقبل، وإذا ما شعر الحاكم بمسؤولية الحكم تحولت القوى الكامنة في الفرد إلى أعمال وجهود تتسم بالتجرد والإخلاص، وبذلك، كما يقول طوقان «يصبح الحكم وسيلة للخدمة العامة، وسبيلاً للإصلاح والبناء والتقدم، وهذا يتم من خلال عمل صاحب الحكم على تفاعل العلم بالمجتمع»⁽¹⁴⁾. إن رسالة الحكم، حسب رأي «قذري» تحتم على الحاكم أن يكون موضوعياً متحرراً من الأغراض التقليدية، ويعمل على الخلق والإبداع من أجل النمو المستمر، والتقدم المتواصل، وكان أشد ما يؤلم صاحبنا هو أن رجال السياسة العرب يسيئون فهم رسالة الحكم فاستغلوها، مما يدفعهم إلى تبرير الأخطاء، وإلى استغلال الحكم لأغراض فردية آنية، وليس اعتبار الحكم مهنة بمعناها الواسع القائم على توجيه فعاليات الحياة توجيهاً يكفل الخير للمجتمع والخير للجميع.

ويرى في مواصفات الرجل الحاكم أن يكون واسع الصدر، بعيد الأفق، وأن يأخذ من النقد والتبصر سبيلاً لتلافي النقص والعلم والإصلاح، كما يشترط في الحكم المستمر أن يكون مستنداً إلى ثقة الشعب بالحاكم.

ثالثاً - في القنبلة الهيدروجينية:

كان «قذري» يعيش أحداث عصره كافة، ولا يفوته أن يكتب عنها، فتطرق في مقالاته وأبحاثه إلى قضايا ذلك العصر، وتناولها بالشرح والتحليل، ومن ذلك القنبلة الهيدروجينية في أول عهدها، وقد تحدث عنها دون أن يكون غرضه بيان طريقة صنعها ومقدار قوتها التدميرية، ولكن أراد بذلك أن يطرح رأيه فيها، وهو ما أجمله بقوله: «أخشى أن يكون الإنسان قد فقد الملاءمة بينه وبين بيئته»⁽¹⁵⁾، بمعنى أنه يخشى استمرار الإنسان في صنع ما يؤدي في النهاية إلى موته وانقراضه، ودعا قذري إلى ضرورة تكيف العقل والبيئة معاً، لتوجيه قواهما للبناء والإثمار من أجل بناء عالم تذيب فيه الأنانية والمطامع الاستعمارية.

رابعاً - في السلام:

يرى أن السبيل إلى تحقيق السلام واحد، ويبدأ بإيمان الدول الكبرى بالحرية والعدالة لجميع الشعوب، كما يرى أن أهم مظاهر الإيمان بالحرية والعدالة الجهاز العالمي المسمى بالأمم المتحدة، وهي العاملة على تنظيم العلاقات وحل المشاكل بالعقل والتحكيم⁽¹⁶⁾ وكانت دعوة «طوقان» إلى السلام والخير والبناء وتسخير العقل للأبحاث من أجل نشر الطمأنينة والسلام⁽¹⁷⁾ ومن هنا يحمل العلماء مسؤولية الحرب والسلام، لأنهم أمل العالم وقودته، ولم يفته دعوة المهندسين وعلماء الذرة لإثبات وجودهم، وفرض السلام، والعمل على تسخير الطاقة لخدمة السلام العالمي.

خامساً - في المثقف:

«المثقف هو من يحاول إدراك الأشياء التي تحيط به، والوقوف على ما يجري من حوله بسرعة، ولا يتم ذلك إلا بالسعي لزيادة المعلومات وتوسيع أفق التفكير»⁽¹⁸⁾. ويخطئ من يظن أن المثقف هو من يحمل شهادة من إحدى الجامعات، أو من قطع شوطاً في ميادين العلم والفن، ويخطئ من يظن أيضاً أن المثقف هو من حاز على لقب علمي من إحدى الهيئات أو الجمعيات العالمية، إذ ليس ضرورياً أن يكون المثقف من هؤلاء، ولكنه قد يكون منهم، كما أنه قد يكون من غيرهم، الذين لا يستمتعون برتب الجامعات ولا برفيع الدرجات»⁽¹⁹⁾. «والمثقف هو المستقيم السائر على طريق الصواب، ولن يعرف إنسان هذا الطريق إلا إذا أدرك بجلاء أنه لم يخلق عبثاً بل ليقوم بأداء رسالات نحو خالقه ونفسه ووطنه». «وهو صاحب الضمير اليقظ الذي لا يرضى بهوان يراد به ولا بظلم ينصب على بلاده»⁽²⁰⁾. «ومن سعى ليكون مهذباً ومستقيماً فهو الرجل المثقف حقاً»⁽²¹⁾ ويحمل «قذري» رجال الفكر وحملة الأقلام والمثقفين وأصحاب العقول مسؤولية كاملة في توعية الناس وزرع الأمل في نفوسهم، وتقوية الإيمان بالحيوية والقابلية، وتطهير القلوب من الخمول والقنوط»⁽²²⁾.

سادساً - في الأخلاق:

ويبدو أن طوقان تأثر بأمير الشعراء «أحمد شوقي» في رأيه في الأخلاق، فهو يرى أن «بلاء هذا العالم في طغيان المادية، وخلاصه في الجمع بين الخلق والعلم». كما يرى أن «الخلق من النفحات الإلهية، به يكتب التوفيق، وعليه تقام دعائم النجاح»، «والفرد بخلقه لا بعلمه»، «وكذلك الأمم ليست بعلمها وفنونها، بل بأخلاقها وضمائرها»⁽²³⁾ وقد حذر من العلم دون اقتترانه بالأخلاق الحميدة⁽²⁴⁾. أجل أن للأخلاق دوراً كبيراً في تنظيم حياة الإنسان على الأرض، وهل بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلا ليتتم مكارم الأخلاق؟ ويبدو أن الأخلاق في أوائل هذا القرن كانت في محنة، وذلك لما بثه الاستعمار في المجتمع من بذور الفتنة والفساد، ولذلك رأينا «أحمد شوقي» يردد في شعره الدعوة للتخلي بالخلق القويم كقوله:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهب أخلاقهم ذهبوا

وقوله:

وإذا ما أصاب بنيان قوم وهي خلق فإنه وهي أس

ويرى «قدري» أن للأخلاق دوراً في حفظ السلم ونصرة المثل العليا فقد «أثبتت التطورات الأخيرة، والمشاكل الاجتماعية الحديثة أن الإنسان إن لم يحتفظ بمقام الروح فوق مقام المادة وسمح للمادة أن تسيطر، غير أبه للخلق ومعاني الخير، فلن تقوم للحضارة قائمة، وسيبقى السلم مهدداً، والمثل العليل في خطر...»⁽²⁵⁾.

سابعاً - في التربية والتعليم:

ذهب «قدري طوقان» في كتابه (بعد النكبة) إلى أنه لا حياة للعرب إلا بالعلم، كما نادى بإحداث تغييرات أساسية في المناهج والأساليب التعليمية، لذلك يجب تركيز الجهود في التربية وتطبيقها على أسس جديدة. «ولهذا فإن الواجب يحتم على الدولة والمفكرين أن يضعوا هيكلًا عامًا للتربية في المدارس، يقوم على بعث النزعات الارتقائية والشهوات التطويرية، وعلى زرع الحقد والكراهية للمستعمرين، وتنمية روح المقاومة لاسترداد الحق السليب، وتقوية الإيمان بالقابلية والشعور بالمسؤولية تجاه المجتمع والإنسانية»⁽²⁶⁾.

كما يرى أن إعطاء المكافآت والحوافز للمعلمين منهج من مناهج التربية، وعلى «الدولة أن تلجأ إلى طرق تحفز المعلم على مواصلة الدرس وتوسيع أفق تفكيره وذلك بالمكافآت المادية والمعنوية وإجراء مسابقات في التأليف...»⁽²⁷⁾، وكان «قدري» حريصاً على تعريف العرب بأمجادهم العلمية ويدعوهم إلى استلهم الماضي وإحياء التراث⁽²⁸⁾، واستمع إليه يتساءل «أليس إهمالاً منا أن نعرف عن بطليموس وكبلر وباكون أكثر مما نعرف عن ابن الهيثم؟ ألا يدل هذا على نقص معيب في برامجنا الثقافية والقومية»⁽²⁹⁾، مع العلم أن «قدري طوقان» هو الذي كان يعرفنا بأولئك الأعلام من علماء الغرب... وتوجيه ذلك أن الرجل لم يكن يرى بأساً في أن يعرف أبنائنا هؤلاء العلماء، لكن دون أن يكون ذلك على حساب جهلهم بعلومنا.

يقول في معرض حديثه عن العالم الأمريكي فرنكلين⁽³⁰⁾ «وهذا المخترع العالم جدير بأن يكون قدوة صالحة، ومثلاً عالياً لعلمائنا الذين يقبعون في بيوتهم أو في معاهدهم ولا يبذلون شيئاً من مجهوداتهم أو تفكيرهم لخير بلادهم»، إنه وخز الإبر، وحر السفود، وبعث للهمم. ويرى قدري أن تراث العرب العلمي ما يصلح لأن يكون منطلقاً ننطلق منه، وأساساً نبني عليه، ولذلك دعا إلى تحليل مناهج العلماء العرب⁽³¹⁾.

ومن لمع آرائه أنه لا فائدة في علم لا يترجم سلوكاً، ولا يتجاوز الظاهر إلى الباطن، «فلا يقاس علم الإنسان بمقداره، بل يقاس بما يحدثه من حيوية وتأثير على حامله، فقد يكون علم الإنسان محدوداً ولكنه نفذ به إلى الجوهر... وعندئذ نجد أن هذا المقدار المحدود (الضئيل) من العلم عاد عليه بالسمو النفسي وبالاقترب نحو الكمال الروحي...»⁽³²⁾.

قدري السلم

يبدو أن مفهوم العروبة والإسلام (الشرقية من وجهة نظر أخرى) كان متداخلاً حتى أواسط هذا القرن. ومن يطالع في آثار «قدري» يقف على هذه الحقيقة، فهو يصدر عن إيمان بالله ومعرفته بدينه الذي ارتضاه لعباده، ويمجد العلم متأثراً في ذلك بالقرآن الكريم، ويرى أن الإنسان لم يخلق عبثاً، ولكن لعمارة الكون وخلافة الله في الأرض. «إذا أيقن الإنسان أنه لم يخلق عبثاً، ولم يبعث لهواً ولعباً... إذا أيقن الإنسان أنه بعث ليؤدي رسالة إلى هذا العالم... تسمو نفسه، وتتضح مواهبه وتزدهر عواطفه، وعندئذ فهو الرجل حقاً الذي تبغيه الفضيلة، ويبغيه الوطن والإنسانية»⁽³³⁾.

ولم تفت «قدري» مناسبة دينية دون أن يشارك في إحيائها ما كان ذلك ممكناً، ومن مقالاته التي توضح ذلك نسوق العناوين التالية: معجزة في صدقة⁽³⁴⁾ وروائع الرسول في حسن الخلق، الذي ألقى في مهرجان المولد النبوي الشريف في نابلس في 1944/3/7م، ودستور الخلاص الذي بثته محطة القدس في رمضان سنة 1364هـ، والتاريخ الهجري... كيف بدأ، والحرية المقيدة الذي أذيع في محطة الشرق الأدنى في 1944/11/23م، وألقى في مهرجان المولد في نادي الشبيبة الإسلامية بيافا⁽³⁵⁾ وغيرها.

ويقف المطالع في مقالاته وأبحاثه على كثير من الآيات والأحاديث يستشهد بها على مقام العقل والعلم في الإسلام. فمن ذلك ما نقله عن علي قال: «سألت رسول الله (ص) عن سنته فقال: المعرفة رأسمالي والعقل أصل ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة كنزي، والحزن رفيقي، والعلم سلاح، والصبر رداي...»⁽³⁶⁾. ومن ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لتأمرن بالمعروف وتنهن عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»⁽³⁷⁾.

ويبدو اهتمامه بالإسلام، ودأبه على التنويه بمكانة العلم فيه، ودوره في خدمته، ونشره، ورفع مراتب أهله في القسم الذي أعده من كتاب (نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية) الذي أصدرته مجلة المقتطف بالاشتراك مع عدد من المؤلفين سنة 1936م، وغيره من الكتب، ككتاب (الروح العلمية عند العلماء العرب والمسلمين)؛ و(العلوم عند العرب والمسلمين) وغيرها.

ويتضح تقديره لدور الإسلام في تشجيع العلم وازدهاره في ما نعت به الجامع الأزهر من قوله «ولعل الأزهر هو الرابطة الأصلية والصلة القومية بين علماء مصر وسائر علماء البلاد الإسلامية والعربية»⁽³⁸⁾ وهذا حقيقة لأمرها فيها، إذ كان الأزهر منارة يهتدي بها ولها طلبة العلم من الأصقاع الإسلامية المختلفة.

قدري قوماً عربياً

يقف المطالع في مؤلفان «قدري» وأبحاثه على الأبعاد القومية التي أسهمت في تشكيل عقليته، ووجهت فكره، فقد أفرد - رحمه الله - كتباً كثيرة، ونشر مقالات عدة حول جهود العرب العلمية، وحول مستقبل الأمة العربية، ومن يقرأ مقالاته (حول التراث العربي)⁽³⁹⁾، و(حاجتنا لما يحيي الخصائص العربية)⁽⁴⁰⁾، و(خدمات أمين الريحاني القومية) الذي ألقى في المهرجان الذي أقامته جمعية الشبان المسيحية

في القدس 1940/12/23م⁽⁴¹⁾ - يدرك إلى أي مدى كان «قدري طوقان» قومي النزعة، عروبي الهوى والأمل، ناهيك عما تفوح به مؤلفاته الأخرى من عبير القومية، ومن ذلك كتبه (الخالدون العرب)، و(العلوم عند العرب)، و(النزعة العلمية في التراث العربي)، و(مقام العقل عند العرب).

وجاء في مقدمة كتابه (وعى المستقبل) «يضم هذا الكتاب عدداً من المحاضرات والمقالات والأحاديث التي هيأتها في مناسبات مختلفات، وأملتها الأوضاع والأحداث في البلاد العربية، وهي تتصل بالتوجيه القومي والحياة والاستعمار...». حيث نجد صاحبنا يصرح بأنه يعتمد في مقالاته إلى التوجيه القومي عن قصد. وجاء في مقدمة كتابه (بين البقاء والفناء) «رأيت أن الواجب القومي والواجب العلمي يحتمان علي أن أتولى مهمة تحرير كتاب عن الذرة...»، إذ يرى الرجل أنه بكتابه هذا إنما يستجيب لحافز قومي.

وكان «قدري» يتمتع بروح قومية ذات بصيرة نفاذة، وكان يرى أن الأمة العربية ذات ماض كريم، ومجد تليد، تضمها أواصر الإخاء، وتجمعها روابط الألفة، فهو يدعو إلى التعاون العلمي والثقافي بين البلاد العربية، ويرى أن «النشاط الثقافي في جامعة الدول العربية يمثل مظهراً حياً للتعاون»⁽⁴²⁾.

وجاء في بحثه (التعاون بين الباحثين).. «أنه لا خلاص للعرب إلا إذا تعاون علماءهم»⁽⁴³⁾، وفي هذا ما يشهد بميوله وغيرته القومية، وجاء في موضع آخر من البحث قوله: «ولقد شهدت أكثر المؤتمرات العلمية وساهمت في أعمالها، وأن الواجب القومي يدفعني إلى القول أن هذه المؤتمرات كشفت قابليات علماء العرب، التي ليست إلا امتداداً لتلك القابليات التي أسهمت في تقدم العلم، وأقامت حضارة استمدت منها الحضارة الحالية وجودها وقوتها... إن في البلاد العربية طاقات كامنة وإمكانات عريضة وثروات دفيئة، وكلها تحتاج إلى إطلاق تلك القابليات واستخدامها في الأغراض التي تؤدي إلى خير العرب»⁽⁴⁴⁾.

ونعتقد أن المرحوم كان يحاول باستمرار أن يرد على المستشرقين ومريديهم ممن يرمون العرب بالتخلف وعدم القابلية للتقدم، ويغصطونهم حقهم، ولهذا نراه يشدد النكير على الكتاب والأدباء في عدم تصديهم لمحاولات النيل من الأمة حاضرها وماضيها، واستمع إليه يتساءل، وهو لا يرى تناقضاً بين الوطنية القومية والإسلام، في هذا السياق «أروني مجلة أو صحيفة صرفت بعض عنايتها لهذه النواحي - إحياء الخصائص العربية والدفاع عنها - أروني باحثاً وقف وقته على الرد على الذين ينتقصون المدنية الإسلامية ويصفونها بأشياء ما أنزل الله بها من سلطان... أليس هذا نقصاً في نهضتنا الوطنية؟»⁽⁴⁵⁾.

ويجد الباحث في أحاديث معاصريه عنه ما يشهد له بالعطاء القومي، والغيرة على أمته، ويبرز مكانته، ويعترف بخدماته الجليلة للتراث العربي، وبيان دور العرب في تقدم العلوم قديماً، وما ينبغي عليهم أن يفعلوه في هذا الزمان؛ لوصل الحاضر بالماضي. قال فيه محمود أمين العالم: «لم يكن اعتباطاً أو مجاملة أن يمنح العالم الكبير وزير خارجية الأردن هذا التقدير من حكومة الثورة في عيد العلم العاشر»⁽⁴⁶⁾، «فقدري طوقان» علم من أعلام الفكر العربي في الوطن العربي كله، و«قدري طوقان» من أخلص من وهب نفسه لدراسة تراثنا العربي القديم، وبحث ما فيه من كنوز فكرية وعلمية أصيلة...»⁽⁴⁷⁾.

قدري أدبياً لغوياً

لا ندري لماذا لم ينتسب «قدري طوقان» لأحد المحافل الأدبية التي كانت في مصر وبلاد الشام، فالرجل أديب وكاتب من طراز رفيع، ولكن، لعل الرجل كان يرى في عضوية مجمع اللغة العربية في القاهرة ما يغني ويزيد.

إن المطالع في مقالات «قدري» وأحاديث الإذاعية وفي كثير من موضوعات كتبه ليقف على نمط من الأدب العلمي، والإنساني، بلغ من العمق والصدق والدقة ما يسمو به وبكتابته، ويجعلنا ننزلها منزلة رفيعة، وأبرز ما تتجلى هذه السمات في مقالاته التي ضمها كتاباه (بين العلم والأدب؛ ووعى المستقبل) اللذان ضمّا عدداً كبيراً من المقالات والأحاديث العلمية والأدبية والتي أملتھا الأوضاع والأحداث في البلاد العربية، مما له اتصال بالتوجه القومي لدى الكاتب، ومكافحة الاستعمار الذي كان ما يزال جاثماً على صدر الأمة، ولكن بشكل جديد.

ونعتقد أن عروبية قدري» تكمن وراء مقدرته اللغوية والأدبية، فجاءت آثاره مزيجاً من العلم والأدب والعروبية، ولما كان مفهوم العروبة لا يستقيم دون امتزاجها بالإسلام الذي هو سبب وحدتها وعزتها فقد كان «طوقان» إسلامي التوجه بالرغم من بعض ما أثر عنه من أمور قد تبدو مخالفة للإسلام.

ونستعرض فيما يلي طائفة من المقتبسات توضح إلى أي حد كان الرجل ضليعاً في لغته، غيوراً عليها، ناهيك عما أثر من مشاركته في حملة التعريب ووضع الاصطلاحات ولجان مجمعي اللغة في دمشق القاهرة.

يقول في حملته على ظاهرة تدني مستوى التحصيل اللغوي وعدم إتقان اللغة من قبل كثير من أبنائها - لو يرى الوضع اليوم - «فهناك الركافة على أمهات والتعقيد والغموض على أوسع درجاتهما، بالإضافة إلى خرق قواعد اللغة خرقاً ينتهك حرمانها ويقض مضاجع سيبويه وغيره من أعلام اللغة وأئمة البيان»⁽⁴⁸⁾.

ولم يكن «قدري» يناقش دون توثيق، ففي حديث عن المثقف استوقف القارئ، وأعاد لقواميس اللغة، لبحث عن دلالة الأصل اللغوي (ث ق ف) فيجد أن دلالاته الأصلية تبتعد كثيراً عن المعنى الشائع، ثم راح يقلب ويعالج فأحال إلى أساس البلاغة للزمخشري، وإلى بيت من أشعار الجاهليين يشهد بما ذهب إليه⁽⁴⁹⁾.

وتتجلى مواهبه الأدبية في كثير من مقالاته، ويخرج القارئ في أعماله بأن الرجل كان واسع الاطلاع على تراث العربية العلمي والأدبي، فهو ينهل من معينه ويتأثر به، ويتحمس له ويتعصب⁽⁵⁰⁾.

ويرى «قدري طوقان» أن علماءنا ينبغي أن يكونوا كسلافهم، موسوعيين كالكسائي والخوارزمي وعمر الخيام والدينوري... ففي مقالة له طريفة عنوانها (الأدب والرياضيات)⁽⁵¹⁾ تحدث عن جمع الخوارزمي بين الأدب والجبر في كتابه (الحبر والمقابلة)، كما تحدث عن جمع عمر الخيام بين الشعر والفلسفة والأدب

والفلك والرياضة. وضرب المثل بأبيات ابن يونس الرياضي الفلكي التي قال فيها:

أحمل نشر الريح عند هبوبه
بنفسي من تحيا النفوس بقره
رسالة مشاق لوجه حبيب
ومن طابت الدنيا به وطيبه⁽⁵²⁾

كان ثمة حافز يكمن في نفس «قدري»، فهو يحركه باستمرار، ذلكم هو تقدم الأمة واسترجاع سؤددتها، وسبيل الأمة إلى ذلك يتمثل في انتهاز ما كان عليه السلف من الأخذ بالعلم على طريق المعرفة والتقدم المادي، والأخذ بالأدب بمفهومه العربي القديم: الأخ من كل فن بطرف، على نفس الطريق، وذلك لإحراز التقدم الروحي والمحافظة على مقومات الشخصية العربية الإسلامية لمقاومة الغزو الأجنبي عسكرياً كان أم فكرياً.

إن هاجس «قدري» الذي كان يرافقه كظله، هو استئناف الأمة مسيرتها الحضارية. قال يخاطب خريجي كلية النجاح بتاريخ 1946/6/28م: «أيها الطلاب، إن رسالة الكلية هي أن تكونوا أقوياء في الخلق والعلم والجسم، إن رسالة الكلية تتطلب أن تربطوا الماضي بالحاضر، وأن يكون الماضي مصدراً للإلهام لا للمباهاة، لتتمكنوا من الكفاح والنضال والخدمة على أسس راسخة متينة، فسيروا في تحقيق هذه الرسالة، واعلموا أن العمل على أدائها عبادة من أسمى العبادات. تصقل النفوس وتظهر الأرواح وتخرجكم إلى حياة المجد والخلود»⁽⁵³⁾.

لقد كان «قدري» أدبياً علمياً ملتزماً بمبادئ الأمة، غيوراً عليها، متعصباً للغته، متقناً لها، ولا يرى حرجاً في تعلم غيرها، ولا في أخذ العلم من أي مصدر كان. وكان - رحمه الله - يصدر عن حس أدبي مرهف، ونفس مؤمنة، تتفاعل مع العالم من حولها، ومن يطلع على خاتمة كتابه (العيون في العلم)⁽⁵⁴⁾ يدرك إلى أي حد نستطيع أن نقول إن «قدري» كان أدبياً.

قدري عالماً

يعد قدري في ثلاثة شاميين عرفوا بتفوقهم العلمي في العصر الحديث، وبجهودهم الكبيرة في خدمة العلم والتراث العلمي العربي، وهؤلاء هم: قدري وعمر فروخ، وجميل صليبا، وقد اهتموا إلى حد كبير بإمالة اللثام عن إسهام المسلمين - والعرب منهم - في تقدم البشرية، والقيام على العلوم المختلفة قروناً كثيرة، ابتداءً من القرن الثامن الميلادي وإلى أواخر القرن السابع عشر.

ونعتقد أن نبوغ «قدري» المبكر، الذي أغرى أسرته بتوجيهه لإكمال الدراسة في الجامعة الأمريكية ببيروت، وتخصصه في الرياضيات - قد تطور مع الزمن - بما اجتمع لدى الرجل من معارف تراثية وحقائق علمية مجردة وثقافة علمية غربية تتمثل في مقالاته وأبحاثه. فمن يطالع في كتبه ومنشوراته يقف على عدد كبير من الأعمال التي خصصها للحديث عن رواد العلم الغربيين، والعرب، وعن موضوعات علمية متخصصة قديمة كانت أو حديثة، وفيما يلي طائفة من أعلام المسلمين الذي كتب عنهم: البيروني، ابن باجة، الفارابي، ابن حزم، ابن رشد، ابن طفيل، ابن الهيثم، أبو بكر الرازي، الغزالي، البتاني، أبو الوفاء

البوزجاني، ابن خلدون، الجاحظ، ثابت بن قرة، ابن حمزة، أحمد بن ماجد الملاح العربي المشهور⁽⁵⁵⁾. ومن الموضوعات التي كتب فيها: الفلك، الطاقة الذرية، واللوغريتمات، الرياضيات، الاصطلاحات العلمية، الهندسة، العيون، العقل، الكون العجيب، وفضل الصفر على المدنية، والملاحاة عند العرب، وبيت الإبرة (البوصلة)، واللانهاية، الشذوذ في النظام الشمسي وغير ذلك مما نجده في كتب متخصصة في موضوعاتها أو مبثوثة في كتب ضمت بين حواشيها مقالاته وأبحاثه.

تحدث «قدري» عن عدد من العلماء الغربيين الذين كان لهم فضل بارز في تقدم العلوم في العصر الحديث، وفي هذا التوجه ما يوضح أن «قدري» كان يؤمن بعالمية العلم، واشتراك الأمم المختلفة في بنيان صرحه. ومن أبرز العلماء الذين كتب عنهم «قدري»، والمقالات التي خصصت لذلك:

1. الممهدون للاكتشاف والاختراع.
2. نيوتن - أمير العلم.
3. الجمعيات العلمية في إنجلترا.
4. ماكسويل الرياضي.
5. أمير الكهرباء - فراداي.
6. آرثر أدنجتون... وغير ذلك⁽⁵⁶⁾.

ومما يشير إلى دور «قدري» في النشاط العلمي العالمي أن الرجل كان عضواً في عدد من المحافل العلمية الأجنبية، ومن ذلك المجمع العلمي لحوض المتوسط، في إيطاليا، ومجلس جمعيات العلوم الرياضية في إنجلترا وأمريكية ومؤتمر المفكرين الذي انعقد في مدينة لاهور بباكستان سنة 1964م، إضافة إلى عدد من المؤتمرات التي عقدت في إيطاليا وسويسرا وإسبانيا والهند وإيران وغيرهما.

وأدى البعد العالمي في ثقافة «قدري» ومناشطه إلى تبني عدد من الدعوات والتوجهات، كان الرجل قد آمن بها لخدمة الإنسان أينما كان، ومن تلك ما غدا مبادئ سامية يتحزب لها الناس ويتأطرون في أبعادها مثل:

- الدعوة إلى حرية الفكر⁽⁵⁷⁾.
- الإخلاص للحق، وتوخي الحقيقة، والدقة العلمية⁽⁵⁸⁾.
- تمجيد العقل وإذكاء الروح العلمية⁽⁵⁹⁾.
- الاهتمام بالجواهر دون القشور والمظاهر⁽⁶⁰⁾.

ويرى «قدري» أن بعض العرب وكثيراً من الأجانب ينظرون إلى التراث العربي، وإلى الجنس العربي نظرة انتقاص، وهو يرى في إحياء التراث العلمي العربي رداً صارماً على هذه النظرة، كما أنه يقتبس في مؤلفاته من أقوال المستشرقين المنصفين ما يجرده سلاحاً على أولئك الذين يغمطون العرب والمسلمين بعامة حقوقهم، ويتنكرون لجهودهم في خدمة المدنية. ومن يطالع في كتبه العلمية يستظهر هذه الحقيقة على نحو جلي، حيث نجده يستشهد بأقوال لسارطون، ودي بور، ولويس برنارد، ودي فو وغيرهم.

قَدْرِي وَطَنِيَا مُنَاضِلًا

لم يكن نشاط «قَدْرِي» مقتصرًا على الناحية العلمية والثقافية، فقد شارك في الحركة الوطنية الفلسطينية منذ صباه، ففي 1930م اشترك في المظاهرات التي كانت تعم فلسطين، كما شارك في المؤتمرات والمحافل السياسية. وفي عام 1936م اعتقل مع مجموعة من أصدقائه، ونفي إلى صرند حيث ظل تسعة أشهر، ولا عجب في ذلك؛ فقد كان يرافق والده «حافظ» في المؤتمرات السياسية المختلفة⁽⁶¹⁾.

وربما كان فيما تقدم تمهيداً لاختياره عضواً في مجلس النواب الأردني من بعد، وتمثيل الأردن (وهو وفلسطين توأمان متداخلان منذ فجر التاريخ) في عدد كبير من المؤتمرات إلى أن تسلم الخارجية الأردنية، فأبلى فيها بلاءً حسناً.

وعندما رفع أستاذة الجامعات والمدارس في أمريكية كتاباً إلى الرئيس روزفلت يطلبون فيه فتح أبواب الهجرة اليهودية... بادر «قَدْرِي طوقان» - بصفته عالماً، وعضواً في الجمعية الرياضية الأمريكية، وخريجاً في الجامعة الأمريكية ببيروت - إلى الرد على كتاب أولئك الأساتذة، وقد نشر رده هذا في الصحف⁽⁶²⁾ وترجم إلى الإنجليزية، وأرسل إلى أستاذة الجامعات في أمريكية ومما جاء فيه: «ومن البيان الذي رفعتموه أيها الزملاء يتبين أن فكرة الوطن القومي وإنشاء دولة يهودية في فلسطين غير واضحة عندهم، قد أحاطتها الدعايات الباطلة، وجعلتها مستساغة لديكم، لا تجدون في الدعوة إليها ما يخرج عن الحق والعدل».

«وهل ضاقت الأرض باليهود فأصبحوا لا يجدون غير فلسطين ملجأ ومأوى» «وإذا كنتم حريصين على مصالح اليهود وتأمين كيان لهم فافتحوا بلادكم للاجئينهم، وبلادكم فيها أقطار شاسعة ومساحات واسعة». «وإذا كنتم أيها الزملاء تستنكرون النازية وأساليبها في إفناء اليهود فإني معكم من المستنكرين لهذه السياسة، الحانقين على منفذها، ولكن لماذا لا تذكرون أن الوطن القومي هو في الحقيقة محاولة إفناء العرب في فلسطين؟» «ولا شك منذئذ بأن الروح العلمية ستفرض عليكم رفع هذا الإجحاف وتصحيح أحكامكم في القضية الصهيونية».

وكتاب «قَدْرِي» (بعد النكبة) يفيض أسى، ويعري الواقع العربي آنذاك، ويضع الأصابع على الجراح بشجاعة وصبر، وقد استعرض فيه قضية فلسطين وملابساتها، ابتداءً من العوامل والمعاول، مروراً بالأساليب التي تبناها العرب في الدفاع عن حقوقهم، ومقاومة الغزاة. ولكن، كان ما كان، وذهبت جهود الأمة المشتتة أدراج الرياح... فقد كانت هناك أسباب للنكبة غير ما كانوا يدفعون.. وما زال القوم يراوون حيث كانوا بالأمس، لم يعتبروا.

ظاهرة التكرار في أعمال «قَدْرِي طوقان»

كثيراً ما نجد أنفسنا مضطرين لتكرار أقوالنا وآرائنا، وليس ادعى لذلك من تكرر المواقف والمناسبات، وكان «قَدْرِي طوقان» متشعب الاهتمامات، كثير النشاطات، فهو مرب وعالم وكاتب وأديب وسياسي ومفكر في آن واحد، وكان إلى جانب ذلك واسع الاطلاع دائمة، تشهد بذلك مكتبته الضخمة قياساً بما كان

عليه عصره، وما عليه أمثاله اليوم. ومن هنا يلحظ الدارس آثاره أنها تتحلى بصفتين بارزتين هما:

- تباين الموضوعات وتنوعها، مما يعكس اتساع معارفه وخلفيته الثقافية.
- تكرار بعض الموضوعات ما بين الكتب والمقالات، وتحديدًا بين ما كان منها مدرسياً، ومنشوراً في المجلات وأعمال المؤتمرات.

وسنعرض فيما يأتي عدداً من الموضوعات التي تكررت في آثاره، وظهرت في غير موضع منها، بعبارتها دون تغيير، أو بتغيير طفيف، ومن ذلك على سبيل المثال:

أولاً - العقل عند ابن طفيل:

- محاضرة أُلقيت في الحفل الخطابي الذي أقيم ببيروت بمناسبة الذكرى الثمانمائة والخمسين لميلاد الفيلسوف ابن طفيل، في 1961/12/17م.
- قصة حي بن يقظان وفلسفة ابن طفيل... مجلة العربي، ص 88 وما بعدها - العدد السادس آذار / مارس 1959م.
- ابن طفيل الأندلس: مبحث ضمنه كتابه (تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك)، الطبعة الثالثة 1963م، ص 389-394.
- ابن طفيل: مبحث ضمنه كتابه (العلوم عند العرب)، دار مصر للطباعة، ص 201-205.
- ابن طفيل: مبحث ضمنه كتابه (الخالدون العرب)، طبعة دار العلم للملايين، بيروت 1954م.
- ابن طفيل: مبحث ضمنه كتابه (العلوم عند العرب والمسلمين)، 1967م، ص 202 - 206.

ثانياً - ابن الهيثم:

- انظر محاضرات ابن الهيثم التذكارية. المحاضرة السابعة في (الأسلوب العلمي عند العرب) أُلقيت يوم السبت 29 / ديسمبر / كانون أول / 1945م.
- ابن الهيثم: ضمن كتابه (الخالدون العرب).
- ابن الهيثم: ضمن كتابه (تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك).
- ابن الهيثم: ضمن كتابه (العلوم عند العرب والمسلمين)، حول محاضرات ابن الهيثم التذكارية: (بين العلم والأدب ص 202). حول محاضرات ابن الهيثم التذكارية: مجلة الثقافة في 1939/9/13م.
- ابن الهيثم: ألقى عنه حديثين في الإذاعة الفلسطينية.
- ابن الهيثم: مجلة المقتطف، مجلة الرسالة عدد 1937/4/5م.
- ابن الهيثم: ضمن كتابه (نواح مجيدة في الثقافة الإسلامية).

ثالثاً - ابن سينا: انظر ما كتبه عنه في كل من كتبه التالية:

- العلوم عند العرب والمسلمين.
- تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك.

رابعاً - الفارابي:

- الخالدون العرب.
- العلوم عن العرب والمسلمين.
- الخالدون العرب.
- مجلة العربي - عد شباط / فبراير سنة 1959م. ص 62 وما بعدها.

ونستطيع أن نقول بإيجاز إن جل الشخصيات العلمية العربية التي ترجم لها وتناولها بالدراسة قد تكررت في كتبه (الخالدون العرب؛ العلوم عند العرب والمسلمين؛ وتراث العرب العلمي في الفلك والرياضيات؛ ومجلة العربي).

ولم تقف ظاهرة التكرار في تراجم الإعلام ودراسة آثارها بل تعدت ذلك إلى الموضوعات العلمية ومن ذلك:

■ موضوع العيون في العلم: فقد تناوله ضمن محاضرات الموسم الثقافي، المحاضرة الثانية، ص 72 وما بعدها، وقد أُلقيت في قاعة الشيوخ يوم السبت 25/شباط/1955م، وأعيد نشرها كتاباً مستقلاً، في سلسلة إقرأ وصدر عن دار المعارف في مصر.

■ أثر العرب في تقدم الفلك: وقد نشر ضمن أعمال المؤتمر العلمي العربي الرابع سنة 1961م. وضمن كتاب (تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك)، وضمن كتاب (نشاط العرب العلمي في مائة سنة)، (تاريخ العلوم ص 15).

إن هذه الظاهرة منتشرة في آثار جميع الباحثين والدارسين والعلماء، وما نراهم يفعلون ذلك انطلاقاً من الرغبة في التكرار ولكن رغبة في انتشار المعرفة في الأمصار، ولا ننسى هنا أن «قذري» كان مربياً محاضراً ومؤلفاً للكتب المدرسية، مما يضطره إلى تكرار نفسه من حين لآخر، فكأن نمط الدرس يملئ عليه أن يعيد ويعيد حتى يفهم القارئ والسامع.

ولو استعرضنا مقالاته في كتابه (بين العلم والأدب) لوجدنا أنها جميعاً تقريباً سبق أن نشرت في المجلات والصحف، وأذيعت من محطة القدس أو إذاعة الشرق الأدنى أو أُلقي في بعض المناسبات الدينية الوطنية، وإليك أمثلة:

- نيوتن، كتاب بين العلم والأدب، مجلة المقتطف. وبثته محطة القدس 1940/5/23م.
- جيمس جينز، كتاب بين العلم والأدب. مجلة الرسالة 1940/8/19م. وبثته محطة القدس.
- ابن ماجد: كتاب بين العلم والأدب. مجلة المقتطف 1904م. وبثته محطة الشرق الأدنى.
- الحرية المقيدة، كتاب بين العلم والأدب. أُلقي في مهرجان المولد النبوي الشريف في نادي الشبيبة الإسلامية بيافا. وبثته محطة الشرق الأدنى.
- خدمات أمين الريحاني القومية، كتاب بين العلم والأدب. أُلقي في المهرجان الذي أقامته جمعية الشبان المسيحية في القدس بتاريخ 1940/12/23م.
- روائع الرسول (ص) في حسن الخلق، كتاب بين العلم والأدب. وقد أُلقي في المولد النبوي الشريف في نابلس 1944/3/7م. ونشر في عدد مجلة العرفان الممتاز.

مؤلفات قذري طوقان أولاً - الكتب

1. كتاب تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: أصدرته مجلة المقتطف بالقاهرة. ثم صدر عن جامعة الدول العربية، الإدارة الثقافية، مطابع دار القلم، القاهرة (3 طبعات متوالية) وهي:
 - طبعة المقتطف سنة 1941م.
 - طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة 1954م.
 - طبعة دار القلم سنة 1963م.
2. نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية: بالاشتراك مع جماعة من المؤلفين المصريين، أصدرته مجلة المقتطف سنة 1936م.
3. كتاب الكون العجيب: سلسلة إقرأ/رقم 11، مطبعة المعارف ومكتبتها - مصر سنة 1943م (3 طبعات).
4. بين العلم والأدب: مكتبة فلسطين العلمية، المطبعة التجارية. القدس 1946م
5. الأسلوب العلمي عند العرب: أصدرته كلية الهندسة - جامعة القاهرة 1946م
6. جمال الدين الأفغاني: مطبعة بيت المقدس - القدس سنة 1947م، وهو في الأصل محاضرة ألقاها في النادي الرياضي الأدبي بنابلس، وفي القدس، وغزة واللد، إحياء لذكرى جمال الدين الأفغاني.
7. العيون في العلم: سلسلة إقرأ / رقم 149 - القاهرة سنة 1955م.
8. بعد النكبة: دار العلم للملايين - بيروت سنة 1954م.
9. وعي المستقبل: دار العلم للملايين - بيروت سنة 1950م، وطبعة ثانية 1953م.
10. الخالدون العرب: دار العلم للملايين - بيروت سنة 1954م.
11. بين البقاء والفناء: سلسلة إقرأ / رقم 149 - القاهرة سنة 1955م.
12. النزعة العلمية في التراث العربي: منشورات المعهد المصري - مدريد سنة 1955م.
13. العلوم عند العرب: سلسلة الألف كتاب، القاهرة الطبعة الثالثة سنة 1963م، بإشراف الإدارة الثقافية بوزارة التربية والتعليم الأردنية.
14. ابن حمزة والتمهيد للوغريتمات: منشورات المعهد العلمي العربي - القاهرة سنة 1958م.
15. مقام العقل عند العرب: دار المعارف - القاهرة سنة 1960م؛ ثم طبع ثانية ببيروت - دار القدس - سنة 1974م.
16. أثر العرب في تقدم علم الفلك: منشورات الاتحاد العلمي العربي، وهو بحث تقدم به للمؤتمر العلمي العربي الرابع 2-9 فبراير / شباط / 1961م. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة سنة 1961م.
17. العلوم عند العرب والمسلمين: كتاب مدرسي أقرته وزارة التربية والتعليم الأردنية في مناهجها. مكتبة الاستقلال - عمان سنة 1961م، ودار الأيتام الإسلامية بالقدس سنة 1965م، وهو من مقررات الصف الثالث الثانوي آنذاك.
18. الروح العلمية عند العلماء العرب والمسلمين: من منشورات مجمع اللغة العربية - القاهرة سنة 1962م.
19. التعاون العلمي بين العلماء والباحثين في البلاد العربية: منشورات مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1963م، وهو بحث تقدم به لمؤتمر المجمع - الجلسة السابعة، 21/شعبان/1382هـ الموافق 1963/1/17م، وصدرت جملة أعمال المؤتمر عن الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.

20. نشاط العرب العلمي في مائة عام: بالاشتراك مع جماعة من الباحثين هم: قدرى طوقان، فاضل الطائي، جان مرهج، عبد الحميد سماحة، أحمد شوكت الشطي، فؤاد صروف، أشرف على إخراجهم: هيئة الدراسات العربية في الجامعة الأمريكية، بيروت سنة 1963م، وطبع في سنة 1964م.
21. حيوية العقل العربي في نقد الفكر اليوناني: من منشورات مجمع اللغة العربية - القاهرة سنة 1966م.
22. أبو الريحان البيروني: الاتحاد العلمي العربي - القاهرة سنة 1966م.
23. العلم مع الحياة: مكتبة دار المعارف - بيروت سنة 1970م.
24. كتاب الهندسة: للسنة التوجيهية، شعبة الرياضيات، وهو مخطوط مسحوب على النسخة.
25. كتاب الأثر العلمي للحضارة الإسلام وأعظم علمائها: وقد ألفه «قدرى» بناء على طلب من مجلة المقتطف لتنشره ضمن كتابه (نواح مجيدة من الحضارة الإسلامية) وتضمن قسمين:
أ. أثر الحضارة الإسلامية في العلوم.
ب. أعظم علماء الحضارة الإسلامية.
26. «ولقدرى طوقان» كتابان لعلهما ضاعا، أو أنه لم ينجزهما:
النزعة الإنسانية في التراث العربي.
أكواف في كون.

ثانياً - البحوث والمؤتمرات

التعاون بين العلماء والباحثين... وقد مر.

1. المصطلحات العلمية: بحث تقدم به للمؤتمر الأول للمجامع اللغوية العلمية بدمشق 1956م، مطابع جريدة الصباح، مصر 1957م، ص 185 وما بعدها.
2. الأسلوب العلمي عند العرب / العيون في العلم / العلم والمجتمع: ثلاثة أبحاث أُلقيت في (محاضرات الموسم الثقافي) الخميس 1955/2/3م. ص 9؛ والسبت 1955/2/5م. ص 27؛ والاثنين 1955/2/7م. ص 51. وقد صدرت عن دار المعارف بكل من الكويت ومصر سنة 1955م وسبق أن أُلقي الأول (الأسلوب العلمي...) ضمن محاضرات ابن الهيثم التذكارية - كلية الهندسة جامعة فؤاد الأول 1945م، وصدرت في كتاب سنة 1946م.
3. أثر العرب في تقدم العلوم الرياضية: بحث تقدم به للمؤتمر العلمي العربي الأول - الإسكندرية 1953/9م. وصدرت الأبحاث في كتاب المؤتمر عن شعبة المحاضرات الثقافية العامة. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة سنة 1954م. ص 71 وما بعدها.
4. الروح العلمية عند العلماء العرب والمسلمين: بحث تقدم به لمؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وصدر عنه ضمن مجموعة المحاضرات والبحوث لعامي 1961-1962م. الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية 1962م - القاهرة ص 275.
5. مبتكرات رياضية: القسم الأول - مجلة الكلية - الجامعة الأمريكية ببيروت - الجزء الأول، المجلد السابع. بيروت 1930/11م، ص 32 وما بعدها.
6. أثر العرب في تقدم الفلك: بحث تضمنه كتاب المؤتمر العلمي العربي الرابع 1961/2/9-2م، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة سنة 1961م، ص 61 ما بعدها.

7. العرب و الطاقة الذرية: بحث تضمنه كتاب المؤتمر العلمي العربي الثاني. القاهرة 1955/9م، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة سنة 1957م ص 188 وما بعدها.
 8. أبو الريحان البيروني: بحث تقدم به للمؤتمر العلمي العربي الخامس. بغداد 1966/3/31-27م. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة سنة 1966م، ص 45 وما بعدها.
 9. الخالدون العرب: مجلة الكتاب. السنة الأولى، المجلد الثاني دار المعارف للطباعة والنشر - مصر عدد شهر 1945/12م.
 10. ابن باجة: مجلة العربي، العدد السادس عشر، آذار 1960م، ص 46 وما بعدها.
 11. الفارابي: مجلة العربي. العدد الثالث. شباط 1959م، ص 62 وما بعدها.
 12. ابن حزم: فيلسوف العرب والإسلام، مجلة العربي. العدد العاشر، 1959/9م، ص 132 وما بعدها.
 13. ابن رشد: مؤسس الفكر الحر. مجلة العربي. العدد الثامن. 1959/7م، ص 71 وما بعدها.
 14. قصة حي بن يقظان وفلسفة ابن طفيل: مجلة العربي. العدد السادس، آذار 1959م، ص 88 وما بعدها.
 15. الأسلوب العلمي عند العرب: ضمن كتاب محاضرات ابن الهيثم التذكارية - المحاضرات السابقة. 1945/12/29م، مطبعة جامعة فؤاد الأول - القاهرة.
- ناهيك عن عدد كبير من المقالات التي نشرت في الصحف والمجلات العربية، و الأحاديث الإذاعية التي تضمنتها كتبه: (بين العلم والأدب؛ والعلم مع الحياة؛ ووعي المستقبل) ومن أبرز الصحف والمجلات التي نشر فيها «قدرى» مقالاته: المقتطف، والرسالة، والثقافة، والعرفان، والدفاع، والأديب، والأمال، والعربي وغيرها. كما كانت لا تفوته مناسبة أو مهرجان دون أن يشارك فيه، إذ كان دائماً في مقدمة المدعوين.
- ولقدرى مشاركات قيمة في عدد من الأعمال الثقافية والعلمية، ومن ذلك مشاركته في التعريف بالمراجع في الدليل البليوجرافي للقيم الثقافية العربية الذي صدر في - القاهرة 1965م. كما شارك في تحرير الموسوعة العربية الميسرة التي صدرت في القاهرة 1965م أيضاً، وفي تحرير مباحث دائرة المعارف التي أشرف عليها د. فؤاد أفرام البستاني، وصدرت في بيروت.

الهوامش

1. عن العباسي (بتصرف) ص 52-54.
2. المصدر نفسه (بتصرف) ص 55.
3. عن شجرة العائلة.
4. بتصرف عن «د. قدرى طوقان بين الذكرى والتاريخ» إعداد مكتبة بلدية نابلس العامة سنة 1975م. ص 3-7. وانظر أيضا ترجمته في إعلام من أرض السلام. تأليف عرفات الهواري. شركة الأبحاث العلمية والعملية جامعة حيفا 1979م.
5. من كلمة د. عبد الحليم المنتصر - عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة، في حفل تأبينه.
6. د. قدرى - مكتبة البلدية ص 24.
7. طبعة الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية - القاهرة ص 147 وما بعدها.
8. العلم مع الحياة ص 138.
9. وعي المستقبل ص 64.
10. بين العلم والأدب ص 94.
11. بعد النكبة ص 52. ولا نوافقه في وصف الأتراك بالمستعمرين، وقرنهم بالإنجليز، وما نرى الرجل يعني العثمانيين.
12. العلوم عند العرب ص 10، ومقام العقل عند العرب ص 231.
13. وعي المستقبل ص 42.
14. العلم مع الحياة ص 138.
15. المصدر نفسه ص 153.
16. وهذا ما شرعت الأمم المتحدة في ممارسته في الآونة الأخيرة، لكن من وجهة نظر تخالف ما سبق إليه قدرى طوقان؛ مع الأسف؟؟
17. قدرى طوقان بين الذكرى والتاريخ ص 10.
18. بين العلم والأدب ص 138، ومثله في صفحة 205.
19. المصدر نفسه ص 140.
20. المصدر نفسه ص 141.
21. بعد النكبة ص 20.
22. بين العلم والأدب ص 186.
23. المصدر نفسه ص 182.
24. المصدر نفسه ص 187.
25. المصدر نفسه ص 179.
26. بعد النكبة ص 26.
27. المصدر نفسه ص 32.
28. العلوم عند العرب ص 76.
29. بين العلم والأدب ص 103.
30. المصدر نفسه ص 74.
31. العلوم عند العرب ص 76.
32. بين العلم والأدب ص 207.
33. المصدر نفسه ص 176.
34. المصدر نفسه ص 210، 216، 238، 247، 264.
35. المصدر نفسه ص 238، 239.
36. المصدر نفسه ص 264.
37. التعاون بين العلماء والباحثين في البلاد العربية ص 1.
38. مجلة الرسالة عدد 216.
39. الأمالي - بيروت - بتاريخ 19/9/1938م.
40. بين العلم والأدب ص 176.
41. أنظر بين البقاء والفناء ص 158، وبحته الموسوم (التعاون بين الباحثين والعلماء في البلاد العربية) ص 17.
42. ص 16.
43. المصدر السابق ص 15.
44. بين العلم والأدب ص 96.

45. يقصد وسام الجمهورية الذي منحه إياه جمال عبد الناصر في عيد العلم العاشر.
46. د. قدرى طوقان ص 22.
47. بين العلم والأدب ص 117.
48. المصدر نفسه ص 138، وأنظر لمثل ذلك أيضا مقام العقل عند العرب ص 9.
49. أنظر خلفيته الأدبية: الموسم الثقافي، الفقرة الثالثة ص 12.
50. بين العلم والأدب ص 111.
51. المصدر نفسه ص 114.
52. المصدر نفسه ص 279.
53. ص 115.
54. راجع مقالاته في مجلة العربي، وكتابه الخالدون العرب، والعلوم عند العرب، ومقام العقل عند العرب، والعلوم عند العرب و المسلمين.
55. بين العلم والأدب، وما ضاع مختلفة.
56. الموسم الثقافي ص 231.
57. العلوم عند العرب ص 80.
58. المصدر نفسه ص 1، ووعي المستقبل ص 37، ومقام العقل عند العرب ص 23 الفقرة الأخيرة.
59. بعد النكبة ص 17.
60. د. قدرى طوقان بين الذكرى والتاريخ ص 3 (بتصرف طفيف).
61. جريدة الدفاع في 3/5/1944.
62. أنظر مقام العقل عند العرب ص 240.

الشيخ سعيد الكرمي

١٨٥٢ - ١٩٣٥

أ.د. أحمد حامد

(نقلا عن مجلة أبحاث النجاح)

تصدير

من شأن الأمم العظيمة أن تكرم علماءها وأعلامها، وحق لهم أن يكرموا، فهم مصابيح الهداية ومناط المعتصمين، وهم البسمة حين تعبس الخطوب.

ولا شك في أن أصحاب الأزمنة المتقدمة قد عرفوا أفضالهم، وكرمهم بشكل أو بآخر، ولكن الأمر قد تبدل في الآونة الأخيرة، فكم من عالم فذ قضى دون أن يوفى حقه في حياته، فلم ينل حظه من التكريم لأسباب نذكر منها أن الناس لم تعد تكبر العلم وأهله كما كانت تفعل من قبل، ولأن عقد الأمة قد انفرط، لا سيما فيما يتعلق بفلسطين، إذ لم يتح للفلسطينيين منذ أمد بعيد أن يبرزوا عن إمكاناتهم إلا نادراً، ولم يتح لأعلامهم أن يتوهجوا في ظل دوحة الوطن إلا قليلاً، فإذا بكثير من أعلامهم لم يشع ذكرهم في الأقطار بقدر ما شاع من ذكر أقرانهم، ولم يحظوا بمثل ما حظي به غيرهم.

ونرى لزماً علينا، نحن الخلف، أن ننهض بمهمة التعريف بأعلام فلسطين في كل مجال، لا سيما أعلام العصر الحديث، مع إبداء اهتمام أكبر بالتربويين الذين أسهموا في نشر رسالة المعرفة، وأثاروا طريق العلم للأجيال المتعاقبة، إنصافاً لهم، وعرفاناً منا بفضلهم، إذ أن من علامات الفضل أن تعرف لكل ذي فضل فضله، وهذا ما أخذته الجمعية العلمية الفلسطينية على عاتقها، وباشرت في إنجازه.

ونأمل في كل مواطن يعرف من أعلام بلادنا علماً يخصه ويرى أنه مغموط حقه... أن يبادر إلى الاتصال بنا، للتعاون في وضع كتيب ننصفه به، ونعرف أبناء شعبه من خلاله عليه، ويخصص لكل شخصية كتيب تجمل فيه حياته وثقافته وجهوده في مجال تخصصه، وفي هذه الدراسة يقدم لنا أحمد حامد أستاذ النحو العربي في جامعة النجاح الوطنية تعريفاً جامعاً بعلم من أعلام التربية والأدب في فلسطين، ذلكم هو الشيخ سعيد الكرمي، ابن مدينة طولكرم (1) البار والرجل العصامي الذي أخذ نفسه بالعزيمة حتى سطع نجمه، وذاع صيته.

وعائلة الكرمي معروفة في الأوساط الأدبية والفكرية بمن أنجبتهم من الأعلام «إذ تدل البيئة الفاضلة التي كانت تعيش فيها أسرة الكرمي على أنها تخضع في حياتها إلى نظام أخلاقي متين ثمرته الثقافة والمواهب من الجدود والآباء إلى الأحفاد».

ومما يشهد بما تقدم مكتبة الشيخ سعيد التي ما تزال قائمة في ديوان آل الكرمي بطولكرم، وإسهاماته الكثيرة في النشاطات التربوية واللغوية، وأشعاره بما في ذلك أراجيز المتون، لا سيما أرجوزته في النحو التي ضمنها قواعد العربية، إضافة إلى أبحاثه التي أتحف بها المكتبة العربية. رحم الله سعيداً، ونفع بما خلفه، فقد كان شعلة في بلده استنارت بضيائها الآفاق. وإلى اللقاء مع علم آخر من أعلام فلسطين.

حياة الشيخ سعيد الكرمي⁽¹⁾

١. نسبته ونشأته:

هو الشيخ سعيد بن علي بن منصور الكرمي الحنبلي الشاذلي⁽²⁾ ولد بمدينة طولكرم سنة 1852 وتوفي فيها سنة 1935⁽³⁾، وبذلك تكون حياته قد امتدت ثلاثاً وثمانين سنة ما شهدت فيها الأمة العربية أسوأ ما شهدته من أحداث سياسية وثقافية واجتماعية واقتصادية، على ما سنرى فيما بعد. والكرمي في نسبه يرجع إلى أسرة عربية قديمة، وفدت إلى فلسطين ضمن عوائل كثيرة، يقول أدهم آل جندي: «أصل أسرة الكرمي من عرب اليمن، وقد استوطنت مصر في إقليم الشرقية، وكله عرب منذ الفتح الإسلامي في عهد عمرو بن العاص، ولما فتح إبراهيم باشا المصري فلسطين وسوريا أتت معه عوائل كثيرة وأقامت في طولكرم، وهذا سبب تكني الأسرة بالكرمي»⁽⁴⁾.

وكان الكرمي قد تحدث عن أصل أسرته فقال: «أصلنا من عرب اليمن الذين جاءوا لفتح مصر مع عمرو بن العاص، ولما فتحت مصر وقسمت أرضها على الفاتحين بأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، خرج سهمنا في إقليم الشرقية الذي سكنته عدة قبائل لم يزالوا معروفين، والبلدة التي سكنها أهلنا اسمها (شبنارة) بفتح الشين وسكون النون، وبما أنه يوجد هناك قريتان بهذا الاسم فتميزت قريتنا بـ (شبنارة الطينيات) ولم يزل أقاربنا فيها للآن، وهم سادتها ويعرفون ببيت الدحار، وأول من جاء منهم لبلاد فلسطين جد والدي»⁽⁵⁾.

وأكد ابنه الشاعر المعروف «أبو سلمى» هذه النسبة فقال: «وقد زرت قرية (شبنارة) هذه يوم الأحد في 24 آذار سنة 1968 مع الأصدقاء السادة عزيز باشا أباطة، وسامي الكيالي، وعبد الرحمن الشرقاوي، وثروة أباطة وتعرفت إلى أهلنا في بيت العمدة الشيخ حسن عبد الكريم الدحار، وأخبرني الحاج محمد الدحار؛ وهو كبير الأسرة، بأنه يتذكر محموداً وأحمد، وأنهما كانا يحضران إلى القرية، ويعلم بأنهما من أقربائهم الذين يسكنون في طولكرم بفلسطين، وكذلك يذكر هذه الواقعة الحاج محمد علي مصطفى أبو حليو، ويضيف بأن أناساً من أسرته نزحوا أيضاً إلى طولكرم منذ القدم»⁽⁶⁾.

ويبدو أن أسرة الكرمي كانت من الأسر التي اتخذت من الثقافة والعلم ميداناً لها، يقول أدهم آل جندي: «وتدل البيئة الفاضلة التي كانت تعيش فيها أسرة الكرمي أنها تخضع في حياتها إلى نظام أخلاقي متين، ثمرته الثقافة والمواهب من الجدود والآباء إلى الأحفاد»⁽⁷⁾.

٢. ثقافته:

درس الكرمي علومه الابتدائية في طولكرم، ثم سافر بعد ذلك إلى القاهرة للتعلم في الأزهر الشريف وبقي هناك حتى حصل على الشهادة العالية النظامية⁽⁸⁾، وكان يحضر وهو في القاهرة دروس الشيخ جمال الدين الأفغاني، كما اتصل مع الشيخ محمد عبده⁽⁹⁾ أيضاً، ولا بد أن يكونا قد أثرا في مجرى حياته الدينية والوطنية، وذلك لما كان لهذين العالمين الشامخين من أثر في نهضة الأمة العربية في ذلك الوقت من جهة، ولما كان لمصر بصورة عامة من دور في توثيق الصلات الأدبية والثقافية والسياسية بين البلاد العربية من جهة ثانية، يدل على ذلك ما قاله الدكتور منصور فهمي في خطبة له ألقاها في يافا إذ قال: «إني سفير مصر إليكم، ولكن لست سفيراً سياسياً بل هناك سفارة أعظم من هذه وهي سفارة الأدب والعواطف المتبادلة بين البلدين، إن هناك سلطاناً عظيماً يصل هذه البلاد ويربطها برباط وثيق وهي اللغة العربية، والصلة الأدبية، فنحن نقرأ ما يكتب أدباؤكم، وأنتم تقرأون ما يكتب أدباؤنا، ويشعر شاعركم فنشعر، ويشعر شاعرنا فتشعرون»⁽¹⁰⁾.

فمصر كانت تفتح أبوابها لأبناء فلسطين من أجل تكميل تحصيلهم العلمي، ولذلك نرى الشيخ سعيد يسافر إلى مصر للتعلم في الأزهر لما لهذا المعهد العلمي من أثر في المحافظة على العربية والتراث العربي بصورة عامة.

غير أن ثقافة الكرمي تعمقت ونمت من خلال اعتماده على نفسه في البحث، والاطلاع على كتب التراث الدينية والأدبية، وما كان يصدر حديثاً في المكتبة العربية، تساعد في ذلك موهبة قوية وذكاء وقاد، قال أدهم آل جندي: «ندر في التاريخ أن أنجبت أسرة عناصر من طراز فريد في العلم والشعر والأدب، فالماهوب لا تكون وراثية بين الأسر بل هي اكتسابية يعود الفضل فيها للقابلية والذكاء والتوجيه المكين»⁽¹¹⁾. وقال أيضاً: «وكان رحمه الله عظيماً في ذكائه وقوة ذاكرته، وامتألت الصحف والمجلات بروائع محاضراته وأبحاثه العلمية التي كان يلقيها في المجمع العربي»⁽¹²⁾.

ووصفه صديقه عبد الله مخلص فقال: «إنه من شيوخ العلم والأدب في فلسطين، طلي الحديث، حاضر البديهة جم الفضل»⁽¹³⁾. وكان للكرمي مكتبة كبيرة في طولكرم حيث ضمت مؤلفات أدبية ودينية ولغوية وتاريخية شتى، غير أن أولاده أخذوا ما أخذوا منها، بالإضافة إلى ما نقل منها إلى دمشق حيث كان يقيم فترة طويلة من حياته، ولم يبق فيها الآن سوى القليل القليل من الكتب البالية القديمة⁽¹⁴⁾. ومهما يكن فإن الكرمي قد استطاع أن يتقف نفسه بنفسه، حتى غدا عالماً له شهرته وسمعته في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحاضر حتى قال فيه الشاعر محمد أبو النصر الخطيب الدمشقي الحسني⁽¹⁵⁾:

«الطويل»

سعيد هو الكرمي، أكرم به فتى
نسيم الصبا بلغ سلاماً معطراً
سما هامة الجوزاء بالغز والفخر
إلى العالم النحرير علامة العصر

وقال فيه إبراهيم طوقان⁽¹⁶⁾

الخفيف

وكأنني بعلمه البحر عمقاً
ونفوس الجالاس تأنف إلا
واتساعاً، بغشاه عذب الورود
عنده أن تكون رهن القيود
بغزير من علمه ومفيد
وغريب من أنسه وعجيب
وطريف من ظرفه وتليد
إلى الأصمعي طبع الوليد
جامع الفضل في الرواية والشعر

٢. نشاطه الوطني:

قبل أن نتحدث عن نشاط الكرمي الوطني يجدر بنا أن نعطي صور عامة للأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في بلاد الشام عامة وفي فلسطين خاصة، وذلك في النصف الثاني من القرن الماضي والثالث الأول من القرن العشرين، وهي الفترة التي عاش فيها الكرمي، وعاصر أحداثها، وشارك بصورة فعالة في كثير من جوانب الحياة فيها، فبلاد الشام في تلك الفترة وقعت تحت حكمين غريبين عنها هما الحكم التركي، والحكم الأوروبي، وليس أحدهما بأفضل من الآخر، إذ كان العرب تحت الحكم التركي محرومين من الحرية السياسية، فلم تسمح لهم السلطات العثمانية بإنشاء أي مركز سياسي، بل لم تعترف لهم بأي كيان قومي أو استقلال إداري؛ حيث كانت الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، «تتخبط في الدياجير المظلمة تسودها أنظمة أتوقراطية عتيقة تقوم على البطش والظلم والحكم الفردي المطلق، وكانت الأقطار العربية الواقعة تحت نفوذها وسيطرتها ومنها بلاد الشام تتخبط في هذه الدياجير نفسها»⁽¹⁷⁾.

وفي أخريات الحكم العثماني، وبالتحديد سنة 1908 صدر الدستور العثماني المعروف⁽¹⁸⁾، واستبشر العرب به خيراً، غير أن استبشارهم هذا بقي مجرد حلم؛ إذ ساءت الأحوال السياسية في البلاد عندما كشفت جمعية الاتحاد والترقي عن نواياها الخبيثة الرامية إلى قتل الأهداف القومية للأمة العربية وإلى العمل على سيادة القومية التركية الطورانية. وقد كان جمال باشا الأداة التي نفذت هذه السياسة العمياء، إذ عمد إلى البطش والتنكيل بكل صوت عربي يرتفع أو يصرخ باللامركزية أو الاستقلالية الذاتية، فألف في عاليه محكمة عسكرية لهذا الغرض تأمر بأمره من أجل محاكمة المواطنين فحكم على مجموعة من رجال العرب الأحرار بالشنق على دفعتين الأولى في آب سنة 1915 والثانية في أيار سنة 1916⁽¹⁹⁾.

وقد كان لهذا الوضع السياسي أثره البالغ على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فالسلطات التركية كانت تسعى ليل نهار إلى جعل العرب أمة فقيرة، بحيث يكون هدفهم الأول السعي وراء لقمة العيش؛ وهيهات الحصول عليها، الأمر الذي سيجعلهم ينسون كل ما يمكن أن يؤدي بهم إلى الحرية أو الاستقلال. فالمجتمع العربي إبان الحكم التركي كان مجتمعاً تفتش فيه الطغاة والإقطاعيون؛ مما نجم عنه وضع اقتصادي تحكمت فيه الفوضى والرشاوى وكثرة الضرائب. كما انحطت الأخلاق إلى درجة لا تتطاق، يضاف إلى ذلك كثرة الأمراض وقلة العلاج، ومصادرة الأموال، وإذلال الناس، وقد صور الكرمي ذلك شعراً كما سترى عند الحديث عنه بوصفه شاعراً.

أما الوضع الثقافي فلم يكن بأحسن من الأوضاع السياسية والاقتصادية؛ إذ أن السياسة تؤثر في الاقتصاد، وكلاهما يؤثر في الحياة الثقافية، وهذا ما حصل فعلاً في الحياة الثقافية في الولايات العربية الواقعة تحت الحكم التركي. فالهدف واحد سواء كان في السياسة أو الاقتصاد أو الثقافة وهو تخريب الأمة العربية في جميع تلك المجالات فالمدارس كانت عبارة عن كتاتيب لا يكاد يحصل منها المتعلم شيئاً غير معرفة سيرة بالقراءة والكتابة، وتجويد القرآن الكريم⁽²⁰⁾.

ويبدو أن السلطات التركية كانت تسمح بإنشاء بعض المطابع الأجنبية في فلسطين؛ علاوة على أنها كانت تسمح بإصدار بعض الصحف والمجلات العربية، غير أن هذه الصحف وتلك المجلات لم تدم طويلاً⁽²¹⁾.

وحين نشبت الحرب العالمية الأولى سنة 1914 بين بريطانيا وفرنسا وروسيا من جهة وألمانيا والدولة العثمانية من جهة أخرى، حاولت بريطانيا استقطاب العرب الناقمين على الدولة العثمانية، وتشجيعهم على خوض الحرب معها ضد العثمانيين مقابل وعود ومواثيق تنص على إعطائهم حريتهم واستقلالهم، ومن ثم أعلنوا الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين بن علي في 10 يونيو سنة 1916⁽²²⁾ ولكن بريطانيا أعلنت على لسان وزير خارجيتها سنة 1917 وعد بلفور المشؤوم الذي ينص على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وخضعت سوريا لسيطرة فرنسا التي عملت مع بريطانيا على تمزيق بلاد الشام وتحويلها إلى دويلات يسهل السيطرة عليها وسلب ثرواتها.

أسوأ ما أصاب العالم العربي في عهد الاستعمار الأوروبي هو السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين وبشتى الوسائل، ثم محاربة الإنجليز لليهود وتسهيل استيلائهم على مساحة واسعة من أرض فلسطين. وفي مقابل ذلك أمعنت حكومة الانتداب في اضطهاد عرب فلسطين، ورفض مطالبهم الداعية إلى الحرية والاستقلال ويبدو أن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عهد الاستعمار الأوروبي أفضل مما كانت عليه في العهد التركي إذ «شاد أبناء فلسطين صرح نهضة اقتصادية بجهودهم الذاتية، وبدافع من حرصهم على تقدم بلادهم، فأقاموا الكثير من الشركات والمؤسسات العربية برؤوس أموال عربية، واستخدمت هذه المؤسسات أعداداً كبيرة من الموظفين العرب، وفي مقدمة تلك المؤسسات البنك العربي، وبنك الأمة العربية، وصندوق الأمة وشركات السيارات التي تربط القرى بالمدن، أو المدن بعضها ببعض والشركات التجارية والتعاونية»⁽²³⁾.

أما الحياة الثقافية فقد تطورت بعض الشيء من حيث زيادة عدد المدارس الحكومية، والصحف والمجلات والمطابع، قال الدكتور ناصر الدين الأسد: «تميز الحكم الإنجليزي الجديد عن العهد العثماني في هذين البلدين - فلسطين والأردن - بميزتين، هما:

الأولى: إطلاق شيء من الحريات.

والثانية: إدخال الوسائل العصرية في أداة الحكم وفي التدريس.

وكان لهذين العاملين أثرهما في الحياة الفكرية الثقافية على ألا يبالغ الباحث في قيمة هذا الأثر، وذلك لأن عمل الإنجليز في هذين المضمارين كان عملاً ضيقاً محدوداً يقوم على التظاهر والإعلان أكثر مما يقوم على الحقيقة»⁽²⁴⁾.

أما التعليم فقد طرأ عليه بعض التطور من حيث زيادة عدد المدارس بصورة ملحوظة عما كانت عليه في العهد العثماني، كما كثرت الصحف والمجلات بصورة جلية⁽²⁵⁾، يضاف إلى ذلك أن الاتصالات الثقافية بين البلدان العربية في عهد الانتداب الإنجليزي كانت أيسر منها في عهد الدولة العثمانية. كما شهدت الساحة الفكرية العربية دعوات فكرية أصيلة لإحياء التراث العربي، وتطوير العربية لمقتضيات العصر الحديث، وكان للبعثات العربية إلى أوروبا أثرها البالغ في إعادة دراسة اللغة العربية وفق ما تقتضيه المناهج الفكرية الحديثة، غير أن الكتاب في هذه الفترة أعني الثلث الأول من القرن الحاضر قد انقسموا إلى قسمين: قسم يدعو إلى المحافظة على العربية وإظهارها كما كانت في عصورها الذهبية الأولى، وقسم آخر يدعو إلى التجديد في ألفاظها وأساليبها وفق متطلبات الحضارة الحديثة، وقد كثرت المساجلات بين أصحاب هذين الاتجاهين بما سمي فيما بعد بالمعركة أو الصراع بين القديم والجديد.

كما شهدت هذه الفترة ظهور المجامع اللغوية كالمجمع العلمي بدمشق والمجمع اللغوي في القاهرة وقد كان لهما دور مهم في إغناء العربية، وتطورها مما لا مجال له في هذا البحث.

هذه هي الصورة العامة للأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية التي نشأ فيها الشيخ سعيد الكرمي، وتفاعل معها، وناضل من أجل تحسينها ورقيا.

٤. نشاطه التربوي:

عاد الشيخ الكرمي من الأزهر إلى مدينة طولكرم حاصلاً على الشهادة العالية، وحين حاولت الحكومة التركية نشر التعليم بين السكان أخذت بإنشاء لجان للمعارف كانت تسمى (قومسيونات) المعارف غايتها إنشاء بعض المدارس بحيث ينفق عليها الأهالي، وفي هذه الأثناء عهد إليه عضوية قومسيون معارف قضاء بني صعب؛ إذ وجه إليه قائم مقام بني صعب كتاباً مؤرخاً بـ (13 رمضان سنة 1301 هـ/ 6 آب سنة 11884 م) يخبره فيه بهذه العضوية لما للكرمي من أهلية ولياقة تامتين لها، وبقراءة الكتاب⁽²⁶⁾ يتضح ما يلي:

- أهلية الكرمي وكفاءته في المشاركة بإدارة شعبة المعارف التي ترمع الحكومة التركية إنشاءها.
- فرصة طيبة لدى الكرمي لإنشاء المكاتب الابتدائية وتعميم المعارف على أبناء وطنه والتفاني في خدمتهم.
- ثقة الحكومة التركية بشخصية الكرمي.
- الإنفاق على هذه المكاتب المزمع إنشاؤها يجب أن يكون شغل الكرمي الأساسي من حيث العمل على جمع التبرعات لأن الحكومة لا تملك من المال ما يمكن أن تساعد به على إنشاء هذه المكاتب.

وفعلاً قام الأهالي من مدينة طولكرم بجمع الأموال ورصدها لتلك الغاية قال أبو سلمى: «لما تأسس قومسيون المعارف في طولكرم قام الأهليون بجمع المال ورصده لفتح الكتاتيب والمدارس والإنفاق عليها، وعينوا لها المعلمين لتعليم الدين واللغة والحساب وحسن الخط والفرائض وما إلى ذلك، ولما كانت الطباعة غير منتشرة أو غير معروفة، عمد المسؤولون في قومسيون المعارف وكتبوا كتباً في هذه الموضوعات كان الطلاب في تلك الكتاتيب والمدارس ينسخونها ويحفظونها.

وذكر الشيخ كمال إسماعيل الذي كان عضواً في المجلس الإسلامي الأعلى في فلسطين ثم رئيساً له في أواخر زمن الانتداب البريطاني أن صاحب السيرة «سعيد الكرمي» وضع كتباً عديدة في كثير من هذه الموضوعات على طريقة الأراجيز وكانت هذه الكتب تدرس في طولكرم»⁽²⁷⁾.

ويبدو أن الكرمي في العهد الأوروبي لم يتول أي منصب تربوي سوى تعيينه رئيساً لمجلس معارف حكومة شرق الأردن سنة 1922 إلى جانب وظيفة قاضي القضاة في تلك الحكومة حيث بقي في هذا المنصب حتى سنة 1926 عاد بعدها إلى طولكرم.

ه. نشاطه الاجتماعي والسياسي:

إن ثقة الحكومة التركية بشخص الشيخ سعيد الكرمي قد دفعته إلى تعيينه رئيساً لقومسيون من أجل حماية المزارعين والفلاحين من المحتكرين، ويبدو أن الحكومة التركية وبخاصة في أواخر عهدها لم تكن مخلصاً في تحسين أوضاع الناس اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً الأمر الذي جعل رجال الأمة العربية ومثقفها يسعون نحو الانفصال عن التبعية التركية «العثمانية» والانضمام إلى الأحزاب المناوئة للأتراك حيث انضم الكرمي إلى حزب اللامركزية الذي كان ينادي بمنح العرب ضرباً من الاستقلال الذاتي، وقد كان هذا الحزب محظوراً من قبل الحكومة التركية، ولذلك أخذت تطارد أعضائه وتزج بهم في السجون، بل أنشأ لهم جمال باشا محاكم صورية اقتضت منهم بحيث أعدموا العديد منهم، ولم ينج الشيخ الكرمي هو الآخر من بطش جمال باشا وظلمه، قال أبو سلمى: «لما بدأت النهضة العربية في أواخر العهد العثماني، وتألفت الجمعيات العربية الوطنية داخل حزب اللامركزية، وأصبح معتمد الحزب في قضاء بني صعب، وعندما أعلنت الحرب الأولى ظهرت منشورات في سوريا تدعو إلى الانقضاء على الترك باسم الثورة العربية فقررت الحكومة العثمانية أن هذا الحزب هو فرع لحزب اللامركزية فأخذت تطارد أعضائه هذا الحزب، وهكذا فقد أُلقت القبض على حافظ سعيد من يافا، والشيخ سعيد الكرمي من طولكرم، وسليم الأحمد عبد الهادي من جنين وعلى كثير من أعضاء حزب اللامركزية من جميع أنحاء البلاد العربية وساقطهم إلى المحكمة العرفية في عاليه»⁽²⁸⁾ وحكم عليهم بالإعدام، ولكن خفف حكم الإعدام عن الكرمي إلى المؤبد ثم عفا عنه جمال باشا لكبر سنه بعد أن قضى في السجن سنتين وسبعة أشهر ليبدأ نشاطاً علمياً جديداً ونعني به النشاط المجتمعي.

٦. نشاطه الجمعي:

حفلت أخريات حياة الكرمي بنشاط علمي وثقافي واسع ظهر من خلال عمله الدؤوب في المجمع العلمي بدمشق، وكان نتاج هذا العمل جملة من البحوث اللغوية والاجتماعية والثقافية التي ساعدت على إحياء التراث العربي، وتصحيح مسار اللغة العربية، ففي سنة 1919 شارك الكرمي مع نخبة من العلماء في إنشاء المجمع العلمي العربي بدمشق، فقد جاء في تقرير رفعه الأستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع إلى السيد صبحي بركات الخالدي رئيس الاتحاد السوري آنذاك ما يلي: «كان المجمع العلمي يعرف لأول أمره بالشعبة الأولى للترجمة والتأليف التي أسست علي أثر تأليف الحكومة العربية في أواخر خريف سنة 1918، ثم جعلت هذه الشعبة ديوان معارف موكولاً إليها النظر في أمور المعارف والتأليف

وتأسيس دار آثار، والعناية بالمكاتب ولا سيما دار الكتب الظاهرية، ثم انقلب هذا الديوان بأعضائه الثمانية ورئيسه إلى مجمع علمي في 8 حزيران سنة 1919، أما أعضاؤه فهم: أمين سويد، أنيس سلوم، سعيد الكرمي، عبد القادر المغربي، محيسن المعلوف، متري قندلفت، عز الدين علم الدين ثم انضم إليهم بعد ذلك الشيخ طاهر الجزائري»⁽²⁹⁾.

وعقد المجمع أول اجتماع له في الثلاثين من تموز سنة 1919، وبحضور جميع الأعضاء، حيث قسم المجمع قسمين: لغوي أدبي، وآخر علمي فني، وكان الكرمي من بين الذين اختيروا في القسم اللغوي والأدبي⁽³⁰⁾. ثم عين نائباً لرئيس المجمع ابتداء من الأول من تشرين أول سنة 1920م حتى نيسان سنة 1922م. وفي قاعات المجمع ألقى الكرمي معظم محاضراته وبحوثه اللغوية والاجتماعية، كما أتاح له المجمع التعرف على كثير من رجالات الفكر العربي المعاصر ممن كان لهم فضل كبير في النهضة الفكرية المعاصرة.

وتقديراً لجهود الكرمي في إنشاء المجمع ودوره في خدمة العربية وآدابها فقد منح وسام جوقة الشرف «شفاليه» فارس.

وحين أصدر عبد الله بن الحسين أمره بإنشاء مجمع علمي في عمان انتخب له سماحة الشيخ سعيد الكرمي ليكون رئيساً له⁽³¹⁾.

«ورغم أن هذا المجمع بدأ أعماله، وعقد أعضاؤه العاملون برئاسة الكرمي عدداً من الجلسات قرر فيها جملة من المقررات المتعلقة باللغة والمصطلحات الإدارية، إلا أن عوامل عديدة أدت بعد فترة من الزمن إلى توقف أعماله»⁽³²⁾ ثم أعيد إنشاء هذا المجمع في عهد الملك حسين ليواصل الدور الذي ابتدئ به زمن جده عبد الله بن الحسين.

٧. مكونات شخصيته:

يمكننا القول إن هناك أربعة عناصر رئيسية اجتمعت معاً لتشكل شخصية الكرمي، وتؤثر في مجرى حياته:

- الموروث العلمي، فهو ابن «الشيخ منصور» الذي كان له دور فعال في تربية ابنه تربية دينية إسلامية.
- الأزهري، الذي صقله هو الآخر فجعل منه شخصية دينية ووطنية مرموقة ومخلصة لدينها ولوطنها.
- السجن، الذي نَمى شاعريته وطبعها بالعاطفة النبيلة والرقيقة كما فجر نغمته على الأتراك وأفعالهم السيئة في الولايات العربية التي خضعت تحت حكمهم.
- الجامعات اللغوية، التي أتاحت له الاتصال بأكابر العلماء في عصره، والتأثر بمسالك تفكيرهم والتعاون مع الكثير منهم على إحياء العربية، وعلى النهوض بها لتكون قادرة على استيعاب مستجدات الحضارة المعاصرة والتصدي للدعوات الهدامة التي تمس جوهر اللغة في حروفها، وألفاظها، وأساليب القول فيها.

٨. آثاره:

ترك الكرمي جملة من الآثار في العلوم اللغوية والاجتماعية والدينية، وهي في معظمها محاضرات وبحوث نشرت على صفحات مجلة المجمع العلمي بدمشق، يضاف إلى ذلك أنه طبع رسالة في التصوف بعنوان: «واضح البرهان في الرد على أهل البهتان»⁽³³⁾ وذلك في سنة 1875م.

كما أن الكرمي كان يقرض الشعر، وله عدة قصائد، جمعها ابنه أبو سلمى في كتابه عن أبيه، كما نظم قواعد العربية في أرجوزة سماها «أرجوزة في النحو»⁽³⁴⁾. وعلى الرغم مما جمع أبو سلمى من آثار أبيه إلا أنه يبدو أن هناك بعض الآثار قد نهبت أو صودرت من قبل الحكومة التركية؛ إذ قد جاء في السجل العام السوري للموظفين عن الكرمي ما يلي: «ذكر في ترجمته أن له مؤلفات عديدة ضبطت من قبل الأتراك هي وغيرها من كتبه»⁽³⁵⁾.

ومهما يكن فإن آثار الكرمي التي وصلت إلينا قليلة لا تتناسب مع منزلته العلمية والمكانة الاجتماعية التي له، وذلك لانشغاله في أول أمره بالشؤون السياسية ولتسلمه فيما بعد المناصب الحكومية الرفيعة وانشغاله بها»⁽³⁶⁾ غير أنها على قلتها كافية إلى حد ما لإظهار دور الكرمي في البحث وفي إظهار شاعريته.

الكرمي باحثاً:

قدم الكرمي جملة من البحوث في اللغة والاجتماع والثقافة العامة تكمن قيمتها في وقتها، أي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، إذ كان التراث بصفة عامة واللغة العربية بصفة خاصة أحوج ما يكون إلى الإحياء والبحث والدراسة، وقد جاءت هذه البحوث في فترة شهدت صراعاً عنيفاً بين تيارين:

أحدهما يدعو إلى المحافظة على التراث العربي، واللغة العربية وآدابها، والعادات والتقاليد الإسلامية العربية الأصيلة وفق ما كان عليه في القديم ويأتي في مقدمة الداعين إلى هذا التيار مصطفى صادق الرافعي والأمير شكيب أرسلان.

وثانيهما يدعو إلى التجديد في كل نواحي الحياة مادية، واجتماعية وعقلية وروحية ويأتي في مقدمة أصحاب هذا التيار طه حسين وسلامه موسى⁽³⁷⁾.

غير أن الكرمي لم يدخل في هذا الصراع، إذ لم نعثر في بحوثه على ما يشير إلى أنه من أنصار هذا الاتجاه أو ذلك، كما هي الحال في المساجلات التي وقعت بين خليل السكاكيني وشكيب أرسلان مثلاً.

أما بحوثه فيمكن أن نقسمها ثلاثة أقسام:

- أ. بحوث في اللغة.
- ب. بحوث في الاجتماع.
- ج. بحوث في الثقافة العامة.

أما بحوثه في اللغة فنتناول منها بحثين هما:

- اللغة والدخيل فيها.
- الإعلام بمعاني الأعلام.

ونقول، بادئ ذي بدء، لقد أحب الكرمي العربية؛ فعكف على دراستها بدقة ووعي، ولا غرابة في ذلك فهو ابن الأزهر، وهو قاض لفترات طويلة كما رأينا في سيرته، ولذلك كان لابد من الاطلاع على أسرار العربية ودقائقها ليتمكن من التفسير والإفتاء، فكان يرجع إلى أمهات الكتب اللغوية القديمة ليستقي منها معارفه، وكان يرى أن لابد من تقديم حصيلة هذه المعارف إلى القراء حتى يعرفوا لغتهم حق معرفتها، ويدركوا أن علماء العربية القدماء قد بذلوا جهداً كبيراً في سبيل المحافظة عليها نقية أصيلة لا تخالطها عجمة ولا يشوبها لحن أو تشويه.

وقد عرض الكرمي في مقدمة بحثه «اللغة والدخيل فيها» لحال العربية قبل الإسلام وبعده، مبيناً دور الشريعة الإسلامية في إثراء اللغة بمفردات لم تكن معهودة للعرب قبل الإسلام بالإضافة إلى ألفاظ أخرى كانت معروفة ولكن معانيها قد تطورت بفضل الشريعة الإسلامية، كما أشار لما كان للفتوحات الإسلامية من دور في ولوج كثير من المفردات الأجنبية إلى اللغة العربية، تصرف علماء اللغة فيها وفق ما كانت تقتضيه طبيعة اللغة وقواعدها.

ولم يفت الكرمي أن يبين مزايا العربية وغرابتها، وتفنن العرب في ضبطها والتأليف فيها فيقول: «ولم تضبط لغة من اللغات ضبط اللغة العربية، ولا تفنن أهل لغة في أساليب تأليف كأهلها وذلك لكثرة تصريفها وصيغها»⁽³⁸⁾.

وفي رأينا أن الكرمي تحدث عن العربية في عصورها الذهبية ليقارنها بما آلت إليه في أوائل القرن الحاضر، وذلك حين حاول الأتراك والمستعمرون الأوروبيون خلق الحواجز والعوائق بين أبناء الأمة الواحدة عن طريق إحياء اللهجات العربية، واتخاذها وسيلة للصراع بين أبناء الوطن العربي، فقال: «فكيف بنا الآن وقد صرنا إلى عصر صارت اللغة فيه فوضى كالأخلاق، تشوهت فيه وجوه أبنيتها فضلاً عن حركات إعرابها، وقد كانت الأغلاط قبلاً معدودة، ألف فيها الجواليقي كتابه المسمى (إصلاح ما تغلط فيه العامة) والحريري، (درة الغواص في أوهام الخواص) على أن أكثرها لم يسلم له إنهاء غلطها، ولم يزل يوجد في كل عصر من ينهب على غلطات أهله»⁽³⁹⁾.

ومن ثم دفعته غيرته على العربية إلى أن يتصدى في هذا البحث لقضية لغوية قديمة وحديثة في نفس الوقت وهي قضية التعريب، ويمكننا أن نوضح الخطوط العريضة لهذه القضية كما سردها على النحو التالي:

- أ. المصطلحات اللغوية الخاصة بها؛ وهي المعرب والترجمة والدخيل والمولد والمصنوع.
- ب. طريقة العرب في التعريب.
- ج. من له حق التعريب.

وتجدر الإشارة إلى أن طريقة الكرمي في البحث تتمثل في طرح الرأي أو الآراء على بساط البحث والمناقشة مستنداً في إبداء رأيه على المصادر اللغوية القديمة حيناً، وعلى اجتهاده حيناً آخر، وهذا يعني من وجهة نظرنا أنه لا يقبل برأي لمجرد أن هذا العالم أو ذاك قال به، وإما يناقشه بتمعن وتدبر حتى يستقر في ذهنه مفهومه الصحيح، ثم يذكره في بحثه.

ففي المعرب ينقل الكرمي تعريف القدماء له فيقول: «فالمعرب هو ما استعمله العرب من الألفاظ لمعان في غير لغتها، قال في الصحاح: تعريب الاسم الأعجمي أن تتفوه به العرب على مناهجها، تقول عربته العرب وأعربته وسماه سيبويه إعراباً وهو إمام العربية فيقال معرب، ومعرب»⁽⁴⁰⁾ وقد لاحظ الكرمي أن القراء يخلطون ما بين التعريب والترجمة فنبه على أن الترجمة شيء والتعريب شيء آخر فقال: «أما الآن فقد طفح الكيل وطما السيل حتى صار الفصيح هو الذي يعد فتركنا ذلك هملاً، وأقمنا ضجة حول أسماء الأشياء الحديثة التي ليست بعربية لنضع لها أسماء عربية أي لترجم ذلك الاسم إلى لغتنا العربية بلفظ عربي، وليس هذا من التعريب في شيء بل هو ترجمة»⁽⁴¹⁾.

ثم إن المعرب يعبر عنه أحياناً بالدخيل، والدخيل يضم المولد والمصنوع، أما المولد فهو «ما أحدثه المولدون الذين لا يحتج بألفاظهم»⁽⁴²⁾ ولئن كان الكرمي يرى أن المعرب هو الدخيل؛ فإن الدراسة اللغوية الحديثة فرقت بينهما من حيث إن الدخيل «هو اللفظ الأجنبي الذي دخل العربية دون تغيير على عكس المعرب الذي أدخلته العرب في لغتها ولكن بتغيير طفيف فيه»⁽⁴³⁾. وقد تعرض الدكتور حسن ظاظا للفرقة بين المصطلحين فبين أن المعرب هو ما استعاره العرب الخلف في عصر الاحتجاج باللغة من أمة أخرى واستعملوه في لسانهم، أما الدخيل فهو ما أخذته العربية من لغة في مرحلة متأخرة من عصور الاحتجاج⁽⁴⁴⁾.

أما المولد فإن للكرمي رأياً خاصاً فيه يتمثل في قوله: «وعندي أن الألفاظ المولدة إن كانت مبتكرة من المولدين كلفظ (ملتن) المستعمل في مصر للريح الشديدة التي في وجه البحر الملح؛ فيقف ماؤه في وجه النيل فيتوقف حتى يروي البلاد، كما فسرهما السيوطي، أو بتحريف كلفظ (ست) بدل سيدة فهذا لا كلام في تسميته مولداً، وأما إن كان اللفظ عربي الأصل واستعمل في غير ما وضع له لعلاقة فلا أرى أن يسمى مولداً من ذلك كلمة منصب تستعمل بمعنى الوظيفة كأنه محل لنصب الرجل وتطلق في الأصل على أثافي القدر فكأنها هنا استعملت استعمالاً مجازياً، والمجاز ليس بممنوع في العربية»⁽⁴⁵⁾.

أما المصطلح الأخير من المصطلحات التي تتعلق بقضية التعريب فهو المصنوع: «وهو ما يورده صاحبه اختلافاً على أنه عربي فصيح وليس منه»⁽⁴⁶⁾ وهذا يعني أن المصنوع غير مقبول عند علماء اللغة لعدم أصالته في العربية.

ثم يتناول الباحث طريقة العرب في تعريب الألفاظ الأجنبية؛ فينقل قول سيبويه: اعلم أنهم «أي العرب» يغيرون من الحروف الأعجمية ما ليس من حروفهم البتة فربما ألحقوه ببناء كلامهم وربما لم يلحقوه، فأما ما ألحقوه ببناء كلامهم فدرهم ألحقوه بهجر (الأحمق) وبهجر (زيف) ألحقوه بسلهب

(الطويل من الخيل) ودينار وديباج ألحقوه بديماس (الحمام) وقالوا: إسحاق فألحقوه بإعصار... وربما تركوا الاسم على حاله أي من غير تغيير من حروفه إذا كانت حروفه من حروفهم كان على بنائهم أو لم يكن نحو خراسان وخرم وكركم وربما غيروا الذي ليس من حروفهم ولم يغيروه من بنائه في الفارسية نحو: فرند وبقم وأجر وجربز»⁽⁴⁷⁾.

غير أن هناك كثيراً من الألفاظ العجمية المعربة وردت على غير أوزان العرب، وورد كثير منها معرباً بغير تغيير مثل كلمة (سؤر الطعام) الذي يدعى إليه الناس، وكذلك النوروز والياسمين والكشك.

ويرى الشيخ الكرمي أنه إذا كان في الكلمة التي يراد تعريبها حرف ليس من الحروف العربية؛ ففي هذه الحالة يجب إبدال هذا الحرف بأقرب الحروف إليه من هذه اللغة؛ وذلك مثل الباء والجيم والكاف الفارسيات، وهو الصحيح الذي يعول عليه من وجهة نظره. وقال أيضاً: «وربما أبدلوا حرفاً عربياً منه بأخف منه لفظاً كسكر فإن أصله شكر، وسراويل فإن أصلها سراويل حرصاً على سهولة التلفظ فإن تركيب الحروف له دخل في سهولة التلفظ باعتبار مخارجها»⁽⁴⁸⁾.

ويتصل بكيفية التعريب ما أطلق عليه علامات التعريب إذ استقصى علماء العربية علامات لو وجدت في الكلمة فإنها تكون غير عربية، ومن هذه العلامات الخروج على أوزان العربية كلفظ إبريسم إذ لا يوجد في العربية (إفعيل)، ومنها أن يكون اللفظ مبدوءاً بـ (نر) كنزجس، أو يكون فيه دال بعدها زاي كمهندز، ومنها خلوه وهو رباعي أو خماسي من حروف الذلاقة التي يجمعها قولك: فرض لب. ومنها أن يجتمع فيه الجيم والراء دون الحروف المذكورة كآجر، أو القاف والطاء كقسطاس وقرطاس، ومنها أن يجتمع فيه من الحروف ما لا يجتمع فيه كلام العرب كالجيم والقاف بلا فاصل نحو قج، وجق، والصاد والجيم نحو صولجان، والكاف والجيم نحو سكرجه»⁽⁴⁹⁾.

أما الموضوع الثالث الذي تناوله في هذا البحث فهو الإجابة عن السؤال التالي: من الذي له حق التعريب؟ إذ يشير في الإجابة عن هذا السؤال إلى أن اللغويين القدماء كالثعالبي والجواليقي وغيرهما قد نصوا على أن التعريب مخصوص بالعرب الموثوق بعربيتهم. كما أشار إلى أن الشهاب الخفاجي قد نص على أنه، أي التعريب، سماعي فما عربه المتأخرون هو من وجهة نظره، يعد مولداً. غير أن الكرمي، هنا، يقف من هذا الرأي موقف العارض للرأي لا المناقش. إذ لم يبين أحقية المحدثين في التعريب؛ بمعنى هل يجوز لنا نحن المحدثين تعريب الألفاظ الأجنبية؟ ولكن يبدو أن مجرد عرض الكرمي لمفهوم التعريب وإيمانه بأن اللغات يقتض بعضها من بعض فلا مناص من أن التعريب ينبغي أن يكون مستمراً على مدى العصور ما دامت اللغة حية.

ويتصل بأحقية التعريب سؤال آخر: متى يحق للعرب التعريب؟ هذا سؤال طرحه صاحب أقرب الموارد⁽⁵⁰⁾ ونقله الكرمي في بحثه وناقشه بإفاضة إذ قال: «ومن التحكم الذي لا مستند له قول صاحب أقرب الموارد: أن الضرورة تقضي باستعمال المعرب عند خلو اللغة من لفظ يؤدي مؤداه، فما كان من هذا القبيل فلا بأس، وأما ما أدخله مجرد المخالطة ودسه الجهل في هذه اللغة الشريفة من المعربات قديماً وحديثاً مما له في لغتنا مرادفات فلا بد من رفضه»⁽⁵¹⁾.

ويناقش الكرمي رأي صاحب أقرب الموارد مناقشة دقيقة مستنداً إلى أمثلة لغوية واقعية فيقول: «إن كان قصده بالقديم ما كان على زمان العرب، فهذا لا نوافقه عليه لأن العرب عربت الإقليد والمقاليد مع وجود المفتاح والمفتاح، واتبعهم من بعدهم فاستعملوا القفشليل مع وجود المغرفة غير أنهم ذكروا أن استعمال الإقليد والمفتاح سواء، ثم قوله: هذا لا يستقيم أيضاً في الأعلام فإن كل الأعلام المعربة يوجد في العربية ما يؤدي معناها كيوحنا ويحيى وأب رحيم بدل إبراهيم وهكذا فعلى قوله أن ترفض هذه المعربات لوجود ما يؤدي مؤداها في العربية وليس الحال كذلك»⁽⁵²⁾.

ونخلص من هذا البحث إلى النتائج التالية:

إن الكرمي قد وقف عند قضية التعريب مستقصياً أصولها من أمهات الكتب العربية القديمة، موضحاً منهج العرب في مواجهة الألفاظ الأجنبية الدخيلة. إن الكرمي يفرق بوضوح تام ما بين التعريب والترجمة ويدعو إلى عدم الخلط بينهما. كما يدعو إلى عدم الخلط ما بين المولد والمصنوع أو بين المعرب والدخيل. أن الكرمي لا يقبل الرأي بسهولة كما لا يرفضه إلا بعد مناقشة مستفيضة. مدعماً رأيه بأمثلة من واقع اللغة قديماً وحديثاً. يبدو أن قيمة بحثه هذا يرجع إلى الزمن الذي عاش فيه الكرمي، وهو زمان كانت العربية فيه تتجاذبها تيارات حضارية عنيفة تبعها ولوج كثير من الألفاظ فيها الأمر الذي لا بد معه من وعي فكري دقيق.

يرى الكرمي أن الألفاظ التي لها أصل عربي ثم استعملت في غير ما وضعت لها فهي ليست من الألفاظ المولودة وإنما هي تدخل تحت باب المجاز وهو أمر مباح في العربية.

أما البحث الثاني الذي قدمه الكرمي في اللغة فهو «الإعلام بمعاني الأعلام»، وقد نشر في سلسلة من المقالات في مجلة المجمع العلمي بدمشق فيما يقارب الخمسين صفحة منها.

أشار الكرمي إلى أن السبب الذي دعاه إلى البحث في الأعلام التي كثيراً ما تتردد على الألسنة عند رواية حديث أو خبر... هو رغبته في معرفة نسب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقال: «وابتدأت بذكر نسب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أول ما دعاني إلى هذا البحث، ولأنه صلى الله عليه وسلم كان سبباً في الانقلاب الأخلاقي والاجتماعي، كما كان سبباً في الانقلاب اللغوي بالقرآن الكريم الذي أعجز البلغاء أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه»⁽⁵³⁾.

إذا كان السبب الرئيسي الذي دعا الكرمي إلى كتابة بحثه هذا هو معرفة الأسماء التي ينتمي إليها نسب الرسول الكريم وما يتعلق بهذه الأسماء من الأخبار والمعارف فضلاً عن اشتقاقها اللغوي فإنه راح يجمع كل ما يرد إليه أو تصل إليه يده من كتب تعنى باللغة وبخاصة فيما يتعلق منها بالاشتقاق وكما كان سروره حين وصل المجمع العلمي بدمشق كتاب الاشتقاق لابن دريد حيث وجد فيه ضالته كما يقول⁽⁵⁴⁾.

ومن ثم عقد العزم على تلخيصه وإعادة ترتيبه، ويبدو أن كثرة انشغاله بأمور أخرى غير البحث اللغوي قد حالت دون إتمام ما عقد العزم عليه، ومن ثم اقتصر على تلخيص ما يمكن أن يفيد في حياتنا الثقافية المعاصرة وترك الكثير مما ورد في كتاب ابن دريد.

وكانت الخطة التي رسمها الكرمي لبحث الأعلام تتمثل في استيفاء ما جاء حول أسماء نسب الرسول الكريم أولاً، ثم دراسة الأعلام المشهورة بعد ذلك مرتبة حسب حروفها الهجائية. والسؤال الآن الذي يتصل بهذه الخطة هو: كيف كان الكرمي يتناول دراسة ما أورد من أعلام؟ والإجابة عن ذلك نقول: أن الكرمي كان يذكر العلم المختار من كتاب ابن دريد، ثم يحقق ما قيل حوله، مكملًا ما نقص عند ابن دريد بما ورد في كتب الأدب والتاريخ والمعاجم اللغوية. وهذا كله لم يمنعه في كثير من الأحيان من إبداء رأيه على نحو ما فعل في تناوله لاسم (أبرهة)؛ إذ قال بعد أن استقصى هذا العلم وحققه في كتب التاريخ واللغة: «وإنما أشرت ذكره لهذا، لأنني رأيت بعض العلماء وفيهم ابن دريد يقول: إن هذا الاسم حبشي أي فلا اشتقاق له، وهو عندي بعيد؛ لأن المسمى به عربي محض، فأخذت في البحث عن هذه المادة فوجدت في القاموس: البره مُحَرَّكة التَّارَة (أي امتلاء الجسم من اللحم) ومنه (البرهرة) وهي المرأة البيضاء الشابة والناعمة، وبره الرجل كفرح برها) كلاهما بالتحريك ثاب جسمه بعد علة وابيض وهو أبره وهي برهاء، وأبره الرجل إذا أتى بالبرهان أو أتى بالعجائب وغلب الناس، فلم لا يكون مأخوذاً من أحد هذه المعاني وزيدت فيه التاء، ولعل الذي دعاهم إلى القول بأنه حبشي أنه اسم أبرهة خادمة النجاشي التي أسلمت وكانت صحابية كما أنه اسم لأبرهة الأشرم الحبشي»⁽⁵⁵⁾.

ومثل ذلك فعل في تناوله للعلم (سلمان)، فبعد أن عرض لمسمى هذا العلم وما ورد حوله من أقوال في كتب التاريخ واللغة عرض لاشتقاقه فذكر قول ابن جني فيه وهو مشبه لقحطان من قحطى وليلان من ليلى، إذ أنهما كانا من لفظ واحد فتلاقيا في عرض اللغة من غير قصد ولا إيثارت لتقاودهما، وليس سلمان وسلمى بصفتين ولا نكرتين فلا يجوز على رأي ابن جني أن تقول: هذا رجل سلمان ولا هذه امرأة سلمى كما تقول رجل سكران وهذه امرأة سكرى. وهنا يعارض الكرمي متواضعاً ابن جني فيرى أن سلمان وسلمى صفتان، يقول: «وأنا أقول وإن كان لا يجوز لمثلي أن يعارض قول ابن جني أن سلمان من سلمى»⁽⁵⁶⁾. وفي رأي الكرمي أن سلمان مشتق من السلامة فتكون في الأصل صفة بمعنى أننا نستطيع القول: رجل سلمان، وامرأة سلمى غير أن الكرمي أردف قائلاً: «الهم إلا إذا كان قصده - أي ابن جني - بسلمى التي ليس منها سلمان أحد جبلي طي (أجا وسلمى) فهذا لا نزاع في أنه اسم غير مصدر ولا صفة؛ كرضوى اسم جبل أيضاً، أما تسمية الرجل بسلمان فلم يقصد بها إلا وصفه بالسلامة تفاؤلاً كما لا يخفى»⁽⁵⁷⁾.

وإذا كان الكرمي يحقق العلم من حيث اشتقاقه أو جمع شتات ما قيل حوله في كتب التاريخ والأدب؛ فإنه كان يعرض له من الوجهة النحوية والصرفية على نحو ما يبدو في حديثه عن العلم (سلمى) إذ قال: «اعلم أن ألف التأنيث المقصورة كما في شرح الإيضاح، تلحق بناء مختصاً بالتأنيث، وقد تكون للإلحاق، ولا حاجة بنا إلى ذكرها بل نذكر الأولى، وذلك فعلى مضموم الفاء ساكن العين، وهي على ضربين: أحدهما أن يكون تأنيث الأفعال كالفضلى والأفضل والكبرى والأكبر، ولا تستعمل هذه إلا بالألف واللام أو الإضافة

نحو: خرجت الفضلى وفضلى النساء... والضرب الثاني فعلى التي ليست مؤنث أفعَل، ويختص بناؤها بالتأنيث فهذه لا يلزم دخول الألف واللام عليها معاقبة لمن الجارة، كفعلى مؤنث أفعَل، لأنها ليست للتفضيل وهي على ثلاثة أضرب، الأول: اسم ليس بصفة كالبهمي اسم بنت. والثاني: أن تكون مصدرًا كالبشرى... والثالث: ما كان صفة كالحبلى.. فسلمى إن لم تجز كونها تأنيث الاسم وإن استعملت استعمال دنيا وأخرى يمكننا أن نقول أنها من باب الصفة كحبلى صوتًا لكلام العرب من اللحن»⁽⁵⁸⁾.

وعلى هذا المنوال سار الكرمي في تناوله للأعلام المشهورة باحثًا ومحققًا لها في كتب التراث الأدبي واللغوي والتاريخي، ولا يفوته أن ينبه غيره على ما صح في هذا العلم أو ذاك، على نحو تنبيهه للأستاذ عبد الله مخلص حول معنى الأرقم، وذلك أن الأخير كان قد نشر في مجلة الزهراء مقالًا عن الأرقم، ويبدو أنه لم يطلع على كل ما قيل حوله، فلما قرأ الكرمي مقالته؛ رد عليه ردًا نبه فيه على الجوانب التي غفل عنها مخلص⁽⁵⁹⁾ ومهما يكن؛ فإننا نستطيع أن نتوصل من هذا البحث إلى النتائج التالية:

إن بحث الكرمي في الأعلام دعوة غير مباشرة لإعادة ترتيب كتاب الاشتقاق لابن دريد ترتيبًا يخدم الثقافة العربية المعاصرة.

إن بحث الكرمي لو كتب له الإنجاز لكان أوفى من كتاب ابن دريد من حيث الإحاطة بكل ما يتعلق بالأعلام إخباريًا ولغويًا. ذلك أن الكرمي لم يقتصر على ما ذكره ابن دريد حولها وإنما استقصى معظم ما قيل فيها من بطون التواليف اللغوية والأدبية والتاريخية، فعلم واحد مثلاً كالأرقم حققه في خمسة كتب هي التاج «تاج العروس» والجمهرة، والاشتقاق، والعقد الفريد والقاموس المحيط.

كشف هذا البحث عن أن للكرمي باعًا طويلًا في أصول اللغة وقواعدها وصرفها، علاوة على معرفته الواسعة بأخبار العرب وأنسابهم مما جعله بحق باحثًا لغويًا ممتازًا.

أظهر البحث أن الكرمي كان باحثًا قادرًا على الدراسة ومناقشة الآراء واستخلاص النتائج، وإبداء الرأي الذي يدل على أصالته واجتهاده.

ظهر أن الكرمي كان متسلحًا بثقافة عربية واسعة جعلته بحق من رواد إحياء التراث اللغوي والتاريخي.

في علم الاجتماع:

كتب الكرمي بحثًا في علم الاجتماع بعنوان «بماذا يكون انتظام المجتمع الإنساني» كان قد نشره في مجلة المجمع العلمي في 8 آب سنة 1921م. وأعاد ابنه أبو سلمى نشره في كتابه عن أبيه، وعنوان البحث، كما هو واضح، جاء على صيغة سؤال؛ كان البحث إجابة وافية عنه، فقد بين أن صلاح المجتمع وانتظامه إنما يتم بستة أشياء هي: دين متبع، وسلطان قاهر، وعدل شامل، وأمن عام، وخصب دائم وأمل فسيح. ومن الواضح أن الكرمي قد وضع الدين في مقدمة هذه الأسس؛ لأنه أقواها في تنظيم المجتمعات وإصلاحها، فقال: «ولا تعيش أمة عزيزة كريمة بغير آداب ولا فضائل، ولا يمكن أن تبنى الفضائل على غير قواعد الدين، فالدين هو مقلل الشرور، وأقوى روابط الاجتماع التي قيل أنها الدين واللغة والوطن والنسب... وهو أقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها»⁽⁶⁰⁾.

ويرى الكرمي أنه بالدين يعرف الحسن من القبيح، وإن عرف العقل ذلك فما هو إلا من قبيل الصدفة، وقد عرّج الكرمي من خلال هذه الفكرة إلى وصف حال المجتمعات التي لم تستند إلى شرع سماوي في تنظيم مجتمعاتها كما هي الحال في مجتمعات الصين والهند واليونان القديمة، فوجد أن انصراف هذه المجتمعات عن الدين وأخذها بآراء علمائها وفلاسفتها قد أودى بها إلى التقصير عن معرفة الحسن والقبيح ومن ثم كثر فيها الدهريون والطبيعيون فقال: «هذه الأمم الثلاث الصين والهند واليونان العريقة في الوجود وهذه قوانينها التي لم تستند إلى شرع سماوي، ولو أردنا تعداد آراء الفلاسفة الذين لم يأخذوا العلم والمدنية من طريق الدين لضاق بنا المجال ويكفي أن منهم الدهريين الذين لم تهدهم عقولهم إلى معرفة الصانع ووجوده فجدوه، والطبيعيين الذين بحثوا عن أفعال الطبائع وانفعالاتها وما صدر عن تفاعلها من المواليد الثلاثة الحيوان والنبات والجماد فحصل من هذا أن العقل وحده غير كاف في الوصول إلى معرفة الحسن والقبيح بل لابد له من دين يعدل سيره»⁽⁶¹⁾.

وتعرض الكرمي لدور الدين الإسلامي في تنظيم المجتمع وصلاحه، ودعا إلى تطبيق الشريعة الإسلامية في المجتمع بما يحمله هذا الدين من دعوة إلى المعروف ونهي عن المنكر.

أما الأساس الثاني فهو توافر سلطان قاهر وقادر على صون الأخلاق، وحماية الدين والعلم ويدعو بسطوته إلى اتباعهما.

والثالثة عدل شامل يكون مبعثًا للألفة والطاعة وتنمية الأموال والنسل، ويرى الكرمي أن العدل ضروري في كل أسباب المعيشة التي هي الصناعة والزراعة والتجارة ولا يفوت الكرمي أن يورد طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة التي تحض على العدل بين الناس.

والرابع والخامس منها الأمن والخصب، وقد عددهما علماء الاجتماع من أسباب صلاح المجتمع في حين يرى الكرمي أنهما من ثمرة العدل ونتيجته وليس سببين مستقلين⁽⁶²⁾.

أما الأخير فهو الأمل الفسيح الذي يدعو إلى اقتفاء ما يقصر عن استيعابه.

ويوضح الكرمي أن الدين الإسلامي قد حض على مساندة الناس بعضهم لبعض من أجل استجلاب الخيرات، ودفع المضرات، ونادى بضرورة العمل الصالح في كل شيء يمكن أن ينفع به المجتمع كإمالة الأذى عن الطريق، وسقي الماء، ونظارة البساتين، ورعي المواشي. والكرمي بذلك يرد على من يزعم أن عمل الصالحات يقتصر على الصوم والصلاة، إذ أن من يعتقد ذلك فينزوي عن الناس هو في نظر الكرمي كل على الهيئة الاجتماعية وعضو أشل فيها.

وإذا كان المجتمع يصلح وينتظم بأسس ستة؛ فإن الفرد يصلح بأمور ثلاثة هي نفس مطيعة تأتمر بالرشد وتنتهي عن الغي، وألفة جامعة تتعطف عليها القلوب ويندفع بها المكروه، وكفاية من العيش تسكن نفس الإنسان إليها⁽⁶³⁾.

ويختتم الكرمي بحثه هذا واعداداً بكتابة أشياء أخرى متممة له، مما يدل على سعة أفقه ومعرفته بأمور المجتمع وأسس صلاحه.

وعلى كل حال؛ فإن هذا البحث قد أثبت أن الكرمي قادر على الغوص في قضايا المجتمع الإنساني ومعالجتها في ضوء ما جاءت به الشريعة الإسلامية، كما أظهر البحث استغلال الكرمي لثقافته الدينية في سبيل بناء مجتمع عربي إسلامي قائم على أسس متينة.

بحوث في الثقافة العامة:

- في دور الكتب وأهميتها.
- في التعريف بالمكتبة العربية.

أما الموضوع الأول فقد كتب الكرمي فيه بحثاً بعنوان «دار الكتب العربية بدمشق» بتاريخ 1 كانون الثاني سنة 1921م، تحدث فيه عن دور الكتب وأهميتها، ثم عرج على تبيان دور الكتب في دمشق فقرر أن لدور الكتب فوائد كثيرة في تقدم الأمم ورفقها، يشهد على ذلك ما أحرزته الأمة العربية في العصر العباسي من تقدم وعمران زمن أن كان للعلم فيه دور كبير، وزمن أن كانت الحواضر الإسلامية كبغداد والحواضر المصرية والحواضر الأندلسية تزخر بالمكتبات العامة والخاصة.

ومن ثم رأى أعداء العروبة في على مر عصور أن حرق المكتبات سيؤدي بالعرب إلى الجهل والانحلال، وقد حاول «هولاكو» أن يطبق هذه الفكرة فعمد إلى إتلاف المكتبات في بغداد، وقيل أنه جمع الكتب الموجودة في مكتباتها وجعل منها جسراً عبر عليه بخيله. كما أصاب دمشق ما أصاب بغداد. إذ قيل أنها كانت لغاية القرن العاشر الهجري تضم ما ينوف عن ثلاثمائة مدرسة متنوعة، منها ما هو لإقراء القرآن ومنها ما هو لتدريس الفقه، ولكل مذهب مدارس متعددة كان طلبتها لا يتكلفون لشراء كتاب لوفرة الكتب الموقوفة فيها⁽⁶⁴⁾ غير أن الأيدي الظالمة امتدت إلى هذه المدارس وكتبها بدافع الحسد والقضاء على الأمة العربية وتركها تعيش في ظلمات الجهل.

وكما تعرضت دمشق لهذا التخريب فقد أصيبت الأندلس بأكثر من هذا، غير أن البلد الذي ظل محافظاً على آثار الحضارة الإسلامية هو مصر، لوجود الأزهر فيها، ومع ذلك لم تخل دور كتبها الوفيرة من عبث أيدي الطامعين⁽⁶⁵⁾.

لكن الأمة العربية في العصر الحديث أخذت تفيق من غفلتها، إذ آمنت أن الظلام لا يتبدد إلا بنشر العلم، وإحياء التراث عن طريق جمع أشات الكتب الموجودة هنا وهناك في مكتبات خاصة أو في مكتبات أجنبية، ففي مصر هزت الحمية الخديوي إسماعيل فأمر بإنشاء دار للكتب سميت بالمكتبة الخديوية حيث جمع فيها مجموعة كبيرة من الكتب، وطورها حتى أصبحت تضاهي دور الكتب الغربية من حيث نظامها ووفرة كتبها⁽⁶⁶⁾.

ولم تعد دمشق، هي الأخرى، من العلماء الذين بذلوا جهداً كبيراً في سبيل إحياء التراث العربي والإسلامي فحذوا حذو علماء مصر في إنشاء دار كتب عمومية جمعت لها الكتب من المكتبات الصغيرة التي كانت منتشرة في أنحاء دمشق ومن أهمها: المكتبة العمرية، ومكتبة عبد الله باشا، ومكتبة سليمان باشا، ومكتبة الملا عثمان الكردي، ومكتبة الخياطين، والمكتبة المرادية، ومكتبة السمساطية، ومكتبة الأوقاف والمكتبة الياغوشية، ومكتبة بيت الخطابة. ثم عين لهذه الدار محافظون وخدمة إلى أن أنشئ المجمع العلمي الذي تولى الإشراف عليها وتطويرها لتضم ما يزيد عن أربعة آلاف مجلد⁽⁶⁷⁾.

التعريف بالمكتبة العربية:

ولما اطمأن الكرمي إلى أن دار الكتب في دمشق قد حوت كتباً كثيرة أخذ على عاتقه عرض بعض الكتب ذات الفائدة للباحثين، ومن أهم هذه الكتب كتاب شرح إيضاح أبي علي الفارسي، وكتاب قاموس الأطباء وناموس الألباء لمدين القوصوني، وكتاب شذرات الذهب لابن عماد الحنبلي وكتاب الفوائد في معرفة علم البحر والقواعد لأحمد بن ماجد وغيرها.

وقد كانت طريقة الكرمي في التعريف تبدأ بعرض نبذة عن صاحب الكتاب ثم الحديث عن الكتاب من الناحيتين الشكلية والموضوعية، ومن المفيد أن نعرض لنموذج من تعريفاته لتتعرف على طريقته تلك وهذا النموذج هو كتاب: «قاموس الأطباء وناموس الألباء»، إذ يبدأ الكرمي بصاحب الكتاب وهو مدين القوصوني المصري، أخذ العلوم عن الشهاب أحمد المتبولي، والشيخ عبد الواحد البرجي والطب عن الشيخ داود الأنطاكي، وألف التأليف النافعة⁽⁶⁸⁾.

ثم يتحدث عن الكتاب من الناحية الشكلية فيقول: «والكتاب المذكور 358 صفحة بخط فارسي جيد، ولم يذكر في آخره تاريخ كتابته، ولا ما يدل على انتهائه بل من المحقق أن للكتاب بقية لأنه انتهى بذكر بعض الكلمات من حرف العين آخرها لفظ العقل»⁽⁶⁹⁾.

أما من الناحية الموضوعية فعادة الكرمي أن يسجل بعض ما يقوله صاحب الكتاب في خطبته ثم ينتقل إلى المواضيع المهمة التي يحتويها الكتاب حتى يلم بالصورة العامة له، وهذا الأسلوب نلاحظه في جميع الكتب التي تناولها بالتعريف فما نقله من كتاب قاموس الأطباء: «ما كل من أُلِفَ أثقن، ولا كل من صنف أحسن، فالفضل مواهب والهمم مراتب والعلم بحر زاخر، وكم ترك الأول للآخر، وكيف لا وتنقيح العلوم وتهذيبها وتحريرها وترتيبها وتحقق المنقول منها والمعقول إنما هو من نتاج العقول»⁽⁷⁰⁾.

ولم يذكر الكرمي عدد فصول هذا الكتاب لكنه كان يختار نصوصاً من بعض الفصول ذات الفائدة العامة التي تتناسب وعقلية القارئ العام والخاص فمن ذلك: «فمن فصوله قوله في حرف اللام: اللثغ محركة واللثغة بالضم تحوّل اللسان من السين إلى الثاء المثلثة، أو من الراء إلى الغين أو إلى اللام، أو من حرف إلى حرف أو تحريك الراء إلى طرف اللسان أو عدم النطق بها أو ثقل اللسان بالكلام كذا في كتب اللغة وفي كتب الأطباء»⁽⁷¹⁾.

ومن ذلك حديث صاحب الكتاب عن الربيع: «ومنها قوله الربيع عند العرب ربيع الشهور، وربيع الأزمنة فربيع الشهور شهران بعد صفر ولا يقال فيهما إلا شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر، سميا بذلك لأنهما جاءا من زمن ربيع الأزمنة»⁽⁷²⁾.

ومهما يكن فإن مثل هذه النصوص المختارة من هذا الكتاب تفيد القارئ العام، وفي رأيي أن اختيار الكرمي لها إنما يقصد بها جذب القارئ للاطلاع على هذا الكتاب، وهكذا يسير على الطريقة نفسها في بقية الكتب التي عرف بها.

الكرمي شاعراً

كتب الكرمي تحت مقولة (الكلام الموزون المقفى) شعراً ونظماً أما الشعر فتحدثنا بعض المراجع أنه كان شاعراً جواداً⁽⁷³⁾، قرص منظومات شعرية وطنية واجتماعية⁽⁷⁴⁾، وقد توافرت لدينا مجموعة لا بأس بها من هذه المنظومات الشعرية كتبت معظمها ما بين عامي (1915 - 1924م)؛ أي في مرحلة شيخوخته، وهي تمثل في نظرنا مرحلة شعرية ناضجة لابد أن يكون قد سبقتها مراحل أخرى مهدت الطريق لها، غير أننا لم نظفر له على شعر يمثل هذه المراحل السابقة، وربما يرجع ذلك إلى الأسباب التالية:

أ. أن الكرمي كان من الرجال الوطنيين الأحرار الذين كانت السلطات التركية تلاحقهم بسبب انتمائهم لحزب اللامركزية، فمن غير المستبعد أن يكون قد قال شعراً نشره بأسماء مستعارة للتمويه على السلطات التركية، ومما يؤكد هذه الفكرة أن ابنه أحمد شكر الكرمي كان يذيل كتاباته بأسماء مستعارة مثل قدامة ومسلم⁽⁷⁵⁾، وربما كان هذا الأمر من الصعوبات التي واجهت أبو سلمى حين حاول جمع أشعار أبيه مما اضطره إلى مراسلة أصدقاء والده ومعارفه ممن يكونون قد احتفظوا ببعض قصائد والده في مراحل حياته الأولى⁽⁷⁶⁾ وهي نفس الصعوبة التي واجهتني حين فكرت في الكتابة عن شعره، إذ قد فتشت فيما تبقى في مكتبته في طولكرم، كما اتصلت ببعض مثقفي عائلته في المدينة ذاتها فأفادوني بأنهم لم يستبعدوا أن يكون جدهم قد قال الشعر في صباه وفي شبابه غير أنهم لم يملكوا منه شيئاً.

ربما يكون ملاحظة الأتراك للكرمي، والقبض عليه، ومصادرة كثير مما كان في مكتبته أثر في ضياع شعره في مراحل حياته الأولى وهذا ما أكده لي أحفاده في طولكرم.

ب. أن الكرمي كما يقول ابنه أبو سلمى، كان يكتب وينشر ولكنه ليس من عادته جمع ما يكتب أو ينشر⁽⁷⁷⁾ لكثرة انشغاله بالوظائف الرسمية.

ومع ذلك فإن المجموعة الشعرية التي بين أيدينا تكاد تكون كافية لبيان شاعرية الكرمي.

أغراض شعره:

وجه الكرمي شعره لخدمة غرضين رئيسين: الوصف والمديح؛ أما الوصف فإن الكرمي قد استطاع أن يصف حالة المجتمع العربي في ظل الحكم التركي في عهده الأخير فقال في قصيدة بعنوان (دولة الترك)⁽⁷⁸⁾ «الطويل».

قضى الله أن يقضي على دولة الترك	لما أسرفت في الناس من جورها المنكي
بقتل وتعريب ونهب كرائم	وتعريضها عرض الحائر للهتك
فكم غادة كان العفاف يصونها	بروقه عن شبهة الظن والشك
ينزه عن وهم الخيال جمالها	وترفل في خز تضمخ بالمسك
هوت في مهاوي الذل من فقد قومها	وأبعدها بعد الغيور عن النسك
وألزمها ذاك التهلك صبية	أحاطت بها تشكو ومن جوعها تبكي
وكم من عزيز القدر ما بين قومه	قد اختطفته بالعذاب يد الفتك
فمن بين مصلوب، غدوا، ومغرب	ومنهب أموال يعاقب بالصك

وتبدو الحياة الاقتصادية في قمة مساوئها، حيث الفوضى، والمصادرة للأموال، والضرائب الباهظة قال في القصيدة ذاتها:

وجروا على الدنيا بلايا كثيرة	وزاد الغلا والقحط في الخوف والظنك
وقال في قصيدة بعنوان (إلهي) ⁽⁷⁹⁾ : «الوافر».	فأصبح أهله في ذل فقر
وكم قد صادروا مالا مصاناً	
وفي أخرى بعنوان (يا كاشف الكرب) ⁽⁸⁰⁾ : «السريع».	وألزموهم فوق ما يلزم
وصادروا الناس بأموالهم	

وقد انعكست هذه الصورة السيئة للحياة الاقتصادية على الأفراد، فكثرت الفقر، والجوع وتفشت الأمراض ونقص العلاج فقال في قصيدة بعنوان (الحبس)⁽⁸¹⁾: «الكامل»

والجوع فينا ضارب أطنا به	والجفن من أرق به لا يرقد
يا ويحهم فجعوا الغني بماله	وبآله فصابه متعدد
ويجورهم غيث السما لم يأتنا	ولذلك وجه الأرض أكلح أجرد
وبذا حرمتنا القوت وهو الأصل إذ	من ليس يوجد زارعا لا يحصد

وقال في قصيدته (دولة الترك)⁽⁸²⁾: «الطويل»

وجاهدت الأمراض فينا جهادهم	فلم تبق من جسم سليم بلا نهك
وزاد البلا فقد العلاج لسقمنا	فإننا عدنا منه حتى السنامكي

إن مجتمعاً هذه حالته لابد من أن يثور على الظلم وأهله، ولذلك فإن شعر الكرمي يمثل إرهاباً لثورة لابد أن تحدث، وقد حدثت فعلاً ممثلة في الحسين بن علي. نقول ذلك لأن الكرمي كان يدعو إلى الانتقام من الأتراك، وإلى إعلان العصيان والتمرد عليهم فقال في قصيدة بعنوان (إلهي) ⁽⁸³⁾ «الوافر»

تجنب ما استطعت القرب منهم
فقد تركوا الصلاة لفرط غي
وحاذر أن تطاوعهم بأمر
وشهر الصوم صانوه بفطر

ونقم على جمعية الاتحاد والترقي ممثلة في أدايتها المنفذة وهو جمال السفاح إذ قال الكرمي في قصيدة بعنوان (إلى جمال السفاح) ⁽⁸⁴⁾: «المجتث»

إلى متى يا جمال
قتل ونفي ونهب
حتى على العجم حلت
جلبت للعرب شراً
يدوم منك الضلال
لا يعتريك ملال
من جورك الأهوال
يضيق عنه المقال

أما وصف حالته فقد ذكرنا أن الكرمي قد أودع السجن وقضى فيه عامين، فقال شعراً وصف فيه حالته منذ أن قبض عليه وحتى العفو عنه، من ذلك قصيدته بعنوان «قصتي» صور فيها كيفية القبض عليه، وأخذه إلى عاليه في لبنان، حيث المجلس العرفي، ثم اقتياده إلى سجن القلعة في دمشق بانتظار تنفيذ حكم الإعدام فيه، فقال ⁽⁸⁵⁾: «الرمل»

ذات يوم كنت في شهر الصيام
وإذا الشرطة وافوا باهتمام
ثم قالوا أجب القائم مقام
فتوجهت وعيني للورا
قائلاً يا هل ترى ماذا جرى
والى «عاليه» في لبنان قد
وهناك المجلس العرفي انعقد
سألوني عن أمور لم تك
أقرأ القرآن في بيتي أمين
وعليهم غضب الرب المتين
وهو فظ أعجمي لا يلين
بفؤاد ذاهل مضطرب
حيث جدوا هكذا في طلبي
ساقني الضابط قيد الاعتقال
وأخذنا في جواب وسؤال
قط أن تخطر والله ببال

إلى أن يقول:

ثم ساقوني إلى الفيحا «دمشق»
عندما وافيتها ذقت الأشق
بين ناموس وبرغوث وبق

لأقضي السجن في قلعتها
رغم ما يؤثر من سمعتها
سال مثل السيل في بقعتها

أما المديح فيمكننا أن نقسمه قسمين:
الأول، مديح سياسي. والثاني، ابتهالات دينية.

أما مديحه السياسي فقد تمثل في قصائده التي قالها في الحسين بن علي وأبنائه، بحيث أظهر الكرمي ولاءه لبني هاشم، ورأى في الثورة العربية الكبرى خلاصاً من الأتراك وظلمهم، فقال مادحاً الحسين بن علي في قصيدة بعنوان (هول البيد) ⁽⁸⁶⁾: «الطويل».

حسين أمير المؤمنين وكهفهم
نمته قریش في ذؤابة هاشم
دعا الله أشات الفضائل والندى
فصار بهذا الفضل والمجد أمة
فجرد من سيف العزيمة صارماً
يجاهد في إحقاق حق لقومه
وحصنهم الواقى على رغم من صدا
وأباء صدق قد سموا في العلى جدا
وظلمها في جيد عليائه عقدا
تضمنها فرد وصارت له جندا
أبى في الجهاد الحق أن يألف الغمدا
تلقفه بالرغم من أهله الأعدا

كما يحض الكرمي أمير المؤمنين على أن ينظر إلى أمته العربية، وحالها التي صارت عليه في ظل الحكم العثماني ويدعو إلى تخلص الأمة من الأيدي الغربية عنها فيقول ⁽⁸⁷⁾: «الطويل»

ألا يا أمير المؤمنين دعاء من
أجل نظراً في هذه الأمة التي
تهيم إذا شامت لواءك خافقاً
تغديك بالأرواح وهي عزيزة
آل رسول الله قد أخلص الود
بغير ولاء منك لا تبلغ الرشدا
وتحيا بعز إن رأيت ملكك امتدا
ولا شيء في الدنيا سواك بها يفدى

ولا يخفي الكرمي مناداته بضرورة الولاء لبني هاشم ممثلاً في شخص الحسين بن علي فقال في قصيدة بعنوان (بشرى الخلافة) ⁽⁸⁸⁾: «الرجز»

وبالحسين بن علي رفعت
قد هتف الكون به خليفة
أعلامها وأرغمت خلافة
وأسمع الله العدا هتافه

إلى أن يقول:

نال به الأردن مجداً باذخاً
تاه به على البقاع فاخراً
وعم قدس مجده أكافه
فما دمشق بل وما الرصافة
ومنتهى ما يقتضيه ألقافه
قد صار للبيعة خير موطن

ولئن كان الكرمي قد مدح الحسين بن علي مخلصاً في ولائه له فإنه قد مدح أبناءه وبخاصة الأمير فيصل وعبد الله، ففي قصيدة بعنوان (إلى الأمير فيصل بن الحسين) قاربت المائة بيت أفرغ فيها مدحه على الأمير واضعاً فيها أمام الأمير العيب الذي أوجده الأتراك في جميع مناحي الحياة ومذكراً إياه

بالصفات العربية الأصلية من شجاعة وكرم وقهر للأعداء فقال: (89) «المتقارب

سلب الرسول وسبط البتول
له فكرة تسترق البراع
بيت العجائب إذ يرتقي
محياء يبرز جنح الدجى
فيرهبه القرن عند اللقاء

وقال مستذكراً الأمة العربية في عصورها المجيدة:

فإنّا قهرنا طغاة الملوك
ونولي الجميل ونحمي النزول
نخوض الصعاب ونفدي الرقا
ونولي الذميم العذاب الأليم

كما مدح عبد الله بن الحسين بقصيدة بعنوان (يعملات الحجيج) (90): «الخفيف» فقال:

يا سليل الرسول يا ابن حسين
عد إلينا عود الشفا لسقيم
أو كعود الحيا لأزهار روض
وتنهأ بما حوت من اليأس

وأما ابتهالاته الدينية ففيها مدح للرسول صلى الله عليه وسلم وفيها دعوات ومناجاة منه لله سبحانه وتعالى لكي يخلص أمة العرب من براثن الأتراك أو ليخلص نفسه من السجن الذي آل إليه ظلماً وجوراً فقال في قصيدة بعنوان (إلى الأمير فيصل) (91): «المتقارب»

قيا رب يا مهلك الظالمين
أبد بانتقامك خضراءهم
وكن من حميم عذاب الجحيم
وعجل فقد ضاق منا الخبا

ومن ذلك قصيدة بعنوان (يا كاشف الكرب) التي قال فيها (92): «السريع».

يا من إليه يلجأ المجرم
يا كاشف الكرب بإحسانه
أخبرنا الهادي شفيع الورى
بأن إحسانك لا ينتهي

ومن مناجاته قصيدة بعنوان (مناجاة) يدعو الله سبحانه وتعالى فيها أن يتوب عليه وأن يغفر ذنوبه فقال (93): «الوافر».

إلهي أنت غفار الذنوب
أحطت بكل شيء ربّ علماً
عصيتك جاهلاً وأتيت أرجو
وجئت لباب جودك مستجيراً
وعاملني بإحسان وعفو

وستار الفضائح والعيوب
فإنك أنت علام الغيوب
نوالك فاجعل التقوى نصيبي
ذليلاً خاضعاً فارحم مشيبي
وهب لي توبة واغفر ذنوبي

خصائص شعره الفنية

إن الدارس لشعر الكرمي يستطيع أن يلاحظ خصائص فنية لها قيمتها في زمانه، فهي، أولاً، لم تخرج عن تلك التي نلاحظها عند شاعر أموي أو عباسي مما يمكن أن تندرج تحت رغبته الواضحة في إحياء الشعر العربي تاريخياً وفنياً ولعل أولى هذه الخصائص «تقليدية الشعر» بمعنى أنه سار في جميع قصائده على النمط التقليدي المعروف الذي يسير وفق بحور الخليل بن أحمد.

وثاني هذه الخصائص: أن ألفاظ الكرمي التي أفرغ فيها شعره أو قل تجربته الشعرية مستقاة من المعجم اللغوي القديم حيناً ومن المعجم اللغوي الحديث حيناً آخر، وذلك حسب طبيعة الموضوع الذي يطرقه، إذ أن المعجم الأول يجعلك تحس بأن الكرمي كأنه من الشعراء القدماء، وفي المعجم الثاني لا تخطئ أنك أمام شاعر معاصر محافظ فحين تقرأ قوله (94): «الطويل».

فقلت أيا سعدى وحبك أني
ألم تعلمي يا عمرك الله ما جرى

لني شغل ضاقت به ساحة الصبر
على قادة العليا ذوي الغرر الغر

أو قوله (95):

تسألني سعدى التي كان عهدا
لدي كعهد الطلّ مع ناضر الزهر

أو قوله (96):

فيا ليت شعري كيف صاروا لذهم
كأنهم من شدة الذعر في قبر

تحس أنك أمام شاعر إسلامي أو أموي فالعبارات: «أيا سعدى، ألم تعلمي، يا عمرك الله، تسألني سعدى، فيا ليت شعري»، قديمة لكنها غير نابية نستشف منها إحياء للشعر في أزهى عصوره.

أما حين تقرأ قوله (97): «الخفيف».

إن يوم استقلالنا يوم عيد
نالت السعد سوريا واستقلت

قمرى تاريخه إثر شمسي
بشر العرب باتحاد وأنس

أو قوله⁽⁹⁸⁾ «الطويل».

فلم ننس (طرابلس) حين تقدمت
ولا أمة البشناق تلحق عنوة
وما شب في البلقان من جذوة سرت
فتشعر أنك أمام شاعر معاصر محافظ يعالج مشاكل عروبه ويتفاعل معها.

وثالث هذه الخصائص:
صدق العاطفة:

لا شك في أن الكرمي كان صادقاً في كل الأغراض التي صب شعره فيها، وهذا يعني أنه كان يتفاعل مع الحدث الذي يشغل باله، تفاعلاً صادقاً قلبه في إطار فني شيق، مما ينم عن عاطفة حارة فحين تقرأ قوله⁽⁹⁹⁾:

وها أنا ألقى الأسى صابراً
من زارني في السجن يلق امرأ
بمهجة في طيها ضغيم
يكنم فرط الغيظ إذ يبسم

أو قوله⁽¹⁰⁰⁾: «الرمل».

لست أنسى حين أولادي الصغار
سألوا أمهم بالانكسار
فأجابهم بأنفس حرار

أقول، حين تقرأ مثل هذه الأبيات وغيرها تجد فيها تعبيراً صادقاً عن عاطفة جياشة تملأ القلب وتثير النفس.

ورابعها، النمط القصصي:

إذ نلاحظ أن هناك بعض القصائد تأخذ إطاراً قصصياً، فحين تقرأ قصيدته «قصتي» فإنك تلاحظ أن الكرمي يسرد عليك ما حدث له منذ أن قرع الشرطي باب بيته منذراً باعتقاله حتى اقتياده إلى سجن القلعة، واصفاً ما جرى له في المجلس العرفي في عاليه. ومن المعروف أن هذا اللون من الشعر يطول حسب طبيعة الحدث، ومن ثم نلاحظ أن قصيدته هذه قد قاربت المائة والثلاثين بيتاً، هي أشبه بوثيقة تاريخية تصور المعاملة السيئة للسلطات التركية تجاه الوطنيين الأحرار في ذلك الوقت.

وخامسها، كثرة الاقتباسات والتضمينات:

إذ نلاحظ أن شعره وبخاصة ذاك الذي قاله في الابتهالات الدينية يزخر بالتضمينات الشعرية

والاقتباسات الدينية ولهذه التضمينات والاقتباسات الدينية فائدتان الأولى في تقوية المعنى الذي هو بصدده، والثانية في بيان ثقافة الكرمي الدينية والشعرية ومن أمثلة ذلك قوله: «المتقارب»⁽¹⁰²⁾.

فراحت تمر كمر السحاب
أو البرق في جنح ليل سرى
وقوله⁽¹⁰³⁾: «الوافر».

أحطت بكل شيء رب علما
فإنك أنت علام الغيوب

وقوله⁽¹⁰⁴⁾ «السريع»:

يا مالك الملك أشكو
ومن تضميناته قوله⁽¹⁰⁵⁾ «المتقارب».

ولو عرَّه الجهل ما استسرا
«فإن البغاث» برقع البزاة

وقوله⁽¹⁰⁶⁾ «الطويل»:

أشهر ما بين الورى من قفا نيك
وهذا رأينا عياناً معاناً

أما نظمه فإن الكرمي قد نظم في «أرجوزة» تنوف على المائة والخمسين بيتاً قواعد العربية، مقلداً في ذلك قدماء النحاة كابن مالك وغيره من أجل تقريب القواعد العربية العامة إلى أذهان التلاميذ؛ مؤمناً بما آمن به القدماء من أن النظم أيسر للحفظ من النثر، وهذا اللون من النظم يخلو من العاطفة أو الانفعال أو الخيال أو الرؤى الفنية الأخرى، وبالتالي فإنه وإن كان موزوناً مقفى إلا أنه ليس شعراً.

والأرجوزة تشتمل على مقدمة وثلاثة أبواب، غير أنه ذكر قبل المقدمة عدة أبيات استهلالية منها قوله⁽¹⁰⁷⁾ «الرجز».

قال سعيد الحنبلي الكرمي
الحمد لله الذي قد رفعنا
ثم الصلاة وهي أعلى القرب
وفقه الله لنشر العلم
مقام من لنحو بابه سعى
على النبي الهاشمي العربي

وفي الباب الأول نظم فيه قواعد العامل النحوي، اللفظي منه والمعنوي⁽¹⁰⁸⁾ وفي الباب الثاني نظم قواعد المعمول⁽¹⁰⁹⁾ أما الباب الثالث فقد نظم فيه قواعد الإعراب والبناء⁽¹¹⁰⁾ وقد ختم الأرجوزة بقوله:

وأحمد الله الذي أعانا
مصلياً مسلماً طول المدى
وآله وصحبه وكل من
ما سجعت في أيكها الحمام
حتى أكتسى نظامها البيانا
على النبي الهاشمي أحمدا
سار من الهدى على خير سنن
ولاح بدر زانه التمام

وفي رأينا أن نظم القواعد العربية وبالذات في زمان الكرمي إنما يعد إحياء لقواعد العربية، لا يقل في الهدف والغاية عن إحياء القصيدة الشعرية. وهذا إسهام واضح من الكرمي في حركة إحياء التراث العربي ممثلاً في الشعر والنظم.

الهوامش

1. أبو سلمى، عبد الكريم الكرمي : الشيخ سعيد الكرمي سيرته العلمية والسياسية، المطبعة التعاونية، دمشق، 1973، ص 203.
2. الزركلي، خير الدين : الأعلام، 8 أجزاء، ط 5، دار العلم للملايين، بيروت، 1980، ج 3، ص 98.
3. أبو سلمى، ص 31.
4. آل جندي، أدهم : أعلام الأدب والفن، ج 2، مطبعة مجلة سورية، مطبعة الاتحاد، دمشق، 1954، 1958، ج 1، ص 368.
5. الزركلي، ج 1، ص 134.
6. أبو سلمى، ص 25.
7. آل جندي، ج 1، ص 368.
8. أبو سلمى، ص 25.
9. المرجع السابق، ص 25.
10. فهمي، منصور : «خطبة في مدينة يافا»، مجلة الزهراء، القاهرة، 1924، م 1، ص 52.
11. آل جندي، ج 1، ص 368.
12. المرجع السابق، ج 1، ص 369.
13. مخلص، عبد الله : «الأرقام»، مجلة الزهراء، 1927، م 5، ص 273.
14. زرت مكتبة في ديوان آل الكرمي في طولكرم حيث أطلعني ابنه حسن مشكوراً، على ما تبقى في مكتبته من كتب نقلها إلى بيته وذلك بسبب ترميم الديوان، ورأيت بين كتبه بعض الوثائق والأوراق التاريخية القديمة، وفهرس بما كانت تحتويه هذه المكتبة.
15. أبو سلمى، ص 66.
16. المرجع السابق، ص 67.

17. الكيالي، سامي : الأدب العربي المعاصر في سوريا، ط 1، القاهرة، 1959، ص 9.
18. السكاكيني، خليل : كذا أنا يا دنيا نشر هالة السكاكيني، المطبعة التجارية، القدس، 1955، ص 34.
19. الشهابي، مصطفى : القومية العربية، القاهرة، 1959، ص 106.
20. الأسد، ناصر الدين : الاتجاهات الأدبية الحديثة في فلسطين والأردن، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، 1957، ص 9.
21. لمزيد من التفصيل ينظر، الحصري، ساطع : حولية الثقافة العربية، السنة الأولى، القاهرة، 1948، ص 10. الأسد، ص 24-25 : باغي، عبد الرحمن : حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة - حتى النكبة، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1968، ص 63-71.
22. جبارة، تيسير : دراسات في تاريخ فلسطين الحديث، ط 2، مؤسسة الببادر، القدس، 1986، ص 44.
23. السوافيري، كامل : الأدب العربي المعاصر في فلسطين، دار المعارف، القاهرة، (ب : ت)، ص 66.
24. الأسد، ص 50.
25. لمزيد من التفصيل ينظر، باغي، ص 83-88.
26. أبو سلمى، ص 21.
27. المرجع السابق، ص 22.
28. المرجع السابق، ص 26.
29. المرجع السابق، ص 27.
30. الفتيت، أحمد : تاريخ المجمع العلمي العربي . مطبعة الترقى، دمشق، 1956، ص 9.
31. أبو سلمى، ص 51.
32. المرجع السابق، ص 51.
33. المرجع السابق، ص 52.
34. المرجع السابق، ص 265 - 275.
35. المرجع السابق، ص 28.
36. المرجع السابق، ص 52.
37. لمزيد من التفصيل ينظر : حسين، محمد محمد : «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، 1972، ج 2، ص 190-287.
38. الكرمي، سعيد : «اللغة والدخيل فيها»، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، 1921، م 1، ص 129.
39. المرجع السابق، ص 132 - 133.
40. المرجع السابق، ص 131.
41. المرجع السابق، ص 132.
42. المرجع السابق، ص 133.
43. حسن، عبد الحميد : الألفاظ اللغوية خصائصها وأنواعها، القاهرة، 1971، ص 65.
44. ظاظا، حسن : كلام العرب من قضايا اللغة العربية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1976، ص 79.
45. الكرمي، «اللغة والدخيل فيها» م 1، ص 133.
46. المرجع السابق ص 133. ولمزيد من التفصيل في المصطلحات الخاصة بالتعريب ينظر، محمد حمادي، محمد ضاري : حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث. دار الرشيد للنشر، بغداد، 1981، ص 277-313.
47. الكرمي، «اللغة والدخيل فيها» م 1 / ص 135.
- الفرنند : السيف . البقم : شجرة جوز . جريز : الحب الخبيث .
48. المرجع السابق ص 136.
49. المرجع السابق ص 134.
50. هو سعيد الشرتوني واسم كتابه «أقرب الموارد في فصيح العربية والشوارد»، طبع سنة 1889 في مطبعة مرسللي اليسوعية.
51. الكرمي، «اللغة والدخيل فيها» م 1، ص 135.
52. المرجع السابق، ص 135.
53. أبو سلمى، ص 117.
54. المرجع السابق، ص 117.
55. الكرمي، سعيد : «الإعلام بمعاني الأعلام»، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، 1922، م 2، ص 3.
56. المرجع السابق، ص 2.
57. المرجع السابق، ص 2.
58. المرجع السابق، ص 3.
59. مخلص، عبد الله : «الأرقام»، مجلة الزهراء، 1924، م 4، ص 615.
60. أبو سلمى، ص 181.

الفهرس

535	تعريف بدائرة المعارف الفلسطينية
535	المحتوى
535	الهدف
536	الآلية:
536	حدود المسؤولية
537	تصدير
539	مقدمة
	الدكتور نعيم خضر
543	الدكتور نعيم خضر
543	المقدمة
543	نشأته
544	نعيم الإنسان
545	نعيم المفكر
545	نعيم المواقف
545	نعيم الانتماء
550	كتاباته
551	كان يعرف بأنه سيموت: «أنا لا أخاف الموت»
552	المصادر والمراجع
	الدكتور إسحاق موسى الحسيني
555	الدكتور إسحاق موسى الحسيني
555	النشأة والتكوين العلمي
555	أصل أسرته
555	التكوين العلمي للدكتور إسحاق
558	المؤثرات الثقافية التي أسهمت في تكوين شخصيته
559	حياته وأدبه
560	مؤلفاته العلمية وكتاباته الإبداعية
561	مؤلفاته الإبداعية ودراساته الأدبية والنقدية
562	مؤلفاته في الفكر والحضارة الإسلاميين
564	مؤلفاته التربوية
565	مؤلفاته في التاريخ والتراجم
565	مؤلفاته الفكرية والقومية
566	مؤلفاته اللغوية
567	جولة مع تراث الحسيني

61.	المرجع السابق، ص 184.
62.	المرجع السابق، ص 188.
63.	المرجع السابق، ص 190.
65.	المرجع السابق، ص 10.
66.	المرجع السابق، ص 10.
67.	المرجع السابق، ص 11.
68.	المرجع السابق، ص 177.
69.	المرجع السابق، ص 177.
70.	المرجع السابق، ص 177.
71.	المرجع السابق، ص 177.
72.	المرجع السابق، ص 177.
73.	مجاهد، زكي: الأعلام الشرقية، في المائة الرابعة عشرة الهجرية من سنة 1301 إلى سنة 1365هـ / 1883-1946م. مكتبة مجاهد، القاهرة، 1963، ج 2، ص 33.
74.	آل جندي، 1/ 368.
75.	الكرمي «أحمد شاكر»: الكرميات ط 1، مطبعة المنار، القاهرة، 1339هـ / 1921م، ص 11، 17، 21، 33.
76.	أبو سلمى، ص 9.
77.	المرجع السابق، ص 9.
78.	المرجع السابق، ص 243.
79.	المرجع السابق، ص 246.
80.	المرجع السابق، ص 237.
81.	المرجع السابق، ص 233.
82.	المرجع السابق، ص 243.
83.	المرجع السابق، ص 246.
84.	المرجع السابق، ص 218.
85.	المرجع السابق، ص 211.
86.	المرجع السابق، ص 252.
87.	المرجع السابق، ص 253.
88.	المرجع السابق، ص 254.
89.	المرجع السابق، ص 229.
90.	المرجع السابق، ص 257.
91.	المرجع السابق، ص 233.
92.	المرجع السابق، ص 237.
93.	المرجع السابق، ص 236.
94.	المرجع السابق، ص 225.
95.	المرجع السابق، ص 224.
96.	المرجع السابق، ص 224.
97.	المرجع السابق، ص 250.
98.	المرجع السابق، ص 250.
99.	المرجع السابق، ص 238.
100.	المرجع السابق، ص 226.
102.	المرجع السابق، ص 214، أما قوله «كسر السحاب» فهو اقتباس من سورة النمل: 88.
103.	المرجع السابق، ص 236، وقوله: «فإنك أنت علام الغيوب». مقتبس من سورة المائدة: 109.
104.	المرجع السابق، ص 240، وقوله: «بني وحزني» مقتبس من سورة يوسف: 86.
105.	المرجع السابق، ص 229، وقوله: «البغاث... الخ» تضمنين للمثل «إن البغاث بأرضنا تستنسر».
106.	المرجع السابق، ص 244، وقوله: «قفا نيك» تضمنين من قصيدة أمري القيس المشهورة.
107.	المرجع السابق، ص 265.
108.	المرجع السابق، ص 266-270.
109.	المرجع السابق، ص 270-273.
110.	المرجع السابق، ص 273-275.

569	طريقة أوصى بها الدكتور الحسيني لاستعمالها في تدريس الأبجدية
570	مصطلحات النقود في البلاد العربية في نظر الدكتور إسحاق موسى الحسيني
571	فن إنشاد الشعر عند العرب
573	رأيه في الأدب الحديث
574	الدكتور إسحاق الحسيني والشعر
579	الخاتمة
580	مصادر هذه السيرة
583	محمود دسوقي
583	محمود دسوقي
585	مقدمة الطبعة الأولى
586	مدخل
590	حياة الدسوقي في سطور
590	أهم أعمال الدسوقي
591	أهم دواوينه الشعرية
596	الاتجاه القومي والوطني في شعر محمود دسوقي
599	الاتجاه السياسي في شعر محمود دسوقي
601	الالتزام في الشكل والمضمون في شعر الدسوقي
603	التوثيق في شعر محمود دسوقي
605	المراجع
607	كتبوا في محمود دسوقي
609	الالتزام والثورة في شعر محمود الدسوقي
609	تمهيد
611	مفهوم الالتزام
612	أعمال الدسوقي
613	مضامين شعره
614	التمرد والإباء
615	التحريض
615	تجربة السجن
616	المرأة
617	اللاجئون
618	التوثيق
619	البعد القومي
619	الأرض
621	القدس
	الفعاليات السياسية وعضويته في الجمعيات
	الهوامش

قَدْرِي طَوْقَان

625	قَدْرِي طَوْقَان
625	مدخل
626	حياته ونسبه
627	قَدْرِي مفكراً
627	في السياسة
628	في الحكم
628	في القنبلة الهيدروجينية
629	في السلام
629	في المثقف
629	في الأخلاق
630	في التربية والتعليم
631	قَدْرِي المسلم
631	قَدْرِي قومياً عربياً
633	قَدْرِي أدبياً لغوياً
634	قَدْرِي عالماً
636	قَدْرِي وطنياً مناضلاً
636	ظاهرة التكرار في أعمال «قَدْرِي طَوْقَان»
639	مؤلفات قَدْرِي طَوْقَان
639	الكتب
640	البحوث والمؤتمرات
642	الهوامش
647	الشيخ سعيد الكرمي
649	تصدير
649	حياة الشيخ سعيد الكرمي
650	نسبته ونشأته
651	ثقافته
653	نشاطه الوطني
654	نشاطه التربوي
654	نشاطه الاجتماعي والسياسي
655	نشاطه المجتمعي
656	مكونات شخصيته
656	آثاره
656	الكرمي باحثاً
656	في علم الاجتماع

665

666

667

671

674

التعريف بالمكتبة العربية

الكرمي شاعراً

أغراض شعره

خصائص شعره الفنية

الهوامش

